مصر الوجه الآخر

فراعنة وعبيد




صالح الورداني

فراعنة وعبيد

مصر الوجه الآخر

صالح الورداني

فراعنة وعبيد..

مصر الوجه الآخر..

تأليف:

صالح الوردانى



صالح الورداني

مصر الوجه الآخر

فراعنة وعبيد

مقدمة

الحق دائماً مر، والجهر به أشد مرارة..

كان هذا هو شعاري الدائم الذي أدى بي إلى الصدام بكل من حولي من المصريين بشتى شرائحهم وانتماءاتهم العقدية والثقافية..

وأدى بي إلى الصدام بالجماعات الإسلاميةالتي كنت يوماً واحداً من مؤسسيها..

وأدى بي إلى الصدام بالمؤسسات والرموز الدينية على مستوى السنة أولاً..

وعلى مستوى الشيعة التي تحولت إليها ثانياً ..

ونتج عن ذلك أن حكم علي بالمروق والزندقة والإضطراب، وغير ذلك من الأحكام التي تستخدم من قديم ضد أصحاب الرأي ..

وهذا الكتاب يعد صورة من صور الصدام مع الوطن الذي عشت فيه وترعرعت في ظله..

ومع الشعب الذي كنت فرداً من أفراده ..

إلا أنه يمثل صداماً أكبر وأشد مع فراعنة مصر المستعبدين لشعبها، الناهبين لثرواتها، المنتهكين لكرامتها..

وهنا تكمن أهمية هذا الكتاب ..

وهنا أيضاً يكمن سر الحرب الشعواء التي سوف تشن عليه، تلك الحرب التي سوف تشن دفاعاً عن الفرعون والفراعنة، وليس دفاعاً عن مصر وشعبها..

إن مصر اليوم تعيش فترة من أظلم فترات تاريخها في ظل الفرعون الحالي حيث ساد الفساد وقنن وأضفيت عليه المشروعية، وحيث أصبحت الوطنية خيانة، والشرف نقمة، والقيم تأخر ورجعية ..

والحال فيها أشبه بساقية تدور بالشعب لتصب الماء للفرعون بينما الشعب يموت عطشاً..

ولا يمكنك أن تعيش فى مصر اليوم إلا أن تكون ذليلاً خانعاً تأكل الفتات، وتقدم التحيات للبشوات والبكوات..

والأزمة فى مصر ليست أزمة فراعنة بقدر ما هى أزمة عبيد لم يعد لهم دور، ولم تعد لهم كلمة، ولا إرادة فى التغيير أو الترقى لحال أفضل..

وهذا ما غاب عن الكثير من المثقفين والثوريين الذين أضاعوا أعمارهم فى سبيل إنهاض هذا الشعب وتحريكه دون جدوى، وكانت النتيجة أن سقطوا فى قبضة الفرعون دون أن يبكى عليهم أحد، أو هجروا مصر إلى غير رجعة، أو أصابتهم حالة جنون فهاموا فى الطرقات على وجوههم..

وما أكثر الهائمين على وجوههم فى مصر اليوم..

ورغم حركة التاريخ ووقائعه الثابتة المتعلقة بمصر والتى سوف نعرض لها..

ورغم الواقع المرير المنهار والمتدنى والإفلاس والفشل فى كل شئ..

ورغم الفقر والبؤس والشقاء الذى يعتصر الشعب اعتصاراً..

رغم ذلك كله يسعى الإعلام المصرى السفيه جاهداً لإدخال الجميع فى دائرة الغيبوبة عن الواقع..

ويصر أيضاً على تصوير مصر على أنها أم الدنيا، والترويج لفكرة حضارة سبعة آلاف سنة..

ولم تكن مصر يوماً أم الدنيا، وتبنى مثل هذا الكلام السفيه يحط من كرامتها ويصورها بصورة قبيحة..

وإذا كانت مصر أم الدنيا فمن هو أبوها..؟

وهل هذه الدنيا وجدت بلا أب..؟

ولم تكن مصر يوماً صاحبة حضارة، بل كانت وعاءاً للفراعنة بشتى أشكالهم وصورهم..

تستنزف ثرواتها ما بين الحين والآخر..

ويسخر شعبها لبناء معابد وقصور وقبور لخدمة الفراعنة..

ورغم كل الكوارث والنكبات والغزوات التى جعلت من مصر ألعوبة لشعوب الأرض، لا يزال المصريون يرفعون شعار: مصر المحروسة الذى اخترعه المماليك ..

والشعب المصرى يقر ويعترف بجبنه وانهزاميته ولامبالاته بما يجرى ويدور من حوله.. ويقر ويعترف بفساد حكامه وإجرامهم، وخراب وطنه على أيديهم، بل إنه يعرف الكثير عما يجرى فيه، إلا أنه محبط ويائس وفاقد الثقة فى نفسه وفيمن حوله من السياسيين والمثقفين، فمن ثم هو ينتظر التغيير دائماً من فوق ولا يفكر أو يسعى لأن يكون من تحت..

ينتظر من يثور نيابة عنه، و يحرره من أغلال الفرعون، أو ينتظر الخلاص من السماء..

إن الكتابة عن مصر فضلاً عن كونها تحتاج إلى قدر كبير من الإلمام بتاريخها، تحتاج أيضاً إلى قدر أكبر من المعاناة فى مؤسساتها وشوارعها ومدنها وقراها وسجونها، ومع شرائحها المختلفة من عوام ومثقفين وإسلاميين وسياسيين ومسئولين وغيرهم..

وهذا القدر من الإلمام والمعاناة قد عايشته..

وما أطرحه فى هذا الكتاب هو قليل من كثير، ليس من صنع خيالى وإنما هو من صنع الواقع والتجارب الطويلة التى عايشتها فى ظله..

تجاربى فى الشارع مع العامة والمثقفين..

وتجاربى فى السجون والمعتقلات..

وتجاربى مع التيارات الإسلامية..

وتجاربى فى العمل والكد..

وحتى تجاربى مع الأقارب والأصدقاء..

تلك التجارب التى تؤكد أنه لم يعد هناك مكان لأصحاب العقول فى مصر اليوم، ولا لأصحاب الكرامة، ولا لأصحاب المروءة..

وأن البقاء فيها يعنى التخلى عن العقل والكرامة والمروءة..

وأنه لا يمكنك أن تعيش فيها إلا أن تكون فرعوناً، أو تكون عبداً..

ومن السهل أن تكون عبداً، ومن الصعب أن تكون فرعوناً فى بلد يزدحم بالفراعنة..

ونحن لا نهدف من وراء هذا الكتاب إلى الحكم بأن المجتمع المصرى شر كله فلا يوجد مجتمع يخلو من الخير، إلا أن الخير فى مصر قليل يستره شر كثير..

وما جرى لمصر وما يجرى فيها مما لم يسطره هذا الكتاب يعلنه الإعلام الذى يعرى مصر على الملأ ..

ويعلنه أيضاً المصريون بسلوكياتهم وممارساتهم على مستوى الدخل والخارج ..

صالح الوردانى

Salehalwerdani@yahoo.com

□□□

تركيبة الواقع

1 الوافد سيد والقاطن عبد..



يعد الشعب المصرى خليطا من الأعراق المختلفة والمتنافرة التى حطت على مصر فى أحقاب متعددة من التاريخ..

والغريب أن هذه الأعراق ذابت فى هذا الواقع وانصهرت فى بوتقته بحيث أنها أصبحت لا تحمل إلا القليل من مقومات شخصيتها الأولى، والبعض منها ذاب بالكلية كما هو حال العرب والترك والجريج ..

هذا مع الإشارة إلى أن هناك العديد من الأعراق التى لم تطب لها الحياة فى مصر فمكثت فيها قدر ما مكثت ثم رحلت عنها، كذلك الأعراق الإستعمارية التى استعمرت مصر لقرون طويلة أو أقل ثم رحلت عنها، أو أخرجت منها بفعل قوى استعمارية أخرى حلت محلها، كما هو حال الهكسوس والفرس والبطالمة والرومان والعرب والكرد والترك..

والراصد لتاريخ مصر يجد أن معظم أعراق العالم قد توافدت عليها واستوطنت بها، ويرجع البعض هذا إلى عبقرية المكان، وهذا صحيح من منظور أن المكان كان مستباحاً للجميع، فكل شعوب الأرض تأتى إلى مصر كى تنهبها وتمتص ثرواتها دون أن تواجه أية صعوبات..

وهو ما يفسر لنا ظاهرة توافد الأجانب الأوربيين إلى مصر وتمكنهم فيها، وتحولهم إلى إقطاعيين وأصحاب ثروات وأعمال ضخمة..

ومن قبلهم الكرد والمماليك والأتراك والأرناؤود الذين تحولوا إلى باشوات وإقطاعيين..

وهو ما نعاصره اليوم تحت مظلة الاستثمار الأجنبى حيث برزت فى مصر العديد من المشروعات الضخمة التى أقامها الأجانب المستثمرون والتى تحقق لهم أرباحاً خيالية، هذا

بالإضافة إلى المستثمرين المحتالين الذين نصبوا على البنوك وعلى المصريين وفروا إلى الخارج..

وعمليات النصب والنهب هذه إنما تتم بمعونة من المصريين الذين يقتسمون الأرباح مع هؤلاء السارقين لثروات مصر، بينما الشعب الذى يتضور جوعاً يتفرج على هذا كله دون أن يحرك ساكناً، وغاية ما يتمناه هو الحصول على عمل فى دائرة هذه المشروعات حيث الرواتب العالية التى من الممكن أن تنعشه اقتصادياً..

وهو قد اكتفى بإطلاق مثلاً فى مواجهة هذه الظاهرة يقول: **خيرها لغيرها**، فالمصرى يشعر دائماً أنه لا يملك شيئاً فى وطنه، وأن خيرات هذا الوطن تذهب لغير المصريين، وقد ساعد على تكوين هذا الشعور الخليط المتنافر المكون للمجتمع المصرى والذى حال دون تحقيق الانسجام بين المصريين الذين إذا ما قدر لهم أن يجتمعوا فى مكان واحد فإنهم يتصادمون ويتعاركون، وهو ما يشهد به حال الحارة المصرية من قديم، وكذلك حال المصريين فى الخارج على ما سوف نبين ..

وهو ما يفسر أيضاً حالة عدم الانسجام بين أفراد الشمال (المتحضرين) وأفراد الجنوب (الصعايدة) الذى لم يحظ بنصيبٍ كافٍ من التحضر، وكم النكات الساخرة التى يطلقها الشماليون على أهله وكذلك الأمثال..

وهذا الخليط المتنافر من الأعراق هو السبب المباشر فى ضعف إنتماء المصريين لبلدهم، وقابليتهم السريعة للتضحية به وبيعه إن أمكن، كما نرى اليوم ما يحدث من بيع للآثار، ونهب للبنوك الوطنية، وإستيراد للحوم الفاسدة، وحتى استجلاب النفايات النووية ودفنها فى مصر، والمخدرات وترويجها بين المصريين ..

قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان عن مصر: **وأما سكان ارض مصر فأخلاط من الناس مختلفو الأصناف من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وارمن وحبشان وغير ذلك من الأصناف والأجناس، إلا أن جمهورهم من القبط، والسبب فى اختلاطهم تداول المالكين لها والمتغلبين عليها من العمالقة واليونانيين والروم والعرب وغيرهم، فلهذا اختلطت انسابهم واقتصروا من الأنتساب على ذكر مساقط رؤوسهم، وكانوا قديماً عباد اصنام ومدبرى هياكل إلى أن ظهر دين النصرانية فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فى أيام عمر بن**

الخطاب، فأسلم بعضهم وبقى البعض على دين النصرانية، وغالب مذهبهم يعاقبة، أما اخلاقهم فالغالب عليها إتباع الشهوات، والإنهماك فى الملذات، والإشتغال بالتنزهات، والتصديق بالمحالات، وضعف المرائر والعزمات ..

ويعد هذا الكلام أحسن وصف لحال مصر، وأدق تشخيص لتركيبة المجتمع المصرى، وأفضل تحديد لملامح الشخصية المصرية..

ونفس كلام ياقوت ذكره المقريزى فى مقدمة كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بخطط المقريزى غير أنه أضاف عن أخلاق المصريين ما يلى:

ولهم خبرة بالكيد والمكر، وفيهم بالفطرة قوة علية وتلطف فيه وهداية إليه لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم فى ذلك مشهوراً، والمثل بهم مضروباً ..

والحديث عن تركيبة المجتمع المصرى يفرض علينا استعراض مكوناته التى تنحصر فى وجهين هما:الوجه البحرى والوجه القبلى ..

أولاً: الوجه البحرى وهو شمال مصر موضع اهتمام الحكومات من قديم، ومنبع رجال الحكم والسلطة..

وفيه موانئ مصر الرئيسية وهى:الإسكندرية وبور سعيد ودمياط والسويس..

أما الأعراق التى يتكون منها فهى متعددة:

فهناك العرق الكردى وهو من بقايا الكرد الذين وفدوا إلى مصر فى العصر الأيوبى..

وهناك العرق المملوكى وهو من بقايا الأجناس التى تنتمى لبلاد التركمان والأوزبك والطاجيك والترك أو ماكانت تسمى ببلاد ما وراء النهر ..

وهناك العرق التركى وهو من بقايا الترك الذين وفدوا إلى مصر فى العصر العثمانى..

وهناك العرق الأرناؤودى وهو من بقايا الألبان الذين جاؤا مع محمد على ..

وهناك العرق البربرى المغربى الذى نزح من بلاد المغرب وليبيا بداية من العصر الفاطمى..

وهناك العرق الشامى من بقايا الشوام الذين نزحوا إلى مصر فى القرن الثامن عشر ..

وهناك الأرمن والطليان واليونان الذين وفدوا مع فترة الإحتلال الإنجليزى..

وهناك العرق السودانى والحبشى..

وهناك العرق الفارسى الذى استوطن مصر فى القرن الثامن عشر..

وبالإضافة إلى هؤلاء هناك العرق العربى من بنى سليم وبنى فايد وبنى خذام وبنى عدى وبنى خفاجه وبنى فزاره وغيرهم وهو الذى يشكل الأغلبية اليوم..

وتأتى بعدهم قبائل سيناء ذات الأصول الشامية والمغربية ..

وإنك لتجد مثلاً فى مدينة المنصورة عاصمة محافظة الدقهلية، التى تقع على فرع النيل الذى ينتهى فى محافظة دمياط ويصب فى البحر هناك الكثير من أهل هذه المدينة وقراها يتميزون بالبشرة البيضاء والعيون الخضراء وجمال النساء، وهذا ناتج من عملية التلاقح التى تمت مع الفرنجه حين دخلوا هذه المدينة أُثناء غزوهم مصر..

وقد امتدت شهرة المنصورة إلى خارج مصر حيث توافد عليها رعاة الشاة من بدو الخليج وجزيرة العرب لنكاح نسائها بأرخص الأثمان، بالنسبة لهم طبعاً، أما بالنسبة للمصريين فهى أثمان غالية لا يحلم بها الأب المصرى ولا يقدر عليها أى شاب مصرى ..

وتجد هذا اللون أيضاً فى مدينة رشيد التى يصب فيها الفرع الثانى من النيل وهو ناتج عن تعرض هذه المدينة للغزوات الأجنبية فى فترات متعددة ، حيث حدث الاختلاط بين النساء المصريات والأجانب..

وكذلك تجد من هذا اللون فى دمياط الميناء الرئيس لمصر فى العصر الإسلامى، والتى يتكون شعبها من ذوى الأصول التركية والشامية والعربية وتجده أيضاً فى محافظة الشرقية..

ودمياط مدينة ذات طابع خاص يختلف عن بقية مدن مصر إذ أن أهلها يهتمون بالنظافة، ويمارسون التجارة من قديم، وبرعوا فى العديد من الصناعات مثل: صناعة الأحذية والأثاث والأجبان والحلويات، تلك الصناعات التى تعلموها من الشعوب التى احتكوا بها وميزتهم عن محافظات مصر الأخرى، وبالإضافة إلى هذا حمل أهل دمياط طباعاً خاصة هى أشبه بطباع الأوربيين، حيث يقدسون العمل ولا يضيعون أوقاتهم فى الطقوس والعادات التى ينشغل بها أهل المحافظات الأخرى، فتجد الفرد منهم تخرج من الجامعة ويحمل مؤهلاً علمياً ولايزال يعمل فى مهنة أجداده ..

وهـذا الطابع لأهل دمـياط جعل المصـريين الآخرين يسـخرون منهم، ويعتـبرونـهم بخلاء، ويطلقون عليهم النكات، ومن هذه النكات: **ان مصرياً استضاف دمياطياً فى بيته وأكرمه، وقدر ان ذهب المصرى إلى دمـياط ويـصحبته إثـنين من أصحابه وطرق بـاب الدمـياطى فلم يـجبه، فلما يأس من الطرق صاح عليه: يا فلان كلمنا ده موسى كلم ربه ياأخى، فطل عليه الدمياطى من النافذة قائلاً: موسى كان وحده ياأخى..**

والإسـكـنـدريـة ودمـياط ورشـيـد والمنـصـورة مـن المدن الـقـديـمـة فـى مـصـر، وأقـدمـهم الإسـكـنـدريـة التى يـسبـق وجودهـا الـعـصـر الإسلامى، والـتـى تـعـد مـركـزاً للأرمن والـطـلـيان واليونانيين ولا تزال بقاياهم قائمة فيها إلى اليوم ..

ولاتزال الأحياء الـرئيسـيـة فى الإسكندريـة تحمل الأسماء الأجـنبية حـتى اليوم مثل: حى سان اسـتفانـو، وحى كليـوباترا، وحى كـامب شيزار، وحـى الـهانوفـيل، وحى باكوس، وحى الأزاريطه وحى «جليم» وغيرهـا..

وفى الساحل الشـمالى الغـربى من مصر تـقـع مـحافـظـة مرسـى مطروح، ومدينـة السلوم التى تعد آخر حدود مصـر غرباً ومنها يتم الدخول إلى ليبيا، والساحل الغربى وصـحـراؤه هو موطن الـهجرات المغـربية الـليبية، ولاتـزال تستـوطنه حتى الآن قبـائل أولاد على التى تـتكلم بـاللهجة الليبـية ومنها امتدت إلى الإسـكـندرية لتشـارك الأرمن واليونـان والطليان فيها، كذلك توجد فى هذا السـاحل بقايا قبائل المرابطين المهاجرة من المغـرب ..

ومن الوجه البحرى تأتى مـحافـظة المنوفية التى يتهكم المصـريون على شـعبها ويـتهمونـهم بالبخل وقلة المروءة وضـعف النخوة..

وهذه المحـافظة هـى التى تحكم مـصر مـنـذ عصر الـسـادات الـذى كان ينـتمى إليـها وكذلك الفرعون الحـالى، فلا تـجد وزيراً أو مسئولاً هـاماً إلا ويكون منـها ..

وفى الوجه البـحرى أيضاً محافظة الشرقيـة التى يتكون أغلبها من العرب، وكانت تشـتهر بـالكرم وحسن الضـيـافة حـتى ضرب بـهم المثل وقيل عـنـهم: الـلى عزموا الـقطر، أى من بـالـغ كرمهم أوقفوا القطار واستضـافوا الركاب ..

ثـانيـاً: الوجه القبلى وهو جـنوب مصـر الذى يطـلق عليه الـصعيد ويتكون فى معظمه من قبائل عربـية مخـتلفة مـثل جهينـة والـهواره وربيـعة وهلال وسليم

وكلاب وغيرهم، بالإضافة إلى الأشراف وقطاعات أخرى ذات أصول تركية ومملوكية استوطنت الصعيد فى فترة الغزو العثمانى، وفترات الاضطراب والصراعات التى وقعت بين المماليك فى بداية عصر محمد على ..

وفى أقصى الصعيد تقع منطقة النوبة التى تستوطنها قبائل نوبية ذات ملامح إفريقية وتتكلم لغة شفهية غير مكتوبة بالإضافة إلى اللغة العربية..

وأهل النوبة هم أولئك الذين استعملهم كبراء المصريين كخدم وحراس بيوت وأبرزتهم السينما المصرية فى هذه الصورة المتدنية..

وهناك قبيلة الجعافرة التى تنتسب إلى جعفر الصادق..

وقبيلة العبابدة ذات الملامح الإفريقية أيضاً..

والجنوب يبدأ من محافظة الجيزة ثم محافظة بنى سويف والفيوم التى تتواجد بهما نسبة كبيرة من آثار الفراعنة، ثم محافظة المنيا وأسيوط التى يتواجد بهما أكبر تجمع مسيحى فى مصر، ثم محافظة سوهاج ومحافظة قنا التى تضم مدينة الأقصر السياحية، ومدينة قوص التى كانت من مراكز التشيع فى العصر الفاطمى، وأسوان مركز النوبيين والتى يقع بها السد العالى، وأخيراً مدينة عيذاب التى تطل على البحر الأحمر من ناحية الجنوب وكانت فيما سبق معبراً للحجيج إلى جدة، وقد أشار إليها ابن جبير فى رحلته لمصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ووصف أهلها بقوله: **بلدة لا رطب فيها ولا يابس، ألف أهلها عيش البهائم على انهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس، فهم أضل من الأنعام سبيلاً وأقل عقولاً، ولا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة، وسيرهم مالا يرتضى ولا يحل ..**

يقول محمد قنديل البقلى فى كتابه «وحدة العادات والتقاليد بين مصر والشام»: واشتهر المصريون بوضعهم صفات عن كل بلد مصرية إما للفخر، أو لتعيير أهلها، فمن ذلك يقولون عن الإسكندرية (**كلك ابحمدات يا اسكندريه**).

وعن محافظة الغربية (**يا مزفت شمروخك يا غرياوى**).

والشمروخ هو العصا الغليظة ..

وعن المنوفية (المنوفى لا يلوف ولو توكله لحم الكتوف).

وعن الجيزة (بياعة الجلة يا جيزة).

والجلة هى روث البهائم الجاف وكان يستخدم فيما سبق كوقود..

وعن دمنهور (ألف نورى ولا واحد دمنهورى).

وعن شبين الكوم عاصمة المنوفية (يا شبينى قوم غدينى واخسر دينى ما عندى عيش).

وعن المحلة وسمنود التابعتين لمحافظة الغربية (ع المحله منين يا سمنودى).

وعن أسيوط قالوا (أسيوطى وقرد يخربوا مدينة، قالوا إذا تواجد أسيوطى أصلى يبقى كفايه خرابها).

وهناك أمثلة عديدة طالت الصعيد والصعايده منها:

بحر سنه ولا تقبل يوم ..

أى من الأفضل أن تسافر للوجه البحرى ولو استغرق سفرك سنة من أن تسافر للوجه القبلى ولو استغرق سفرك يوماً واحداً ..

ما حوالين الصعايده فايده ..

كل شئ ييجى من الصعيد مليح إلا رجالها والريح ..

وهناك بلدة تسمى بلبيس تقع بين محافظة الشرقية ومحافظة الإسماعيلية أكثر المصريون من ذم أهلها، ومن بين ما قالوه فيها:

بعر السويس ولا رطب بلبيس ..

والبعر هو روث الجمال، والرطب هو البلح الطرى ..

زى ولاد بلبيس يبيعوا العيش ويشحتوه ..

والمقصود أنهم بعد أن يبيعوا الخبز للناس يصطنعوا الفقر والمسكنة ويشحتوه منهم ..

وأهل الصعيد أفحل جسوماً وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة كما وصفهم عبد اللطيف البغدادى فى رحلته إلى مصر المسماة: الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر والتى ترصد حال مصر فى القرن السادس الهجرى..

فلا تجد بيتاً فى الصعيد يخلو من السلاح، وكثيراً ما تدور معارك بينهم بسبب الثأر أو المنازعة على الأراضى تنتهى بالعديد من القتلى، وهو ما يميزه عن أهل الوجه البحرى الذين

انخرطوا فى المدنية ونالوا قسطاً من التعليم، وهذا ما يفسر لنا ظهور الجماعة الإسلامية وصدامها مع رجال الأمن فيه ..

ولا تزال عملية القتل بسبب الثأر مستمرة فى الصعيد حتى اليوم لم تندثر رغم دخول الصعيد فى مرحلة مدنية جديدة، يتبناها الجميع من المزارع حتى استاذ الجامعة..

وتنتشر فى الصعيد عادة قتل الأنثى المخطئة، وإن كانت تنتشر فى الوجه البحرى بصورة أقل ..

وأبناء الصعيد تجدهم منخرطين فى الأعمال الشاقة بجميع محافظات مصر ولهم دور بارز فى عملية التشييد والبناء، كما أن لهم دور بارز فى محيط الجندية بالجيش..

ولا يوجد فى صعيد مصر ما يشير إلى وجود أى عنصر له جذور فرعونية، إلا أنه لا تزال العديد من مدنه ومدن مصر تحمل الأسماء الفرعونية حتى اليوم، مثل مدينة أسيوط عاصمة محافظة أسيوط، ومدينةإخميم بمحافظة سوهاج، ومدينة دمنهور عاصمة محافظة البحيرة، كما أن الأشهر القبطية لا تزال تتداول فى المدن والريف المصرى ويستخدمها الفلاح لتحديد مواقيت الزراعة، ويعد شهر (طوبة) القبطى هو الشهر الذى تقاس به شدة البرد فى مصر ومنه خرج المثل القائل: **طوبه أبو البرد والعقوبه..**

كما يعد شهر (إمشير) شهر الزوابع حتى ضرب به المثل حيث يقال للغاضب الرافع لصوته المثير للمشاكل: **حامل زعابير إمشير ..**

وهناك مثل يجمع بين الشهرين يقول: **الاسم لطوبه والفعل لإمشير..**

وتركيبة المجتمع المصرى كما عرضناها تنفى بصورة قاطعة ما يشيعه الشعوبيون الذين يسيطرون على الإعلام المصرى اليوم من أن مصر أصولها فرعونية، فلا توجد صلة بين الفراعنة والمصريين المعاصرين..

ولا يستطيع أى مصرى اليوم أن يثبت جذوره فى مصر لأكثر من نصف قرن فضلاً عن سبعة آلاف سنة كما يشيع الشعوبيون ..

والصعيد عموماً ظل مهملاً من قبل الحكم فى مصر لقرون طويلة، ذلك لكون الحكومات كانت تنظر إليه دائماً بعين الشك والخوف، نظراً لبعده وتضاريسه وتركيبة شعبه الغليظة

والعنيفة، حتى أنه لم يكن بين القيادات العسكرية والأمنية من ينتمى إلى الصعيد، وكانت محافظات الصعيد تحكم بعناصر من الوجه البحرى..

وعبد الناصر رغم كونه ينتمى إلى أهم محافظاته، وهى محافظة أسيوط إلا أنه لم يقدم له شيئاً يذكر سوى مشروع السد العالى الذى تم بناؤه فى أقصاه، وهو مشروع استفاد منه أهل الشمال أكثر من أهل الصعيد..

والغريب أن أكثر من ثلثى آثار مصر الفرعونية تقع فى مدينة الأقصر فى الصعيد..

وقد أُجبر الحكم الحالى على الاهتمام بالصعيد تحت ضغوط أمنية، بعد أن برز هناك تيار الجماعة الإسلامية التى اصطدمت برجال الأمن وقتلت الكثير منهم، وقامت بالاعتداء على السياح مما عطل حركة السياحة فى مصر، وتسبب فى خسائر كبيرة أضرت بالإقتصاد المصرى..

والحكم هنا ينطبق علية المثل المصرى المعروف الذى سوف نعلق عليه لاحقاً: **شعب يخاف ولا يختشيش**، فالخوف هو الذى دفع بالحكم إلى الإهتمام بالصعيد لا المصلحة العامة ..

نكبات وكوارث

ورصد لنا المقريزى فى كتابه «الخطط والآثار»، وكتابه «كشف الغمة» العديد من الحوادث والكوارث والمجاعات..

وهناك قصة طريفة رواها فى أحد العصور الإسلامية تتلخص فيما يلى: **أن الوزير الأول للدولة آنذاك كانت له بغلة جميلة عفية وقد زينها بالحلى والقماش النفيس، وذات يوم من أيام المجاعات اتجه ببغلته نحو الديوان وأوقف البغلة على بابه ثم اتجه إلى الداخل لقضاء بعض الأعمال، ولما خرج لم يجد البغلة، فتحرى العسس أمرها فتبين انها سرقت وأكلت، فتم القبض على سارقيها وكانا اثنين، فشنقهما فى مكان البغلة..**

ولم تنته الحكاية عند هذا الحد فما أن أسدل الليل ستاره حتى جاء المصريون فسرقوا جثتى المعدمين وأكلاهما..

يقول الدكتور عبد الرحمن الشيخ فى مقدمة كتاب رحلة عبد اللطيف البغدادى تحت عنوان: المصريون أعراقهم وتعدادهم:

تورد لنا رحلة البغدادى هذه كثيراً من المعلومات التى تفيدنا فى تحديد أعراق المصريين المعاصرين ومعرفة الدماء التى تجرى فى عروقهم، فهو عندما يحدثنا عن جفاف النيل، أو انخفاض مستوى مياهه إنخفاضاً هائلاً، وما صاحب ذلك من مجاعة وقحط شديدين حتى أكل بعض الناس بعضهم الآخر، وأكلوا الميتة حتى التى صارت رميماً، إنما هو فى الواقع لا يحدثنا عن المماليك الذين جلبهم بنو أيوب، أو بقايا المماليك من عصور سابقة، إنما يحدثنا عن المصريين الأصليين، سواء منهم من صار مسلماً أم ظل على مسيحيته، فهؤلاء هم الذين عز عليهم الطعام، بالإضافة لمصريين آخرين من أصول حبشية أو سودانية، اما مماليك بنى أيوب وغيرهم فقد كانت الأرزاق تصلهم من مناطق العالم الإسلامى غير المنكوبة ومن مخازن الدولة، لكن كرم الملك العادل ومماليكه لم يظهر بشكل واضح إلا فى التبرع بالأكفان..

ويذكر لنا السيوطى فى كتابه (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) انه كفن فى سنة (٥٩٧هـ) من ماله، ٣٠٠٠٠٠ من الغرباء، والمقصود هنا أهل مصر الذين هربوا من المجاعة إلى القاهرة (يستخدم البغدادى لفظ مصر ليقصد به سكان الصعيد والدلتا، أما القاهرة أو مصر القاهرة فيقصد بها العاصمة . العاصمة المعرفة - وإذا علمنا أن هذه المجاعة التى خربت بسببها مصر بحيث لم يصبح فى قرى بأكملها نفس واحدة، لم تكن هى الوحيدة فى التاريخ المصرى وانما حدثتنا كتب التاريخ بإيجاز عن قحط مشابه سنة (٢٩٠هـ) فى عصر الدولة الطولونية، وعن شدة أكلت الأخضر واليابس وراح فيها خلق كثير زمن الدولة الفاطمية عرفت بالشدة المستنصرية، اتضح لنا أن العنصر المصرى الأصيل تعرض لهلكة شديدة ..أهـ.

ويذكر السيوطى فى حوادث العام المذكور:

وفيها كان هبوط النيل ولم يعهد ذلك فى الإسلام إلا مرة واحدة زمن الفاطميين، ولم يبق منه إلا شئ يسير وعم البلاء والغلاء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق..

ونقل عن إبى المظفر قوله: كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشيه، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا، وكان الرجل يدعوا صديقه وأحب الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله، وفعلوا بالأطباء كذلك، فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها، وكانوا يخطفون الصبيان

من الشوارع فيأكلونهم، وكفن السلطان فى مدة يسيرة مائتى ألف وعشرين ألفا، وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس..

وقدم لنا البغدادى العديد من الحوادث البشعة التى تقشعر لها الأبدان والتى وقعت فى عام 595هـ منها: أن امرأة أكلت فخذ زوجها ميتاً..

وأن آخرين تنازعوا وليداً سميناً ..

وأن جماعة كانوا يطبخون الأعضاء الآدمية..

وأنه أحضر إلى الوالى صغيراً مشوياً فى قفة ومعه رجل وامرأة يزعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما ..

ومما شاع نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم..

وعلق البغدادى على هذه الحوادث وغيرها بقوله: وأعجب من جميع ما قصصناه، أن الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعوون، منغمسون فى بحر ضلالاتهم، وكأنهم هم المستثنون، فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجراً ومكتسباً، ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى أن منهم من يزعم أنه افتض خمسين بكراً..

وكان عقاب هؤلاء المتوحشين فى حال ضبطهم هو الحرق، وحرقهم كان فرجاً لآخرين من المتربصين الذين سرعان ما يتجمعون على جثة المحروق فيأكلونها..

أما أهل الشهوات المنغمسون فى الفجور والضلالات بينما يأكل الناس بعضهم بعضا فهم بعيدون عن العقاب، وهذا هو حال مصر الدائم عبر التاريخ فساقها فى مأمن من العقاب..

ويروى الجبرتى عن حوادث عام 1694م: قصر مد النيل وهبط بسرعة فشرقت الأرض ووقع الغلاء والفناء، واشتد الحال حتى أكل الناس كل ما يتساقط على الأرض فلا يجد الزبال ما يكنسه، وأكلوا الميتة من الحمير والخيول والجمال، فإذا أخرج حماراً ميتاً تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه، ومنهم من يأكله نيئاً..

ولم يدفع هذا الحال بالمصريين إلى الخروج من هذا المحيط الضيق، محيط ما حول النيل إلى محيط آخر من أرض مصر الواسعة بحثاً عن الماء والطعام، بدلاً من أن يتجهوا إلى أكل بعضهم بعضا والاستسلام للموت جوعاً..

وهذا سؤال إجابته تكمن فى الشخصية المصرية الجامدة القليلة الحيلة..

ولازال التاريخ يعيد نفسه فى مصر حيث نرى الغلاء والبلاء قد عم الأنحاء والأرجاء رغم توافر مياه النيل، مما دفع بكثير من المصريين إلى الفرار من مصر إلى الأمصار المجاورة، والموت غرقاً فى البحور المحيطة بأوربا..

ونسمع ونقرأ فى الصحف عن حوادث اختفاء الكثير من الأطفال والصبيان الذين لا يعرف مصيرهم، ومن يدرى لعلهم أكلوا من قبل أناس توحشوا من الجوع ببركات الفرعون الحالى..

هذا فى الوقت الذى نرى فيه فساق مصر بشتى صورهم وأشكالهم ينفقون ملايين الجنيهات على الحفلات والسهرات الماجنة، والراقصات وسائر الشهوات والضلالات وكأنهم لايعيشون فى مصر، ولا يدرون ما يجرى فيها من النكبات ..

وفى الوقت الذى نرى فيه الفرعون العجوز يلهو ويلعب ويشاهد مباريات الكرة ويتابع أخبار اللاعبين، ويتدخل لحل مشكلة واحد من اللاعبين الأثرياء مع ناديه، و ويزور المرضى ممن يسمون بالفنانين، ويرسلهم للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة ..

يقول الشاعر فاروق جويده فى مقال بجريدة الأهرام بتاريخ 9/11/2007م تحت عنوان: الهروب الكبير: **من أسوأ الظواهر فى مصر الآن تلك التناقضات التى تجتاح حياة المصريين، والتى تصل أحياناً إلى درجة اللامعقول، وما أكثر اللامعقول فى حياتنا على كل المستويات، فى الوقت الذى شهدت فيه مدينة مارينا مدينة السحر والخيال والمسئولين ورجال المال فى الساحل الشمالى سباق اليخوت الذى اشتركت فيه ١٩ دوله، كانت جثث بسطاء مصر تتناثر على الشاطئ المقابل من البحر المتوسط أمام الحدود الإيطالية، هذا التناقض الرهيب لا يمكن أن تراه إلا فى مصر، حيث فقد المجتمع كل جوانب التوازن فيه بين فئات طحنها الفقر، وفئات أخرى أفسدها الثراء، وما بين الفقر الفاحش والثراء المتوحش تحول المجتمع المصرى إلى حقل تجارب ترى فيه كل التناقضات والأمراض والعبر ..**

ومن الملاحظ أن معظم الكوارث والنكبات والمظالم التى وقعت فى مصر كانت فى ظل حكم المسلمين وهذا ما دفع بالمصرى إلى الميل لحكم الأجنبى وتفضيله على حكم العربى من أبناء جنسه، وهو ما ترجمه لنا المثل التالى: **جور الغز ولا عدل العرب ..**

ويجب التفريق بين حكم المسلمين وحكم الإسلام الذى لم تتح له فرصة التطبيق الحقيقى على يد الحكومات التى التصقت به، من خلفاء أمويين وعباسيين وفاطميين وأكراد ومماليك وترك وغيرهم..

شرائح وأجنـــاس

ويحدد لنا الجبرتى - الحبشى الأصل - فى كتابه: **عجائب الآثار** شرائح المجتمع المصرى فى الفترة ما بين القرن السابع عشر إلى القرن الثامن عشر فيما يلى:

- **الأتراك..**
- **الأوجاقات ..**
- **المماليك..**
- **الفقهاء ..**

وهذه هى الشرائح الحاكمة وأصحاب النفوذ..

ويواجه هؤلاء الرعية الذين حددهم فى الطبقات التالية:

- **التجار ..**
- **الفلاحون ..**
- **أهل الحرف ..**
- **أهل الذمة ..**
- **العربان ..**

أما الترك فقد كانوا الولاة من العثمانيين التابعين للسلطان العثمانى وحاشيتهم وسيأتى الحديث عنهم..

وأما **الأوجاقات** فهم القادة من العسكريين الذين كان يعتمد عليهم نظام الحكم، وكانوا يتكونون من عناصر غريبة عن المجتمع المصرى وجنسيات مختلفة أغلبهم من الترك الذين كان يطلق العوام عليهم اسم الغز، والمماليك والمغاربة والأحباش والنوبيين والشوام والدروز وغيرهم..

وهؤلاء كانت لهم لغتهم الخاصة وعاداتهم وتقاليدهم التى تصطدم مع عادات وتقاليد المصريين، وكانوا يصنعون الأزمات فى مصر ما بين الحين والآخر، فكلما تأخرت رواتبهم وضاقت عليهم الدنيا قاموا بالسطو على الأسواق، ونهب الأهالى، وفرض الإتاوات على التجار والصناع..

وكانوا يقتتلون بالطرقات وهم الذين ابتدعوا فكرة البقشيش التى لا تزال سائدة بين المصريين حتى اليوم، حيث كانوا يخرجون فى أيام الجمع ويطوفون على بيوت الأعيان والكبراء يطلبون البقشيش منهم ..

وكان هؤلاء العسكر أو الأجناد ينتظرون فترة الموالد لتحصيل أكبر قدر ممكن من الأموال عن طريق مصادرة الجمال والحمير ومختلف السلع التى يجدونها فى طريقهم..

وكانوا يجاهرون بالفطر فى رمضان ويزنون بالنساء جهاراً وفى المساجد، ويجتمع إليهم الكثير من أهل الفسق والفجور، من بائعى الحشيش والراقصات والعاهرات والغلمان، ويمارسون الرذيلة ويلعبون القمار ويشربون الخمور، وكل ذلك كان يتم جهاراً وفى نهار رمضان ..

ويروى الجبرتى قصة تسعة ماتوا بسبب شربة عرقسوس حين شرب أحد الجنود الأرناؤود شربة عرقسوس ولم يدفع ثمنها، وأدى هذا الأمر إلى حدوث معركة سقط بسببها تسعة أشخاص..

ويروى أيضاً قصة حجاج الخضرى زعيم الخضرية الذى لم تعجبه مظالم العسكر الأرناؤود وانتهاكهم الدائم للأهالى فى عصر محمد على، فشكل مجموعة من الرجال كانوا يتصيدون الجنود ويقتلونهم، وقد كان من قبل يتصيد جند بونابرته، وتم القبض على حجاج هذا وأعدم ليلاً فى منطقة بيت القاضى خلف المسجد الحسينى ..

وما يجب الإشارة إليه هنا هو أن هؤلاء الترك والمماليك وشتى الجنسيات الأخرى قد اندمجت فى المجتمع المصرى فيما بعد وذابت فيه..

والمماليك هم بقايا الدولة المملوكية الذين تحالفوا مع سليم الأول وساعدوه على دخول مصر، والقضاء على حكم قنصوه الغورى وطومان باى خليفته، وقد استمر نفوذهم يقوى حتى قضوا على سلطة الأوجاقات والولاة، وهيمنوا على البلاد ونشروا فيها الفساد، وأكثروا من المظالم حتى جاء محمد على فقضى عليهم فى مذبحة القلعة الشهيرة..

وفيما يتعلق بالفقهاء ـ أو المتعممين كما كان يطلق عليهم الجبرتى ـ فرصد حالهم يعطينا فكرة واضحة عن حال الدين فى مصر فى تلك الفترة التى تكونت فيها طبقة الفقهاء والمؤسسة الدينية..

وهذه الطبقة لم تكن على درجة واحدة فقد كانت تتكون من عدة طبقات أو مراتب، وأصحاب الدرجة الأولى منهم هم أصحاب القوة والسطوة القريبون من الحكام الذين كان الجبرتى يتوجه نحوهم باللوم بسبب تكالبهم على الدنيا..

وقد تحول الكثير من هؤلاء الفقهاء إلى رجال أعمال عن طريق الأوقاف الخيرية، وفى مقدمتها الأضرحة والمقامات التى كانوا ينظرونها ويتولون أمرها، ويجنون من ورائها الكثير من الأموال، وعلى رأس هؤلاء الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى..

ولا تزال الأضرحة والمقامات تشكل مصدر من مصادر الرزق والثراء لكثير من المشايخ حتى اليوم، من رجال الأوقاف الأزهريين ومشايخ الطرق الصوفية بما يتواتر عليها من نذور وهبات وقرابين..

ويشير الجبرتى إلى أن المشايخ الكبار كانوا يتقاضون أجراً نظير وساطتهم وشفاعتهم للرعية عند الحكام، وقد دعم العديد منهم صلاتهم بنابليون وداهنوه من أجل خدمة مصالحهم ودعم نفوذهم، وكان من بين هؤلاء الشيخ الشرقاوى والشيخ العمروسى والشيخ خليل البكرى الذين تعاملوا مع نابليون من أجل القضاء على ثورة القاهرة الثانية، فكان أن تعدى عليهم الأهالى وسبوهم وضربوهم ورموا عمائمهم، كذلك الشيخ محمد المهدى الذى كان مسيحياً وأسلم، وأصبح من رجال الأزهر وعينه نابليون سكرتيراً لأول ديوان أقامه بمصر..

وقد قام هؤلاء المشايخ بدور تآمرى ضد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، وعملوا بمساعدة الفرنسيين على الإطاحة به من النقابة ليتسلمها الشيخ البكرى رغم كونه ليس من السلالة النبوية، وقد تم الإطاحة به فيما بعد وإعادة السيدعمر مكرم بعد رحيل الفرنسيين ووصول محمد على إلى الحكم..

والشيخ البكرى هذا ـ كما روى الجبرتى ـ كانت له إبنة تدعى زينب صاحبت الفرنسيين وتقمصت شخصيتهم ويقال أنها رحلت معهم إلى فرنسا..

وفيما يتعلق بطبقات الرعية فقد كان التجار هم أحسنهم حالاً، إذ كانوا يمكنهم تكييف أوضاعهم مع تقلبات الأحوال عن طريق دفع الأموال لدفع الضرر عن أنفسهم وعن تجارتهم، وأيضاً تقوية مراكزهم وزيادة نفوذهم برشوة الكبراء من الولاة والأوجاقات، وقد كان العديد منهم يقومون بتسليف الأمراء الأموال اللازمة لتغطية نفقات حملاتهم العسكرية وهم يفعلون ذلك مكرهين، إذ أن رفضهم يعنى مصادرة أموالهم وإغلاق حوانيتهم وزيادة الضرائب عليهم..

والمتحمل لنتيجة هذه المظالم هم الطبقات الأخرى الفقيرة، إذ لم تكن هناك طريقة أمام التجار لتعويض هذه الأموال التى تبتز منهم إلا عن طريق رفع الأسعار..

وكان الفلاحون، وأغلبهم من العرب، هم أشد هذه الفئات بؤساً وشقاءاً، إذ كانوا يتعرضون لمظالم دائمة من شيوخ البلد، ورجال الإدارات الذين يتولون جمع الضرائب، بالإضافة إلى هجمات البدو العربان التى كانت تهلك الحرث والنسل، حتى اضطر كثير من الفلاحين إلى هجر قراهم وترك أراضيهم فتحولت الكثير من القرى إلى خرائب ..

وأهل الحرف الذين رصدهم الجبرتى كان على رأسهم: السقائين والزياتين والعطارين والجزارين والمزينين (الحلاقون) والمكارين، أى الذين ينقلون الناس بحميرهم من مكان لآخر، والخردجية الذين يبيعون أشياء متنوعة مثل أدوات الخياطة وحاجات البيوت، وأصحاب الحمامات وبائعو الدخان والصابون بالإضافة إلى القرداتية والحواة..

وكان للسقائين مهمات أخرى غير نقل المياه إلى البيوت والحوانيت والحمامات والأسبلة وهى القيام بدور رسول الغرام بين نساء البيوت وعشاقهن فى البيوت والأماكن الأخرى، وعندما تحدث أزمة سياسية فإنهم يكونوا أول ضحاياها، إذ تصادر الحمير والجمال التى ينقلون الماء عليها لتكون فى خدمة المتنازعين ..

وهناك العديد من المهن الغير شريفة أشار إليها الجبرتى منها: **التسول والبغاء وهى مهنة الخواطى كما كان يطلق عليهم، والرقص وهى مهنة النساء اللاتى يطلق عليهن فى الريف المصرى من قديم اسم الغوازى لكونهن يغزون القلوب بأفعالهن المثيرة للغريزة ..**

وبالطبع لم يكن يسلم أهل هذه الحرف من بطش الأجناد وقسوة الضرائب وشتى المظالم الأخرى التى كانت تعم المجتمع المصرى آنذاك ..

أما اهل الذمة فكانوا عدة شرائح هى:

الاقباط والأروام ونصارى الشام واليهود..

وقد مال قطاع من المسيحيين إلى جانب الفرنسيين، وروى الجبرتى قصة المعلم يعقوب المسيحى الذى انتمى إلى صفوف الفرنسيين فى الصعيد، وكان يعينهم بالمؤن ويحارب معهم، وقام يعقوب بتكوين فرقة من الأقباط لتساعد الفرنسيين، ونظراً للخدمات الكبيرة التى قدمها لهم أنعموا عليه بمنصب رفيع وهو منصب أشبه بوزير المالية ثم منحوه رتبة جنرال، ولما رحل الفرنسيون من مصر رحل معهم وأصيب بمرض بالطريق ومات فى اغسطس من عام(1801م) ودفن بمرسيليا..

وفى تلك الفترة كانت اللغة القبطية قد تم إبطالها إلا أن بعض الكلمات وأسماء الشهور ظلت سارية فى اللهجة المصرية حتى اليوم..

والتزم الأقباط بلباس خاص عن المسلمين كالعمامة الزرقاء أو السوداء والملابس القاتمة..

وفى فترة حكم محمد بك أبو الدهب حرم عليهم الخروج من مناطقهم ومنع ركوبهم الحمير وشراء العبيد والجوارى، وألزمهم بالزى الأصلى القديم الذى يشبه لباس القساوسة اليوم..

ولقد طالت القبط المظالم التى طالت المسلمين من ضرائب ومصادرات وإتاوات وغيرها، كما حدثت مصادمات بينهم وبين المسلمين شملت نصارى الشام والأروام..

وتميز الأقباط على المسلمين بالتخصص فى الأمور الكتابية والمالية والحسابية، الأمر الذى جعل الأمراء والأعيان يستعينون بهم فى أعمالهم وإدارة أملاكهم، وهو ما جعل نابليون يستعين بهم أيضاً ..

ولم يكن الأروام والشوام الوافدين على مصر أصحاب المذاهب المسيحية المخالفة لمذهب الأقباط يشكلون تحدياً كبيراً لهم، فقد كان عددهم قليلاً وكان تركيزهم على الأنشطة الاقتصادية..

وفيما يتعلق باليهود فلم يكن لهم دور يذكر نظراً لقلة عددهم والأكثرية منهم كانوا يتبعون طائفة الربانيين، أما الأقلية فكانت تنتمى لطائفة اليهود القرائين ..

ويحدثنا الجبرتى أن قبائل العربان كانت منتشرة فى أنحاء مصر، وكانوا يعيشون على السلب والنهب، وهم فى حالة تنقل وترحال ولا يقبلون الخضوع للحكم المركزى..

ومن قبائل العربان التى ذكرها الجبرتى قبيلة الهوارة فى صعيد مصر وموطنها الأصلى تونس والتى تمكنت من السيطرة على معظم أراضى الصعيد ..

وكان للهوارة دور كبير فى الصراعات التى كانت تدور بين الولاة والحاكم العثمانى والمماليك فى القاهرة..

وفى الوجه البحرى برزت قبيلة الحبابية كقوة بشرق الدلتا، وقبيلة الهنادى بالبحيرة وقد جاء معظمها من جزيرة العرب..

ولم تنته سطوة العربان وجبروتهم إلا على يد على بك الكبير الذى جرد العديد من الحملات للقضاء عليهم، كذلك قامت الحملة الفرنسية بمطاردة العربان الذين كانوا يهددون سكان القاهرة والفرنسيين من عرب العبابدة نواحى الخانكة ونواحى القليوبية، وقتلوا وأسروا العديد منهم، وصادروا الكثير من أموالهم، ثم استطاع محمد على من بعد أن يقضى على نفوذهم ويشتتهم..

مهن وجماعات

وتحدد لنا العديد من المصادر الكثير من الجماعات المهنية فى تلك الفترة منها: النشالون واللصوص والمناسر والبطحجية وقطاع الطرق والفتوات والعصبجية والمشاديد والعيارين والعياق والحرافيش والأوباش والزعر والغجر والبهلونات والقرداتية والمصارعون ولاعبو خيال الظل وعرائس القراجوز والمبخراتية والمسحراتية والفعلة والدلالون وضاربات الودع وقارئات الكف ومبيضو النحاس والعاهرات والآلاتية والمسلكاتية والأدباتية والغوازى والخلابيص والخولات والباعة الجائلين، وغيرها من الجماعات التى رصدها إبن إياس فى بدائع الزهور..

والمقريزى فى خططه ..

وعلى مبارك فى الخطط التوفيقية..

وعلماء الحملة الفرنسية فى الكتاب الذى أصدروه بعنوان: وصف مصر..

وأحمد تيمور فى معجمه الكبير الخاص بالألفاظ العامية فى مصر..

بالإضافة إلى تاريخ الجبرتى..

وهذه الجماعات كانت لها كيانات مستقلة، ومشايخ يترأسونهم، وآداب مهنية يلتزمون بها، واستمر وجودها بين المصريين، ولا تزال لها بقايا فى المجتمع المصرى حتى اليوم..

ويلاحظ أن هذه المهن التى ارتبطت بهذه الجماعات غير منتجة..

وهذه الجماعات فى تلك الفترة لم تكن تشكل أقلية بل كانت بالإضافة إلى الفلاحين والعربان تمثل أكثرية المجتمع المصرى آنذاك، ولم يكن الترك والأوجاقات والمماليك سوى أقلية فى مواجهتها، وإن كان العديد من أفراد هذه الجماعات قد تمكن بطريقة وأخرى من التسلل إلى الطبقات العليا، فتحول العديد منهم إلى تجار ومشايخ وقادة عسكريين..

ومع وصول عبد الناصر إلى الحكم فى منتصف الخمسينيات وتبنيه فكرة تذويب الفوارق بين الطبقات ومجانية التعليم، فتحت الأبواب على مصارعها أمام هذه الطبقات لإختراق المجتمع المصرى والوصول إلى أعلى الدرجات فية، مما سبب نكبة كبيرة لمصر دفعت ثمنها غالياً وكذلك الشرفاء من أبنائها..

وليست هناك نتيجة من جراء هذا الأمر أخطر من أن يتغلغل أمثال هؤلاء فى المؤسسة العسكرية والأمنية والإعلامية ويتحكموا فى البلاد والعباد، وهو ما يجسم لنا الأزمة التى تعيشها مصر اليوم بوصول مثل الفرعون الحالى إلى السلطة، وما نتج عن ذلك من انهيار إقتصادى، وإنحلال أخلاقى، وخيانة للوطن..

ولقد أثبتت وقائع التاريخ أن المجتمع المصرى لا يستقيم إلا بالنظام الطبقى حين يوضع كل فرد فى مكانه الملائم، ولا يتجاوز حدود الطبقة التى ينتمى إليها مع الاحتفاظ بحقه فى الحرية والتعليم حسب قدراته وكفاءته، فليس من الحكمة أن تحشى العلوم فى رؤوس لا تستوعبها، أو يوضع ضابط الجيش أو الأمن محافظاً أو مديراً لمصنع أو رئيساً لحى، أو ترفع المرأة فوق الرجل وتحشر فى كل عمل بغرض المنافسة والتحدى للرجل لا أكثر، أو يفتح الباب أمام كل بليد غبى ليصبح رجل دين، أو يفتح مجال الإعلام للسوقة والسفهاء، أو يتحول الفلاح أو الخسيس إلى طبيب أو مهندس أو رجل أمن، فذلك كله قد أسهم فى تخريب المجتمع المصرى، وهو قد تم بدوافع أمنية وسياسية ولم يكن للدافع الاجتماعى أى دور فيه، أو باختصار أن حكام مصر ضحوا بها من أجل الحفاظ على كرسى الحكم ..

وحالة التردى والانحطاط وإنقلاب الموازين وإنتشار الفسق والفجور التى تسود المجتمع المصرى اليوم، والتى أنتجت فى النهاية صورة سيئة عن مصر والمصريين، إنما يعود سببها إلى الخلل الطبقى الذى أوجدته فكرة تذويب الفوارق بين الطبقات والتى أتاحت للأوباش والأراذل أن يكونوا سادة، وعندما يكون أمثال هؤلاء سادة فإن النتيجة هى تحول الشرفاء الى عبيد وبالتالى يصبح المجتمع مقلوباً..

وهكذا فتحت الطريق أمام السوقة والأوباش ليخترقوا مجال الدين ويتلاعبوا به ويسخروه لخدمة مصالحهم، ويؤسسوا جماعات ترفع شعارات جهادية وإصلاحية وسلفية، كما فتحت الأبواب أمامهم على مصارعها أيضاً ليسيطروا على الحقل الإعلامى من صحافة وسينما وإذاعة وتلفاز لتسوده السفاهة والمجون والاستخفاف بالعقول على ما سوف نبين..

ومعظم الطبقات الكبيرة التى برزت فى الفترة الملكية من الترك والأرناؤود والأجانب وغيرهم هى طبقات مدعية، لم يكن لها وجود أو قيمة خارج مصر، إنما استمدت قيمتها ومكانتها من هذا البلد المنكوب بفراعنته وأهله، كذلك الطبقات التى التصقت بها واستمدت قيمتها منهم من الرعاع الذين استجلبوهم معهم، ومن المصريين الذين حصلوا على رتبة الباشوية والبكوية ليصبح لهم أصول، ويروجوا فى المجتمع المصرى فكرة أبناء الأصول التى لا تزال باقية وحية فى نفوس المصريين حتى اليوم، حيث يقال هذا ابن أصول أوهذه بنت ناس، يعنى أصولهم تنتهى إلى باشا أو بيه، بغض النظر عن أصل الباشا أو البيه..

والباشا أو البيه هو من أثرياء القوم بالطبع ولو لم يكن ثرياً ما كان باشا ولا بيه، وهذا يكشف لنا أن المال هو الذى يخلق الأصل فى مصر، وهو ما يقودنا فى النهاية إلى أن صاحب الأصل فى نظر المصريين المحرومين هو صاحب المال بغض النظر عن مصدر أمواله..

ومن هنا ربط المصريون الغنا بالعز والفقر بالبؤس، فيقال هذا ابن عز، أى ابن الأثرياء..

ومن هنا ايضاً برز المثل الذى يقول: **عيش فى العز يوم ولا تعيش فى الذل سنة..**

وتحت مظلة تذويب الفوارق بين الطبقات تمكنت العديد من العائلات ذات الأصول المشبوهة والوضيعة، كمن كان أصلها من الرقيق مثلاً، من تغيير هوية أسرتها والتستر بأسماء جديدة..

وفى القرن الماضى تفجرت قضية حول الأصول والأنساب كان طرفها الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد، والطرف الثانى هو صفية السادات والتى تزوجها دون رضى والدها أحمد عبد الخالق السادات الذى يعد نفسه من المنتسبين لسلالة الحسن بن على، مما دفع به إلى رفع قضية طالب فيها بفسخ العقد لعدم الكفاءة الشرعية، حيث قال الدفاع عن السادات أمام المحكمة عن الشيخ على يوسف:

أنه مجهول النسب، وهو كغالب أهل القرى من الأعاجم، ولا يعرف لهم نسب بين العرب..

أصول وعائلات

يقول الدكتور حلمى شلبى فى كتابه المجتمع الريفى فى عصر محمد على عن الرقيق فى محافظة المنوفية التى ينتمى إليها فراعنة مصر اليوم: **وبعض هؤلاء الرقيق أنفسهم تحولوا إلى حكام الأقاليم بعد أن أعتقهم سادتهم، وبعد أن أعلنوا إسلامهم، ولم تكن معاملة هؤلاء للأهالى تختلف عن الأتراك فى شئ سواء فى بطشهم أو عسفهم أو ترفعهم عن معاشرة الأهالى ..**

وترد أسماء هؤلاء الرقيق فى الوثائق دون ذكر لعائلات ينتمون إليها، فهم بلا نسب، ولا تعرف لهم ألقاب، فيقال عنهم ابن عبد الله وبنت عبد الله وهكذا، وهم من أصول بعيدة من بلاد الأناضول ممن وقعوا أسرى فى يد جيش إبراهيم باشا، وسيقوا إلى مصر أرقاء، فوزعهم محمد على عبيداً على حكام الأقاليم، وهؤلاء المعاتيق الأغوات، أى الذين حرروا من الرق على يد سادتهم أحرزوا مكانة اجتماعية متميزة وسط أغلبية المصريين بحيث وجدنا أبناء الأثرياء من المصريين يسعون للزواج من بناتهم ..أهـ.

ومثل هذا الكلام لا يقودنا إلى الشك فى أصول المصريين فقط، بل يقودنا إلى الشك فى أصول الفرعون الحالى وحاشيته من المنايفة..

وهناك العديد من العائلات المصرية الكبيرة تعود إلى أصول مملوكية وجمعت ثروتها بواسطة البطش بالأهالى ونهب أموالهم وحتى قطع الطريق، وعلى رأس هذه العائلات العائلة الإباظية التى يتميز أفرادها بضخامة أجسامهم، والتى عمل العديد منهم فى حقل التمثيل بعد الفترة الملكية، وبرز منها بعض الكتاب والوزراء..

قال أحمد تيمور فى معجمه: اباظه ضرب اباظه بمعنى استمنى بيده ..

وهناك بلاد تم تحريف اسمها حتى لا تنكشف حقيقتها مثل بلدة (شربين) التابعة لمحافظة الدقهلية والتى كان اسمها فى الأصل(شرُبين) بسبب سوء خلق أهلها وفسادهم..

وهناك بلدة الخانكه التابعة لمحافظة القليوبية والتى اشتق اسمها من كلمة (خانقاه) الفارسية، وكان أحد سلاطين المماليك قد بنى فيها هذه الخانقاه لتكون مقراً للصوفية لتتحول بعد ذلك إلى بلدة سكنية ..

والطريف أنه تم فيما بعد بناء مشفى لأصحاب الأمراض العقلية فيها ليتحول لفظ خانكه إلى كلمة سب على ألسنة المصريين ..

وهناك بلدة خريتها، والتى لاتزال تحمل نفس الاسم حتى اليوم، إلا أن أهالى هذه البلدة ينطقون اسمها بطريقة مختلفة توحى بمعنى بعيد عن أصل التسمية..

وترى فى أسماء المصريين ما يشير إلى تنصلهم من أصولهم فيتجه الآباء إلى تسمية الأبناء بأسماء جديدة أو إفرنجية ..

ومن هنا تم ستر من كان اسمها عائشة باسم شوشو، ومن كان اسمها فتحية باسم فيفى، ومن كان اسمها زينب باسم زوزو، وستر من كان اسمه محمد باسم ميمى، ومن كان اسمه يوسف باسم سوسو وهكذا..

وكثير من العائلات اليوم تحمل أسماءً لاتعرف معناها و ولو عرف معناها لساعد ذلك على معرفة أصولها..

ومن ذلك عائلة الإبراشى وأصلها كلمة برش وهى كلمة فارسية وجمعها إبراش وهى سقيفة تصنع من الخوص وتستعمل للجلوس عليها، ومنها أطلق على الفرش الرقيق الذى يفترشه المسجون على الأرض لينام عليه لفظ برش..

والظاهر أن الإبراشية هؤلاء كان أجدادهم يعملون فى مهنة صناعة الإبراش من الخوص وهو أوراق النخيل أو الزعف حسب تعبير العامة..

ومن ذلك أيضاً عائلة الشاطر تلك الكلمة التى حرف معناها إلى المدح والتزكية بينما هى فى الأصل كانت تطلق على اللصوص والمحتالين كما سوف نبين..

وهناك عائلة الهباش وهى كلمة مشتقة من الهبش أى الخطف..

وعائلة الدباح واسمها لا يحتاج إلى تعليق وإن كان واحد من كبار المماليك كان يحمل هذا الاسم، ولعل هذه العائلة تنتمى إليه ..

وعائلة الألفى وهو أحد قاد ة المماليك.

وعائلة الكاشف وأصلها من الكرد..

وهناك أيضاً عائلة شبانة التى ينتمى إليها المطرب عبد الحليم حافظ، وشبانة كلمة فارسية تعنى الليل..

وعائلة كاظم التى تنتمى إليها زوجة عبد الناصر وهى عائلة أصولها فارسية..

وكذلك عائلة السحار التى ينتمى إليها الأديب عبد الحميد جوده السحار..

وعائلة التونسى التونسية الأصل التى ينتمى إليها الشاعر الشعبى بيرم التونسى ..

وعائلة الدميرى وهو نوع من البطيخ ..

وعائلة شوشه وكلمة مشتقة من شوش أو شوشان وهى بلدة فارسية ..

وعائلة الباز وهى كلمة تعنى الطبل الصغير ويقال له بازه ..

وهناك عائلة الشوباشى، وعائلة الشبوكشى، وعائلة الشواربى، وعائلة الشوربجى وعائلة البارودى وغيرها من العائلات التى تنتمى لأصول غير مصرية ..

ونتيجة للخلل فى مسألة الأصول عند المصريين التصقت كل عائلة بالبلدة التى نزحت منها أو كانت مسقط رأسها، مثل عائلة المنياوى نسبة إلى المنيا، وعائلة الأسيوطى نسبة إلى أسيوط، وعائلة الطنطاوى نسبة إلى طنطا، وعائلة الدمنهورى نسبة إلى دمنهور، وعائلة المحلاوى نسبة إلى المحلة، وعائلة البحيرى نسبة إلى البحيرة، وعائلة الفيومى نسبة إلى الفيوم، وعائلة الشرقاوى التى تنسب إلى الشرقية وهكذا..

والشرقية تذكرنا بقصة آدهم الشرقاوى اللص القاتل السفاح الذى يصوره التراث الشعبى كبطل وقف فى وجه الباش أغا التركى الطاغية المستعبد للفلاحين، إلا أنه قتل فى النهاية على يد الحكومة، لكن الحقيقة أن أدهم هذا ما هو إلا أسطورة اخترعها العقل الشعبى المهزوم الباحث عن بطل الأحلام ..

وكلمة باش اغا رتبة تركية وكانت كلمة أغا تطلق على الخصيان الأتراك فى الأغلب ثم استخدمها الضباط والوجهاء من الترك ..

وهناك عائلات تنسب إلى قرى مثل عائلة **الأشمونى** نسبة لأشمون، وعائلة **البهنسى** نسبة لبهنسا، وعائلة **السرياقوسى** نسبة لسرياقوس، وعائلة **الزفتاوى** نسبة لزفتى، وعائلة **الحامولى** نسبة إلى «حامول» التى ينتسب إليها المطرب عبده الحامولى المعاصر لفترة الخديوى إسماعيل..

وهناك عائلات تنسب لحيوانات وتفتخر بهذا النسب مثل عائلة **الجحش** وعائلة **الجمل** وعائلة **النمر** وعائلة **الفأر** وعائلة **القط**..

والكثير من العائلات المصرية لا تزال تحمل أسماء البلاد التى جاءت منها إلى مصر، مثل عائلة **المغربى**، وعائلة **الشامى**، وعائلة **الإسلامبولى** التى ينتسب إليها قاتل السادات، وعائلة **التلمسانى** نسبة إلى مدينة تلمسان بالجزائر..

ولا تزال الكثير من العائلات تحمل اسم الجنس الذى تنتمى إليه مثل عائلة الكردى، وعائلة الأرناؤوطى أى الأرناؤودى، وعائلة ترك أو التركى، وعائلة العجمى، وعائلة المملوك..

والكثير من العائلات أيضاً يرتبط أصلها بمهنة الأجداد مثل عائلة السقا، وعائلة البنا، وعائلة الخشاب، وعائلة النجار، وعائلة المراكبى، وعائلة الدخاخنى، وعائلة الملاح..

وظاهرة التباهى بالألقاب من الظواهر البارزة بين المصريين من قديم، فكل عائلة وكل فرد يحلم بلقب يرفع به مقامه بين الناس ..

وفى العصر الملكى كانت العائلات تتباهى بلقب السنجقدار والسلحدار والحكمدار والباشا والبيه والأفندى، وذلك فى دائرة علية القوم، أما فى محيط الطبقات الشعبية فكان هناك لقب معلم وريس وجدع وحاج ..

وفى العصر الحالى يسعى الأراذل من المطربين والراقصات للحصول على لقب فنان كى يستروا به أنفسهم وتكون لهم حيثية اجتماعية بواسطته ..

ويسعى الكثير من الموظفين للحصول على درجة الدكتوراة من أجل لقب دكتور دون أنى تكون لهم صلة بالعلم أو الثقافة، كما يسعى الكثير من العاملين فى مجال التجارة للحصول على لقب رجل أعمال ..

ومثل هذا الوضع لم يدفع بأحد من المصريين إلى تتبع أصله وفصله كما يقولون من خلال دائرة المحفوظات التى تحتفظ بأصول العديد من العائلات وإن كان الكثير من العائلات المسجلة فيها مقطوعة النسب ..

وقد اندفعت العديد من العائلات إلى تسمية أبنائها باسم سيد أو سيدة أو السيد بعد أن أصبح هذا اللقب مشاعاً للمصريين، وقد كان فى زمن الفاطميين وبعدهم لقباً خاصاً بكبارالأشراف مثل السيد عمر مكرم، والسيد جمال الدين الأفغانى، والسيد أحمد عرابى والسيد محمد كريم وغيرهم ..

والذين اتجهوا إلى سرقة هذا اللقب كانوا من العائلات الوضيعة الباحثة عن قيمة ترفع بها نفسها، أو تموه بها عن حقيقتها المتدنية ..

ولقد قدر لى أن أقوم بتجارب عملية فى محيط الأصدقاء والمعارف والعامة من مختلف الطبقات ممن يحملون اسم سيد، فكانت النتيجة أن جميع هؤلاء كانوا من أسوأ الناس خلقاً وديناً، ونتيجة لهذه التجارب آمنت أن هذه قاعدة، وأن كل من هو اسمه سيد هو سئ، وأصبحت أحذر الناس ممن يحملون هذا الإسم..

ولعل السلوك السئ الذى ارتبط بهؤلاء هو سر الأغنية التى كان يغنيها الأطفال فى مصر حين قدوم العيد والتى يقول مطلعها: **بكره العيد ونعيد وندبحك ياشيخ سيد** ..

دار الفاسقين

ولا يتسع المجال هنا لرصد جميع الطبقات التى برزت فى الساحة المصرية من عمق التاريخ، وكان من نتيجتها تقسيم المجتمع إلى: **فراعنة وعبيد**..

وهى الحالة التاريخية التى عاشتها مصر على الدوام من عصر الفراعنة إلى عصر البطالمة والرومان والفرس والعرب والكرد، إلى المماليك والأتراك والإنجليز وحتى عصر محمد على الذى ساد فيه الأرناؤود، ثم العصر الحالى الذى ساد فيه الضباط من أبناء الفلاحين المؤسسة العسكرية فى عصر عبد الناصر، ثم الأمنية فى عصر السادات والفرعون الحالى..

يروى الجبرتى عن الألفى أحد قادة المماليك، أنه وقف يناجى مصر بعد أن استولى عليها الترك قائلاً: **يا مصر انظرى الى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين، واستوطنك**

أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤود، وصاروا يقبضون خراجك، ويحاربون أولادك، ويقاتلون أبطالك، ويقاومون فرسانك، ويهدمون دورك، ويسكنون قصورك، ويفسقون بولدانك وحورك، ويطمسون بهجتك ونورك..

إلا أننا سوف نركز هنا على الفترة التى أنتجت لنا الطبقات الحالية وهى فترة محمد على وفترة الاحتلال الإنجليزى، ففى ظل الفترة الأولى كان هناك قطاع الأتراك الذين وفدوا مع العثمانيين وقطاع الأرناؤود الذين وفدوا مع محمد على بالإضافة إلى قطاع المماليك المتبقى من العصر المملوكى، وهؤلاء جميعهم شكلوا الطبقات العليا فى مصر آنذاك..

أما الإنجليز فقد شكلوا طبقة مع العناصر الأجنبية التى وفدت الى مصر فى ظلهم من الأرمن والطليان واليونايين، وكانت لها امتيازات ومحاكم خاصة بها..

إلا أن الأرمن واليونان الذين كانوا يمثلون الجزء الفقير من هذه الطبقة عملوا على تحسين وضعهم عن طريق الالتحام بطبقات المصريين، وتأسيس المشاريع الصغيرة التى تشكل عامل جذب لهم، فأقاموا الحانات التى يبيعون فيها الخمور، ودفعوا بنسائهم إلى إدارتها وتوفير سبل الراحة لزبائنها، مما حقق رواجاً كبيراً لهذه الحانات بين المصريين الذين وجدوا فيها متعتهم المفقودة، ولذتهم الضائعة وخاصة مع قيام نسائهم الفاتنات بالرقص فيها..

وأيضاً إهتم هؤلاء بالمشاريع الغذائية فأنشأوا المطاعم ومحلات الأجبان والبقالة والصيدليات، وأسسوا الفنادق الصغيرة التى أطلق عليها اسم (بانسيون) وشاركوا المصريين السكنى فى أحيائهم الشعبية مما سهل عليهم كسب ثقتهم ..

وأيضاً اتجه العديد منهم نحو المسرح والسينما فساهموا فى الإخراج والتصوير والموسيقى والتمثيل، كما عملت الكثير من نسائهم فى مجال الرقص والدعارة التى كانت تستخدم (البنسيونات) كغطاء لها ..

ولقد شكل الترك والأرناؤود طبقة الباشوات والبكوات التى حلم الكثير من المصريين بالإنتماء إليها، ودفعوا الغالى والنفيس من أجل الحصول على رتبة الباشوية أو الباكوية..

والترك فى الأصل قبائل همجية ليس لها تاريخ فى عالم الحضارات، ولم يصبح لهم وجود وقيمة إلا على حساب الإسلام الذى انتموا إليه، وجعل لهم شوكة فلولا قيام دولتهم على يد آل عثمان وسيطرتها على البلاد المجاورة ومنها مصر ما كان يمكن أن تكون لهم قيمة..

وقيام دولة العثمانيين وسيطرتها على بلاد المسلمين لم يكن له ما يبرره شرعاً كما هوحال الدول الأخرى التى سبقتهم فى عالم المسلمين..

إلا أن هؤلاء الترك الهمج الرعاع أصبحوا باشوات وبكوات فى مصر وحصلوا على قيمة لم يكونوا يحلمون بها ودان لهم المصريون فاستعبدوهم وسخروهم لخدمتهم..

يقول الدكتور حلمى شلبى:

وواقع الأمر ان هؤلاء الترك امتدت وسائل اضطهادهم وعسفهم ونهبهم إلى كل من لا ينتمى إلى أرومتهم، فلم يفلت منها أحد..

والجدير بالذكر أن هؤلاء الترك كانوا يعاملون الرقيق فى قصورهم بشئ كبير من الرأفة، ويعتقونهم ويورثونهم فيما يملكون..

ولم يعرف هؤلاء الأتراك لهم مهنة فى الغالب الأعم سوى تولى أعمال الإدارة فى الأقاليم، والقليلون منهم إذاأحيلوا إلى التقاعد كونوا فريقاً من العاطلين، ويتحرشون دائماً بالفلاحين لأنهم فى حالة تقاعدهم يحصلون على الأبعاديات، ولا تفارقهم طباعهم المنطوية على الترفع والإستعلاء واستعمال الخشونة مع الأهالى..

والجدير بالذكر أن هذه الأعداد من الأتراك وصنائعهم كانوا يمتلكون العديد من الجوارى والخدم وغيرهم، والذين تزايدت أعدادهم فى بعض الأحيان ببعض المنازل عن أعداد الأتراك أنفسهم، كما أن اسلوب معيشتهم يكشف عن تميز إجتماعى واضح فى وسط أغلبية من الفلاحين، والحق أن هذا المسلك من جانب هؤلاء الأتراك لم يكن فيه أدنى غرابة، فهم لم يألفوا قط الحياة الزراعية باعتبارهم عناصر جبلية قادمة من أصقاع آسيا، وإن وجدنا نفراً قليلاً منهم يضطر إلى العمل بالزراعة، وآخرون يمتهنون حرفاً مثل الأرمن الذين عملوا بالشئون المالية وبرعوا فيها، وآخرون كانوا أصحاب مواخير فى القرى، ولكن هؤلاء وأولئك كانوا قليين جداً بالقياس لأعداد المتقاعدين منهم الذين لم يحترفوا اى شئ على الإطلاق، فقد قدموا إلى مصر بهدف العمل فى جيشها والارتقاء عن طريقه إلى أرفع المناصب لا الاشتغال بالفلاحة.. أهـ

وبالطبع فإن أمثال هؤلاء الأرقاء وغيرهم قد ذابوا فى المجتمع المصرى وأصبح من الصعب تمييزهم..

أما المماليك، وأغلبهم من الترك أيضاً، فقد استمدوا قيمتهم من العثمانيين الذين أطلقوا لهم العنان فى مصر ليخدموا مصالحهم ويكونوا لأنفسهم طبقة تسترق المصريين وتنهبهم.. كذلك شكل الأرناؤود الألبان الطبقة الحاكمة فيما عرف بأسرة محمد على والتى خرج منها الخديويات والملوك والأمراء، الذين كانوا يمنحون القيمة والمكانة لأفراد الطبقات الأخرى الذين يملكون المال، فكانوا يبيعون الألقاب ويتاجرون فى البكوية والباشوية، وأدخلوا فى دائرتهما من هب ودب من السوقة والأراذل والأوباش الذين وجدوا فى رتبة البكوية والباشوية وسيلة لرفع مكانتهم والثراء السريع وتوسيع النفوذ..

وهكذا تكاثر الباشوات والبكوات فى مصر الذين حصلوا على هذه المكانة ممن هم فى الأصل لا يستحقون هذه المكانة، فكله زور فى زور وما بنى على باطل فهو باطل..

والباشوات والبكوات من المصريين لم يرحموا أبناء جلدتهم ولم يتعاطفوا معهم بل استعبدوهم وانتهكوهم ونهبوهم وساروا على سنة الباشوات الغرباء..

والوصول إلى رتبة الباشوية يعنى الانتماء لطبقة الفراعنة الحكام، ويعنى أيضاً التضحية بكل شئ من أجل المحافظة على هذا اللقب..

وكل ذلك يكشف لنا تمرد المصريين على أصولهم الوضيعة والتبرأ من كل ما هو شعبى أو بلدى حسب التعبير الدارج والالتصاق بكل ما هو إفرنجى، والصدام بين البلدى والإفرنجى شخصته لنا السينما المصرية فى العديد من الأفلام.

وما نود التنبيه عليه هنا هو أن بيك وباشا هى كلمات تركية وأن البكوية والباشوية لم تكن تقتصر على المسلمين وحدهم بل طالت العديد من المسيحيين المصريين أيضاً ..

ومع سقوط الحكم الملكى فى مصر سقطت طبقة الباشوات والبكوات وألغيت الألقاب، إلا أن طبيعة الشعب الذى تعود على العبودية عملت على صناعة باشوات وبكوات جدد من الضباط والمسئولين فى الحكم الجمهورى الجديد..

وفى فترة السادات تقلص دور المؤسسة العسكرية وازداد دور المؤسسة الأمنية، وظهرت طبقة رجال الأعمال وازدادت قوة فى العصر الحالى، مما فتح الباب على مصارعه لمنح رتبة بيه وباشا لكل رجال الأمن ورجال الأعمال وظهور طبقة جديدة من الباشوات وسوبر باشوات..

ويكفى فى مصر أن يكون مظهرك أنيقاً وتركب سيارة حديثة - أو حتى بدون سيارة - كى يمنحك رجل الشارع رتبة بيه..

وكم أهلك الفراعنة الكبار من الحكام والمسئولين والفراعنة الصغار من الباشوات والبكوات - كم أهلكوا من العبيد فى سبيل المحافظة على مصالحهم ومكاسبهم..

والمصرى - القابل للإستعباد - لم يجد ما يواجه بة هؤلاء الفراعنة سوى إطلاق المثل القائل: **يا فرعون إيه فرعنك، قال ما لقتش حد يصدنى** ..

إن فى داخل كل مصرى فرعون صغير يجرى فى دمه ويظهر إذا سنحت له فرصة التسلط والنيل من الآخر، وهو ما نلاحظه فى الشارع المصرى حين يتحكم سائق المواصلة فى الركاب ..

وحين يتحكم التاجر فى السلعة التى يزداد الطلب عليها أو التى يندر وجودها ويرفع سعرها ويخفيها عن الجمهور..

وحين يتحكم الموظف فى الجمهور ويعطل مصالحهم..

وحين يتحكم قوى الحى فى أهله ويفرض سلطانه عليهم وهو ما أنشأ ظاهرة الفتوات فى الماضى الممتدة آثارها حتى اليوم ..

وحين يتحكم رجل الأمن فى المواطنين وينتهك حقوقهم ويريق دمائهم ..

وحين يعتقد المصرى أنه (عبد مأمور) يهيأ مناخ الاستسلام والخنوع والفرصة لتوالد وصناعة العديد من الفراعنة..

إن دماء العبيد هى التى تخط لنا تاريخ هذا البلد المنكوب..

ونتيجة لتوافد هذه الأجناس على مصر وذوبانها فيها ورثت اللهجة المصرية الكثير من الكلمات الأجنبية خاصة الفارسية والتركية ..

ولا تزال الكلمات الفارسية هى السائدة فى عالم المهن والأطعمة والأدوات المنزلية والأقمشة والملابس ..

فى المهن لاتزال كلمات: **كار** وتعنى المهنة، **واسطى** التى اشتق منها لفظ **استاذ** ودايه تستخدم حتى اليوم ..

وفى الأطعمة لا تزال كلمات: **خشاف وبلوظه وزلابيه وشوربه وكباب وكفته وكشك وطرشى وبقسماط وباذنجان ..**

وفى الأدوات المنزلية لا تزال كلمات: **طاسه ودبوس وطشت وفنجان وكبايه وكنكه وكوز وهون وسبت وشنطه وشمعدان ومكوك وصابون ..**

وفى الأقمشة والملابس لاتزال كلمات: **بفته وبؤجه وبيجامه وجوخ ودباره وسروال وشال وطربوش وقفطان وفوطه وكم وكليم وياقه وجوال وكنار وشراب أى جورب ..**

وهناك كلمات أخرى فرضت نفسها على اللسان المصرى منها: **كهربا ومندل ونشان وسرايه ودسته ودمل وطازه وخانكه وزفت وأسفلت وبوز وبندر ودفتر وبرواز وبخت ودهل وخواجه ولكلكه وبمب واستامبه وشيشه وطاقه وفرمان وموكت وميمون وناى وكبسول وامبول وعكس وزبالة، ودستور، وبواش بواش، مرمطة بالإضافة إلى ذلك هناك أعداد لعبة الطاولة (يك دو بنج شيش) ..**

وما ذكرناه إنما هو على سبيل المثال لا الحصر، فالكلمات الفارسية فى اللهجة المصرية أكثر من أن تحصى، وهى وليدة الحقبة الطويلة من الحكم المملوكى والتركى ..

وهكذا أصبح المصريون يطلقون الأسماء الأجنبية على أولادهم دون أن يدركوا معناها، ومن ذلك تسمية البنات بشيرين وهى كلمة فارسية تطلق على الحلوى، وفرخنده وهى فارسية أيضاً وتعنى الفرح ..

وسوزان وتعنى الملتهب أو المحترق ..

وخاتون وتعنى السيدة الكبيرة ..

وجيهان وتعنى العالم أو الدنيا ..

ونازك وتعنى الرقة واللطف..

ونهال وتعنى البرعم والشجيرة..

وشويكار وبهانه وهانم ورانده وحكمت ودولت ونعمت وألفت وهى جميعها أسماء فارسية تركية ..

ومن أسماء الرجال اسم خورشيد وهو فارسى يعنى الشمس ..

وشاهين الذى يعنى الصقر..

ودرويش ويعنى الفقير ..

وبيكار ويعنى البرجل أو الفرجار ..

ونيازى وهو مشتق من الاحتياج أو الحاجه ..

بالإضافة إلى شوكت ومدحت وعفت وبهجت وحشمت والدمرداش وغيرها..

وما يجب الإشارة إليه هنا هو أن اللغة التركية قد تأثرت كثيراً باللغة الفارسية، فمن ثم هى تحوى الكثير من الكلمات الفارسية ..

ومن الكلمات التركية السائدة فى اللهجة المصرية كلمة **الاجه** وهو نوع من الحرير ومعناها المخطط، ويستخدمها المصريون للتعبير عن حسن المظهر والفخامة ..

وكلمة **السطه** أى جاهز وحاضر ..

وكلمة **أوضه** أى غرفة ..

وكلمة **بسطرمه** وهو لحم أحمر مغلف بعجينة الثوم ..

وكلمة **ترياس** و**تكية** و**خردة** و**جلاش** و**بوبيه** وغيرها كثير ..

وذلك غير الكلمات القبطية والإيطالية..

ومصر فى معظم فترات التاريخ كانت محكومة بقيادات خارجية، والعجيب أن هذه القيادات هى التى تركت بصمة فيها، بينما فى الفترات القصيرة التى تمكن أبنائها من حكمها لم ينجزوا فيها شيئاً يذكر ..

وتقلب مصر بين شعوب الأرض يلخصه لنا المثل القائل: **راحت من الغزهاريه قابلوها المغاريه ..**

فكأن مصر امرأة تحاول أن تنجوا بنفسها من غاصب لتسقط فى قبضة مغتصب آخر ..

وجند المغاربة أفسدوا فى مصر إلا أن إفسادهم لا يوزن بشئ أمام إفساد وجرائم الترك والمماليك ..

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو: لماذا أصبحت مصر بالذات محطة لهذه النماذج الغريبة من أراذل الشعوب وحثالتها من العربان والكردوالمماليك والترك والأرمن والجريج والطليان والأرناؤود، واليوم غاسلو الأموال وجيوش نساء الليل الغازيات من أجل الحصول على لقب فنانات..؟

والجواب ببساطة يتلخص فى أن مصر عبر تاريخها الطويل كانت مطمعاً بسبب ثرواتها وبسبب شعبها الذى لم يحسن استخدام هذه الثروة أو استغلالها أو حتى الدفاع عنها فى مواجهة الغزاة..

ومن جانب آخر كانت مصر ملاذاً آمناً لكل الفاسقين والمجرمين والأراذل من كل بقاع الأرض المنبوذين في مجتمعاتهم، ينشرون فيها فسقهم وفجورهم ويستخفون بشعبها، ويبتزون أموالها فهى بحق كما وصفها أحد الشعراء فى الماضى: دار الفاسقين..



الشخصية المصرية

2 من خلال الأمثال..



إن دراسة المجتمع المصرى وأحوال الناس فيه تتطلب منا القيام بقراءة واسعة للشخصية المصرية التى تعد المدخل الأساس لفهم الواقع والمجتمع ..

وقراءة الشخصية المصرية لا تتم إلا من خلال الأمثال التى هى وليدة الحالة التاريخية بأحداثها وحكامها وفقرها وغناها ووليدة العادات والتقاليد التى أسهمت فى تكوين هذه الشخصية ..

وعلى رأس هذه الأمثال:

■ شعب يخاف ولا يختشيش :

وهذا المثل يعكس لنا جانباً هاماً من جوانب هذه الشخصية، ذلك الجانب الذى استغل من قبل الحكام فى صناعة سياسة الخوف والإرهاب التى يسير بها هذا الشعب من قديم..

والمصرى بطبعه إن لم يستظل بظل العصا لا ينتج ولا يستقم حاله، وهذا يفسر لنا الحالة الراكدة للمصريين طوال التاريخ التى ظلوا فيها قابعين بجوار النيل لا يحركون ساكناً..

وكثيرٌ من الذين حكموا مصر لم يهتموا بالشعب من الأصل أو لم يعبأوا به لعدم اكتراثه بما يجرى من حوله، وعدم مبالاته بأحوال وطنه مما فتح الأبواب على مصارعها للحكام ليعبثوا فى البلاد دون حساب أو عقاب، وسوف يأتى فى فصل الحكم بيان ذلك..

وحين عمل محمد على على بناء مصر الحديثة وتقويتها لم يتجاوب معه المصريون وعاندوه مما اضطره إلى استخدام سياسة العصا الغليظة، فكان يطاردهم فى كل مكان للعمل بالمشاريع التعميرية والمصانع والجيش، مما دفع بهم إلى إلحاق العاهات بأنفسهم كى يعفوا من الخدمة العسكرية، فقام البعض منهم بفقأ عينه، وقام آخرون بقطع

أصابعهم، ولم يفلح ذلك فى إثناء محمد على عن طلبهم للجيش فأنشأ فرقة العور، ودفع بالذين بتروا أصابعهم الى فرقة المدفعية، وقد رصد لنا الجبرتى الكثير من هذه الحوادث..

وكذلك فعل الخديوى إسماعيل حفيد محمد على حين قرر حفر قناة السويس فقد أجبر المصريين على العمل فيها، وجمعهم من كل مكان ووضع عليهم حراسة مشددة، وألزمهم بالعمل حتى تمام المشروع، ولولا ذلك ما كانت هناك قناة، ولا كانت هناك قيمة لمصر ومصدر دخل دائم ينعش اقتصادها، وإن كان يتم نهبه من قبل الحكام وأعوانهم حتى اليوم..

والمصرى سرعان ما يتفرعن ويتجبر إذا ما ترك له الحبل على الغارب ثم يتراجع بسرعة ويجبن إذا ما شعر بالخوف، وهو ما نراه بوضوح فى تلك المعارك الضارية التى تقع فى الشوارع والحارات بين أفراد الشعب لأتفه الأسباب، والتى غالباً ما يسقط فيها جرحى وفى بعض الأحيان قتلى، فحين يظهر رجال الشرطة فى الميدان يتراجع الجميع فى خوف، وترى هذا المستأسد الذى كان يمسك بسكين أو عصاة أو ما شابه وهو يسب ويلعن ويتوعد خصومه، تراه قد تحول إلى أرنب مرتعش مهيىء نفسه للعقاب المنتظر، ورأسه متدلية على صدره معرضاً قفاه تمهيداً لختمه من قبل رجال الشرطة، ولو أنك جئته ناصحاً وهو فى عنفوانه ما قبل منك النصح، ولاعتدى عليك واستخف بك ..

من هنا فإن المصرى يخاف العسكرى – أى رجل السلطة – أكثر مما يخاف الله..

ولقد أصبح المجتمع المصرى اليوم نتيجة لغفلة الحكومة عنه لانشغالها بالجماعات والمعارضة على ما سوف نبين، أشبه بمجتمع قطط يأكل بعضه بعضًا، فالعراك لا يتوقف ليلاً أو نهارًا والصياح والسب والشتم لا يتوقف داخل البيوت وخارجها..

وعندما صدر قرار بمنع التدخين فى المواصلات العامة إمتثل البعض خوفاً من الوقوع فى قبضة الشرطة ودفع الغرامة، ولكن البعض أخذ يدخن خفية أو استخفافاً عندما يشعر بالأمن بعيداً عن عيون رجال الشرطة، وإذا ما جئته ناصحاً طالباً منه الكف عن التدخين نظر إليك بإستخفاف أو تطاول عليك، وكثيراً ما كانت تنشب معركة داخل المواصلة بسبب ذلك، ثم عندما يظهر رجل الشرطة تجد هذا المتفرعن الغبى قد نكس رأسه وأبدى استعداده للعقاب فيمسك به الشرطى كما يمسك بالأرنب، موجهاً له شتى صور السب والإهانة وقد كان يكفيه

الأدب ليحفظ كرامته وينجو بنفسه، وتسمع تعليقات الركاب على هذا الحدث والتى تدور جميعها حول المثل المذكور: شعب يخاف ولا يختشيش..

وما دمت ماشياً فى الطريق وتركب المواصلات وتسكن الأحياء الشعبية فأنت معرض لكل صور الأذى والاستخفاف، ومن الممكن أن ينال منك سوقى لاعتقاده أنك لا تستطيع أن تنال منه أو تلحق به أى ضرر ..

وصاحب السيارة فى مصر يحترم على قدر سيارته فإن كانت سيارته قديمة فإنه لا يحظى بالاحترام المطلوب، أما إن كان من ركاب المرسيدس والسيارات الفاخرة الغالية الثمن، فإن الطريق يصبح أمامه مفتوحاً ورجل المرور يؤدى له التحية طامعاً فى هدية عبارة عن ورقة مطوية..

■ زماره تجمعهم وعصايه تفرقهم

وهذا المثل له صلة وثيقة بعلاقة المصرى بالحاكم وعلاقة الحاكم به، إذ فهم الحكام هذا الجانب فى الشخصية المصرية فقرروا التركيز على الزمر والطبل والإنفاق عليه بلا حساب، ودعم المؤسسات والجهات التى تساعد على تجميع المصريين حول الغناء واللهو من الداخل والخارج، وسوف يأتى الحديث عن الغناء ودوره فى حيلة المصريين وارتباطه بالشخصية المصرية..

والحاكم المصرى يمسك على الدوام بالعصا فى يد والمزمار فى اليد الأخرى وبدون ذلك لن يتمكن من حكم مصر، وإن كان يكفيه المزمار وحده ليسوس به الشعب ويجمعه من حوله، وقد لعب الزمر والطبل دوراً فاعلاً فى تجميع الشعب من حول عبد الناصر وتبنى أفكاره كما سوف نبين..

وهذا المثل يكشف لنا أن الشخصية المصرية تميل إلى اللهو كوسيلة للهروب من إرهاب الحاكم، أو بمعنى أدق إن الشخصية المصرية تحاول أن تنسى عصا الحاكم والبؤس والشقاء الذى تعيشه فى ظله عن طريق الانشغال بالمزمار..

■ الله يخليك يا قفايا إن ما حد سكك:

وهذا المثل يكشف لنا حالة الذل والمهانة التى يعيشها المصريون والتى تجعلهم فى خوف دائم من الحاكم وصاحب السلطان أن ينال منهم دون سبب، فإن إحساسه بانعدام العدل والرحمة، وتيقنه من وقوع الظلم عليه فى أى وقت جعله يتوقع الشر دائماً، وجعله يدعو

لقفاه الذى لم تطله يد الحاكم المتمسك على الدوام بسنة ضرب القفا، وهى من السنن الثابتة الصحيحة فى مصر، تلك السنة التى جعلت المصريين يفرون من الحاكم كما تفر الحمر المستنفرة خوفًا من قسورة، مما يدفع بالحاكم لابتداع العديد من السنن الأخرى التى يحصل عن طريقها على بركات البلاد وطاعة العباد..

وضرب القفا كان من سنن الفتوات أيضاً..

وطبقة الفتوات والبلطجية والعياق وجدت أمام جبن هذا الشعب واستسلامه للظلم وقابليته للاستعباد الفرصة لفرض نفسها عليه، ووجدت لنفسها مهنة سهلة لجلب الرزق السهل السريع على حساب الكسالى الجبناء..

ووجد الحكام فى هذه الطبقة وسيلة من الوسائل المساعدة على بسط النفوذ والخلاص من الخصوم ـ وأيضاً المساعدة فى الانتخابات ـ فتغاضوا عن جرائمهم ومنكراتهم فى حق الشعب مقابل الخدمات التى يقدمونها لهم على المستوى السياسى والإجتماعى والإقتصادى، وهو ما كان يحدث فى الفترة الملكية بواسطة رجال الشرطة والإنجليز والباشوات، وهو ما يحدث اليوم من قبل رجال الشرطة ورجال الأعمال وقيادات الحزب الوطنى الحاكم خاصة فى موسم الانتخابات ..

ولقد ابتدع المصريون مثلاً آخر يدعم المثل الأول ويعفيهم من هذه السنة يقول: **اللى يقدم قفاه للسك ينسك ..**

والسبيل الوحيد للحفاظ على القفا هو التمسك بسنة السكوت وتعطيل الألسنة فى مواجهة الحاكم، وهى من السنن المجمع عليها عند المصريين..

ومن هنا ابتدع المثل القائل: **اللسان عدو القفا ..**

والمثل القائل: **من خاف سلم ..**

■ لولا امك وابوك لقلت الغز ربوك :

وهذا المثل يضرب للشخص حسن الصورة والملبس الأبيض الوجه الذى يشبه الترك فى هيئته، وهو مثل يدل على التدنى واعتبار الترك أحسن صورة وأرقى جنساً، بحيث إذا ما ظهر بين المصريين من هو حسن الصورة والملبس لا يتصور أنه مصرى، ولولا معرفة الناس بأبيه وأمه لشكوا فى أصله ..

ويعد المثل القائل: **مبروك الطهارة يا معاشر الأماره** امتداداً للمثل السابق، فقد اعتبر المصريون أن معاشرة علية القوم ميزة وقيمة ..

■ **ناهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب وديل الكلب لم ينعدل ولو ربطو فيه قالب:**

وهذا المثل يكشف لنا إحباط المصريين من إمكانية التخلص من عقدة الفرعنة التى تلازم الشخصية المصرية المغرمة بفعل السوء والمجون والإجرام بمجرد النصح والإرشاد، وذلك لكونها لا تخشى الناصح أو المرشد لكونه لايملك سلطاناً يردعها به ..

ومثل هذه الطبيعة هى التى دعت السلطة فى مصر إلى تبنى سياسة يلخصها المثل التالى: **إضرب المربوط يخاف السايب ..**

■ **إلى تلاقيه موسى يطلع فرعون:**

وهذا مثل يعبر عن أزمة هذا الشعب الذى كثر فيه الأوباش والأراذل وحثالة الخلق بحيث أنك تجد من الصعوبة بمكان الصالح والطيب من بينهم، وهو ما تؤكده التجارب والوقائع ..

وقد عشت فى هذا البلد أكثر من نصف قرن فلم أتمكن من العثور فيها على صديق مخلص طيب، وكلما تعاملت مع شخص بحسن نية وأعطيته ثقتى إذ به يخوننى ويضربنى فى ظهرى ويأكل مالى، والأغرب أن معظم الشخصيات التى كنت أحسبها موسى وتبين لى أنها فرعون كانت من الإسلاميين ..

ولاشك أن الذى ابتدع هذا المثل لم يبتدعه من فراغ و إنما ابتدعه من بعد أن طال به الأمد وهو يبحث عن موسى وسط المصريين، ومن بعد أن ناله الكثير من أذى الفراعنة..

من هنا نرى الكثير من المحلات التجارية فى مصر تضع على أبوابها لافتة تقول: **إذا أكرمت الكريم ملكته، وإذا أكرمت اللئيم تمردا ..**

ولافتة تقول: **إتق شر من احسنت إليه ..**

■ **الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح:**

وهذا المثل قد أسهم بدور كبير فى سلبية الشخصية المصرية وتميعها إذ يكفيها الانسحاب أمام أية مشكلة بدلاً من مواجهتها وهو مثل له آثاره الواضحة على العقل الحكومى خاصة العقل الأمنى على ما سوف نبين..

■ يتمسكن لحد ما يتمكن:

وهو ما يجعل المصريون يفقدون الثقة ببعضهم حيث ترى المصرى يأتيك ذليلاً خانعاً يطلب عملاً، أو يطلب قرضاً من المال، أو يطلب مساعدته فى السفر الى الخارج وحين يتم له مايريد يتنكر لك وكأنه لا يعرفك، وهو يكشف لنا جانب المكر والخبث والتلون فى الشخصية المصرية..

■ اللى مالوش كبير يشتريله كبير:

وهذا المثل يعكس صورة الشخصية المصرية التى لا يمكن لها أن تعيش بدون فرعون يتسلط عليها ويخيفها فهى قد تعودت على الذل والاستعباد، فمن ثم هى تستصغر نفسها دائماً وتأبى أن تعيش حرة طليقة، بل والأخطر من ذلك أنها اعتادت على الذل بحيث أصبحت لا تستطعم الحرية والكرامة، بل وصل بها الأمر إلى رفض كل صور النقد والتقويم معتبرة ذلك عدواناً عليها، وهذا يفسر لنا غضب المصريين من النقد والمواجهة بالحقيقة دائماً..

■ آخر خدمة الغز علقة:

والغز أشرنا إليهم سابقاً وهم كانوا يحتقرون المصريين ولا يفهمون غير لغة السياط ..

والمثل يعكس حال المصريين الذين تفانوا فى خدمة الترك فلم يمنع ذلك من أن تطولهم سياطهم ..

وعلى الرغم من قسوة الترك وظلمهم إلا أن المصريين فضلوا جور الغز على عدل العرب..

■ إن فاتك الميرى إتمرمغ فى ترابه:

ولعل الكوارث والحوادث التاريخية هى التى ولدت لدى المصريين هذا المثل الشهير الذى يعد دعوة صريحة إلى الالتصاق بالحكومات والعمل تحت مظلتها، فهى تمثل المصدر الثابت والمضمون للرزق أما الأنشطة الإقتصادية الأخرى فغير مضمونة، ومن الممكن أن تعصف بها الحوادث وتضيعها ويضيع معها صاحبها..

ومثل هذا التصور يتنافى مع التوكل على الله والإيمان به سبحانه، إلا أن المصريين بسبب ضيق الرزق الدائم والذى يعد سببه الرئيس هو الاستغلال والاحتكار وسوء توزيع الثروات التى يمارسها الحكام وأعوانهم من الكبراء، جعل من المصريين عبيداً لهم باعتبارهم مصدر

الرزق الثابت والمضمون وإن كان فتاتاً، وذلك بدلاً من مواجهة هؤلاء الطغاة وانتزاع حقوقهم منهم، فالمصرى يعتقد أن مواجهة هؤلاء سوف تؤدى إلى فقدان هذا الفتات وضياعه إلى الأبد..

وعقدة الرزق هذه قد جعلت عقيدة المصريين فى بطونهم، فإذا امتلأت البطون استقام الإيمان والدين، وإذا فرغت اهتز الإيمان وضاع الدين..

من هنا فإن الشخصية المصرية تعد شديدة الهشاشة وذات مقومات غير ثابتة وسريعة التقلب، فتتجه بسرعة نحو الفساد وتنغمس فيه إذا ما إزدادت الضغوط عليها، وتتجه بسرعة نحو الدين والصلاح إذا ما استقام بها الحال، مما يدعونا الى القول أن الشخصية المصرية سريعة الفساد وسريعة الإصلاح فى نفس الوقت..

وهذا من التناقض الغريب فى هذه الشخصية..

والغريب أن هذا الشعب الساكن لم يفكر يوماً فى غزو إفريقيا حيث الماء والخضرة والمعادن..

ولم يفكر يوماً فى غزو السودان المشاركة له فى الحدود الغنية بمواردها، بل كان يتفرج على إفريقيا والسودان حتى غزاها البيض الأوربيون واستعمروها ونهبوا ثرواتها..

وفى العصر الحديث اتجهت الكثير من الهجرات نحو إفريقيا وأمريكا الجنوبية من قبل الشوام حتى أصبحت لهم مراكز بارزة وقوية فيها وظل هو يمارس دور المتفرج..

والأغرب من هذا كله هو أن هذا الشعب لا يفكر حتى فى الهجرة إلى الداخل ويفضل البقاء فى مكانه بجوار الأم والعم والخال والزوجة، أو الإتجاه نحو مساحات مصر الفارغة والشاسعة، فى الوقت الذى تتوافد على مصر الهجرات من مختلف شعوب الأرض لتعمر وتربح وتثرى فيها، بينما اكتفى هو بالعمل لدى هؤلاء الوافدين ..

ولقد ظلت سيناء فى يد المصريين قروناً طويلة فما صنعوا بها شيئاً، وعندما استولى عليها الإسرائيليون بعد هزيمة عام(1967م) حولوها إلى جنة خضراء، وعندما عادت إليهم من جديد جعلوها مرتعاً للأجانب والكبراء فأنشأوا بها القرى السياحية والفنادق الفاخرة وشواطئ العراة، بينما قاموا هم بخدمة هؤلاء فى سرور وفرح بما يحصلون عليه من فتات..

وتوطن مصر خلال القرنين الماضيين الكثير من الفرس واليونان والطليان والشوام

والمغاربة، وأقاموا الكثير من المشاريع والتجارات الرابحة وظل الكثير منها باقياً فى مصر حتى اليوم يحمل أسماء هؤلاء ..

وما يجب ذكره هنا هو أن الانشطة الاقتصادية التى قام بها هؤلاء الوافدين تمت بسواعد المصريين..

والسؤال هنا: إلى أى شىء يشير هذا..؟

والجواب هو أن المصرى يفضل الرزق السهل اليسير والسريع، وإن كان قليلاً على الرزق الصعب الذى يحتاج إلى جهد وعرق وصبر وإن كان كثيراً، ويحاول البعض أن يفسر هذه الظاهرة على أنها صورة من صور القناعة التى يتميز بها المصريون، بينما هى فى الحقيقة صورة من صور قلة الحيلة والكسل وضعف الهمة..

ولعل هذا ما دفع بالعديد من الفلاحين مع دخول مصر فترة الإنفتاح فى عصر السادات إلى تجريف أراضيهم، وبيع ترابها لأصحاب مصانع الطوب مع انتعاشة حركة البناء فى القرى والمدن، فتجريف الأرض وبيع ترابها هو أسهل وأربح من زرعها، وما دفع بهم أيضاً إلى بيع أراضيهم وتحويلها لمبانى سكنية الأمر الذى أدى بالحكومة إلى التدخل بقوة لمنع هذه الظاهرة التى تسببت فى فقد آلاف الأفدنة الزراعية، وكان من الممكن أن تقضى على البقية الباقية منها ..

إلا أن الحكومة لم تتدخل لتجبر أصحاب الأراضى الزراعية على زراعة المحاصيل المحلية المطلوبة للإستهلاك الداخلى مثل القمح، أو المطلوبة للتصدير كالقطن كما كان الحال فى الفترة الناصرية ..

ومن هنا فإن من لم يستطع تجريف أرضه أو تحويلها إلى أرض سكنية قام بتحويلها إلى بساتين لأنواع مختلفة من الفاكهة التى تدر ربحاً سريعاً ..

والمصرى لا يفكر فى السفر إلى الخارج إلا إذا ملك عقد العمل هناك فى يده، وذلك لضمان العمل والرزق، وقد يكون عقد العمل هذا عند مهاجر سبقه إلى هذه الديار وكد وكدح حتى أسس له كيان فيها ..

وهذا الشباب المصرى الذى يغامر بركوب أعالى البحار للدخول إلى أوربا بطرق غير مشروعة ويعرض حياته للخطر منفقاً كل ما يملك، لم يكن ليفكر فى ذلك لولا اعتقاده أن أوربا هى جنة الله فى الأرض والرزق فيها مضمون وكثير..

ومثل هؤلاء الشباب لا يفكرون بركوب أعالى النيل وإختراق السودان مثلاً وإقامة مشاريع فيها مع أن ذلك سهل وميسور، لماذا..؟

لأن الرزق فى السودان يحتاج إلى جهد وعرق وصبر وربما بعد ذلك يكون غير مضمون..

ومن الغريب أن اليونان والطليان كانوا فى الماضى يحلمون بدخول مصر والعمل فيها، وقد تحقق لهم ذلك فى العصر الملكى، والمصريون اليوم يحلمون بدخول اليونان وإيطاليا والعمل فيها غير أن حلمهم هذا قد دفن معهم فى قاع البحر ..

ولقد تم غزو إفريقيا اليوم من قبل اللبنانيين سابقاً والعراقيين لاحقاً وأقاموا الكثير من المشاريع فيها، ولعله لو اشتهرت هذه الأنشطة وأشيع فى مصر بعلو أجورها لتدافع المصريون وتسابقوا إلى هناك للعمل عند اللبنانيين والعراقيين..

وكان عبد الناصر بفتحه الأبواب على مصارعها لجميع أبناء الشعب للعمل لدى الحكومة، وتأسيسه لجهاز القوى العاملة ليصبح كل طالب يتخرج من الجامعة أو المعهد أو المدرسة يتقدم بطلبه لهذ الجهاز ليتم تعيينه ولو بصورة عشوائية – كان عبد الناصر بعمله هذا قد أسس لسيادة المثل القائل: إن فاتك الميرى، وساعد على توطين فكرة الكسل والتراخى والجمود فى نفوس المصريين، مما حول المجتمع المصرى إلى مجتمع وظيفى لا مكان فيه للعقل الإقتصادى الحر..

ولما انتهت المرحلة الناصرية جاء السادات ومن بعده ليضرب فكرة الميرى ويسحقها سحقاً، مما نتج عنه انتشار البطالة وكثرة الباعة فى الطرقات من أصحاب المؤهلات وخريجى المعاهد والجامعات ممن لا يجدون عملاً ولن يجدوا..

وقد دفعت بهم الحالة الإقتصادية الراهنة البالغة السوء إلى محاولة العودة للميرى والتمرغ فى ترابه من جديد، إلا أن الحكومة أغلقت أبوابها بعد أن اتجهت نحو الاقتصاد الحر مما دفع بالبعض من القادرين إلى دفع رشاوى كبيرة للمسئولين من أجل الحصول على مقعد فى دوائر الحكومة، وهذه الرشاوى درجات حسب الوظيفة المطلوبة فكل درجة وظيفية لها الرشوة المناسبة لها..

ونظراً لضيق الرزق الذى يحاصر المصريين من قديم فقد دفع هذا الحال بالمصرى إلى محاولة البحث عن مصدر ثابت ومضمون للرزق، وعدم اللجوء للمغامرة من أجل الحصول

عليه، فالمصرى بطبعه لا يحب المغامرة وهو من أنصار الثبات والجمود والكسل، وهذا ما دفع به الى التعلق بالوظائف الحكومية حيث الرزق الثابت المضمون ..

وما دفع به إلى البقاء بجوار النيل وربط حياته به من قديم، فإذا زاد وفاض عم الخير وكثر الرزق، وإذا قل وحسر وذهبت مياهه مات إلى جواره..

وهو ما ذكرناه سابقًا عن المجاعات التى كانت تصيب مصر بسبب إنقطاع مياه النيل حيث كانت تشح الغلال ويختفى الدقيق، فتخرج المرأة عارضة حليها على الناس فى مقابل رغيف من الخبز فلا يستجيب لها أحد فتلقى بها فى الطريق فلا يلتفت إليها، وتضطر الناس إلى أكل الميتة وأكل بعضها، وخطف الصغار والضعفاء من الرجال والنساء من الطرقات..

وما سبق ذكره يؤكد لنا أن المصريين يعيشون فى بلادهم طوال تاريخهم كالغرباء تاركين الأجانب يرتعون فى البلاد ويمتصون خيراتها بينما قبلوا هم بالفتات الذى يجودون به عليهم ..

وهو ما يؤكد لنا من جهة أخرى أن البصمات الواضحة فى تاريخ مصر وواقعها هى بصمات الأجانب، وهو ما يبدو بوضوح من خلال المكاسب التى حققها المصريون من خلال الحملة الفرنسية، والآثار العمرانية والإنجازات الاقتصادية التى تركها محمد على الألبانى وذريته فى مصر..

ولولا اكتشاف حجر رشيد على يد شامبليون الفرنسى ما تمكن أحد من معرفة أى شئ عن الفراعنة القدامى، وقد اكتفى المصريون بمهنة الفلاحة، ومن كان يفشل فى الفلاحة يتجه إلى المدينة ليعمل بائعاً لسلع بسيطة لا تكلف جهداً ولا تربح شيئاً..

وظاهرة الباعة من الظواهر الملفتة فى الشارع المصرى من قديم، فالباعة يحتلون الطرقات وأرصفة الشوارع ويضيقون على المارة، بل يعتدون عليهم أحياناً، وهى تظهر وكأن هذا الشعب كله من الباعة، وهذه الظاهرة لا تشمل فقط العوام ممن لم يحظوا بنصيب من التعليم، بل تضم إليها قطاعات من المتعلمين الذين لا يجدون عملاً، وخاصة من عناصر الجماعات الإسلامية الذين وجدوا فى البيع عملاً شرعياً بعيداً عن الشبهات التى تودى بصاحبها الى النار - حسب تصورهم - وقد امتدت هذه الظاهرة إلى داخل المواصلات العامة، حتى القطارات التى تحولت إلى ما يشبه السوق المتحرك مما يسبب إزعاجاً كبيراً للركاب..

وظاهرة كثرة الباعة إنما تعكس لنا طبيعة الشخصية المصرية ذات الأفق المحدود اقتصادياً والتى تتميز بقلة الحيلة، فتتجه بها طبيعتها إلى هذا النوع من العمل البسيط غير المكلف وغير المنتج، وإنك لترى البائع فى دكانه أو يقف فى الطريق فتتركه وتذهب وتغيب عنه بضع سنين وتعود لتراه كما هو جالس داخل دكانه أو واقف فى مكانه لم يتحرك منه..

وقد أدت هذه الحالة الساكنة بالمصريين إلى العمل على ملىء هذا الفراغ الكبير الذى نتج عن قلة الإنشغال بالعمل والانتاج والاتجاه الى المهن السهلة التى تستهلك جزءاً قليلاً من وقته، كما هو حال الوظيفة مثلاً - بالإتجاه إلى السمر واللهو..

ولأجل هذا كله أصبحت الشخصية المصرية كثيرة الكلام قليلة العمل بالإضافة إلى كونها كثيرة الهموم، وهذا ما فتح الباب لشيوع الغناء والرقص والتمثيليات وسائر صور اللهو والمسليات لسد هذا الفراغ الكبير فى حياة شعب لا ينتج..

وهذا كله قد ساعد على إفراغ الشخصية المصرية من محتواها الفكرى والثقافى، فلا تجد للفكر أو الثقافة مكاناً ملحوظاً ضمن اهتمامات هذه الشخصية، ويعد هذا الأمر من العوامل المساعدة للحكام التى مكنتهم من السيطرة عليها وتعبيدها لهم..

وأدى هذا كله إلى أن تتحول الشخصية المصرية لشخصية أمية هزلية فارغة تنشغل بالتفاهات وتغرق فى اللهو وتكره الجد، وهو ما أنتج فى النهاية الحالة الفكاهية الساخرة التى تسود واقع المصريين من قديم، وتعد من عوامل بقاء هذه الشخصية وصمودها فى وجه الفقر والبؤس وصور المذلة والاضطهاد التى تلاحقها عبر الزمان ..

وكان لقضية الرزق الأثر البالغ فى التركيبة السكانية بمصر، فقد آثر المصريون بسبب الخوف على الرزق الالتصاق بالنيل وببعضهم فى دائرة ضيقة لضمان الرزق فيها، وأيضاً لضمان الأمن والعون من الآخرين فى حالة إذا ما قل الرزق وضاقت السبل، فترى المبانى المصرية من قديم شديدة التلاصق ببعضها وهو ما يبدو بوضوح فى القاهرة القديمة والقرى فى الريف المصرى وحتى فى المدن الحديثة، حيث يمكن للساكن إذا طل برأسه من نافذته يجدها فى شقة الجار، ومن الممكن أن يسطوا عليه أذا ما ضاق به الحال وهو ما يحدث كثيراً على مستوى الماضى والحاضر ..

ولقد نتج عن الكسل وقلة الحيلة والبحث عن الرزق السهل أن نشأت طبقات من المحتالين والنشالين أو الشطار والشحاذين والفتوات أوالبلطجية والعياق، أو قاطعو الطريق والأدباتية

أوالحكواتية والمبخراتية وضاربات الودع والدجالين، وكل هذه الطبقات برزت فى ظل هذا المناخ الراكد الذى يفتح الأبواب على مصارعها للأعمال غير المنتجة والغير مكلفة معتمدة على جبن هذا الشعب وسهولة الاستخفاف به والضحك عليه ..

وقد دفع الطمع بالمصريين الكسالى الباحثين عن الرزق السهل السريع أن وقعوا فريسة لنماذج من المحتالين، كان دورهم ينحصر فى تزيين مصدر من مصادر الرزق السهل السريع لأمثالهم فيندفعوا نحوه لاهثين فيجدوه سراباً بعد أن يفقدوا نقودهم بالطبع، ورزق الكسالى على الطماعين..

النفـــاق والدونيـــة

وهناك العديد من الأمثال التى تكشف سلبية الشخصية المصرية، ونفاقها وقلة حيلتها، وشعورها الدائم بالدونية والجوع والحرمان وتبرير الذل والخنوع مما لا يجعل للشرفاء المعتزين بكرامتهم مكاناً بينهم ..

ومن هذه الأمثال:

- **الفقر حشمه والعز بهدله..**
- **مخدة العز شوك وريحان ومخدة الفقر ريش نعام..**
- **ابن النعيم للنعيم وابن الشقا للشقا ..**
- **المعيشه تحب طول البال..**
- **من رضى بقليله عاش ..**
- **الناس مقامات ..**
- **بات مغلوب ولا تبات غالب..**
- **بات كلب واصبح سبع..**
- **الهروب نص الشطارة..**
- **إللى يبص لفوق توجعه رقبته..**
- **إللى يطاطى لها تفوت..**
- **اقل عيشه أحسن من الموت..**

- الأيد إللى ما تقدرش تقطعها بوسها..
- إللى ما تقدرش توافقه نافقه..
- إن جاك القرد راقص طبله..
- إللى يتفكر يتعكر..
- إن كان ليك حاجه عند الكلب قوله يا سيدى..
- ألف عيشه بكدر ولا النومه تحت الحجر..
- لف سنه ولا تخطى قنا..
- حلال كلناه حرام كلناه..
- دود المش منه فيه..
- إن حضر العيش يبقى المش شبرقه..
- زى المش كل ساعه تلاقيه فى الوش..
- افتكرلك إيه يا بصله كل عضه بدمعه..
- إن عاشوا أكلوا الدبان وإن ماتوا ملاقوش أكفان..
- داق الطعميه وباع الطاقيه..

وهذا المثل الأخير يظهر لنا مدى الحرمان الذى كان يعيشه المصريون، والذى دفع بأحد هؤلاء المحرومين إلى التضحية بالطاقية التى يستر بها رأسه من أجل تذوق الطعمية أو الفلافل، والتى كانت على ما يبدو لون جديد من الطعام ليس فى مقدور الجميع تناوله فى وقت ظهور هذا المثل..

والمش هو طعام الطبقات المسحوقة من الفلاحين وغيرهم وسوف يأتى ذكره عند الحديث عن العجل الحاكم..

عدم التجانس

والأمثلة التى تدل على عدم التجانس بين المصريين وحقدهم واحتقارهم لبعضهم وسوء أخلاقهم وانحطاط طباعهم أكثر من أن تحصى ..

ومن هذه الأمثلة:

- إن لبس خيشه برضه عيشه..
- أكل الحق طبع..

- أخته فى الخماره وعامل أماره..
- أمه عياشه وعامل باشا..
- إزرع ابن آدم يقلعك..
- إن طلع من الخشب ماشه يطلع من الفلاح باشا..
- إدلعى يا عوجه فى السنه السوده..
- اللى ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون..
- إللى يربط فى رقبته حبل ألف مين يسحبه..
- بات فى بطن سبع ولا تبات فى بطن بنى آدم..
- تحت البراقع سم ناقع ..
- تفو على وش الرذيل قال دى مطره..
- خدها فى كمك لتغمك..
- شابت لحاهم والعقل لسه ماجاهم..
- دموع الفواجر حواضر..
- كل حاره وليها غجر..
- كل دين واشرب دين وان جه صاحب الحق خرمله عين..
- القرعه تتباهى بشعر بنت اختها ..
- ياما فى الحبس مظاليم ..
- لليهود والنصارى ولا ولاد الحاره..

والمثل الأول يشير إلى الجبناء الّذين يربطهم المعتقد المصرى دائما بعائشة وهزيمتها فى وقعة الجمل ..

أما المثل الثانى فيشير إلى أن أكل الحقوق من الطبائع الثابتة عند بعض المصريين ..

والمثل الثالث يتحدث عن صنف من المصريين معروف بالدياثة وهو ما يطلق عليه العامة لفظ (معرص) ..

والمثل الرابع هو امتداد للمثل الثالث..

والخامس من هذه الأمثال يتحدث عن صنف خبيث من المصريين من المقصودين بالمثل الذى ذكرناه: يتمسكن حتى يتمكن، ومعنى هذا المثل أن مساعدة مثل هذا الخبيث وتمكينه فى

أرضك أو عملك سوف يؤدى إلى أن يتآمر عليك ليستولى على أرضك أو عملك، وهو ما يحدث كثيراً فى مصر وبين المصريين المقيمين فى الخارج..

أما المثل السادس فيكشف لنا احتقار المصريين لبعضهم خاصة طائفة الفلاحين منهم حيث يشير المثل إلى استحالة أن يخرج من بينهم باشا، وهو إشارة إلى تدنيهم وحقارتهم وعدم امكانية رقيهم، والماشة يقصد بها تلك الصفائح الرقيقة التى يتناولون بها جمرات الفحم المشتعلة ليضعونها فى الجوزة أو الشيشة التى يشربون فيها الدخان، وبالطبع من الاستحالة خروج الصفائح المعدنية من الخشب ..

ودلع العوجة الذى يتحدث عنه المثل السابع يقصد به المرأة عديمة العقل السفيهة التى تتدلل فى ظل الأيام السوداء، وهو إشارة إلى المرأة التى تطلب من الرجل ما لايتناسب مع الحال..

والمثل الذى يليه يتحدث عن المعوج من الناس الذى يرفض الحكم العادل ويطلب الحكم الجائر، وهو إشارة إلى التاركين لليسر الباحثين عن التشدد، وهم كثير فى مصر خاصة فى دائرة الجماعات الإسلامية..

والذى يربط فى رقبته حبل كأنه يغرى الناس بسحبه، أى جره منه، وهو إشارة إلى القابلية للإستعباد والخنوع وهى الصفة الملازمة للمصريين والتى تغرى شعوب الأرض بهم..

ونظراً لندرة الأمين بين المصريين اعتبر أن الذى يبيت فى بطن سبع هو أكثر أمنا من الذى يبيت فى بطن ابن آدم أى يسلم له أمره ويستأمنه على نفسه وماله..

والبرقع المقصود فى المثل الذى يليه هو الغطاء الذى كانت تستر به المرأة وجهها فى الفترات السابقة للعصر الجمهورى، والمقصود بهذا المثل هو أنه يجب على المرء ألا يغتر بمظهر المرأة المحتشم فقد تخفى وراء تحشمها شراً، وهذا المثل ينطبق أيضاً على المنتقبات الساترات لوجوههن فى العصر الحالى..

والرزيل الذى أشار إليه المثل هو متبلد بطبعه ولا يعنيه إهانات الناس له وما يعنيه هو تحقيق ما يريد ولو علو حساب كرامته..

وخدها فى كمك التى أشار إليها المثل الذى يليه يقصد بها النعال التى كانت تسرق من أصحابها فى المساجد من قديم، والمثل ينبه المصلى إلى لصوص النعال ويطالبه أن يضع نعله فى كمه حتى لا يصاب بالغم إذا ما سرق منه ..

وسرقة نعال المصلين سنة لا يزالُ يعمل بها حتى اليوم حيث ترى الإمام فى المسجد لا ينسى تنبيه المصلين بوضع نعالهم أمامهم قبل إقامة الصلاة ..

والمجتمع المصرى يكتظ بضعاف العقول من قديم فمن ثم ترى الكثير من كبار السن يرتكبون الحماقات، وهو ما نراه بوضوح فى أوساط المهرجين والمغنين والممثلين وجمهورهم، وهذا ما يقصده المثل بشابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم..

والمرأة الفاجرة سريعة البكاء لأجل استعطاف الناس ومساعدتهم للخروج من مأزقها وهو مقصود المثل الذى يليه ..

وكل حارة لها غجر وهو المثل التالى الذى يلقى الضوء على حال الحارة المصرية التى يكثر فيها العراك والصياح والضجيج الدائم، وهو من صفات الغجر، بحيث يمكن القول أنه لا تخلو حارة منهم..

والمثل التالى المتعلق بالدين يكشف جانباً سلبياً خطيراً فى الشخصية المصرية وهو المماطلة وأكل حق الدائن، والمثل يشكل دعوة صريحة ليس للمماطلة فقط، بل للإعتداء على الدائن وفقأ عينه إن أمكن ..

ومثل القرعة ينطبق على المتباهين بالفراعنة وأمجادهم ليداروا به فشلهم الذريع وخيبتهم وضعف همتهم ..

وياما فى الحبس مظاليم مثل يعبر عن حال المصريين الدائم مع فراعنتهم الذين ينكلون بهم ويستعبدونهم على الدوام، ويزجون بهم فى السجون لأتفه الأسباب، وهو ما كان يتكرر حدوثه أيام المماليك والترك بسبب الضرائب الظالمة والديون الباطلة، وهو ما يتكرر حدوثه اليوم أيضاً للأسباب السابقة، وبسبب قانون الطوارئ المعمول به منذ اغتيال السادات والذى يتيح لرجال الأمن إعتقال المواطن لمجرد الاشتباه، ذلك القانون الذى برر لهم زيادة البطش بالناس وإلقائهم فى السجون وتعذيبهم ..

وهذا المثل يلقى الضوء على أولئك الذين لا شأن لهم بالسياسة ولا بأهلها من المصريين البسطاء، ومع ذلك يتم القبض عليهم وزجهم فى السجون والمعتقلات بتهمة النشاط السياسى المعادى للحكم، وهم الذين ضرب بهم المثل القائل: **بتوع اتوبيس** ..

والأتوبيس يقصد به الحافلة العامة التى تقل الركاب والتى قبض فيها على بعض الركاب الذين تهربوا من دفع الأجرة، وفى الحبس وضعوا من باب الخطأ مع مجموعة من

الشيوعيين واعتبرهم رجال الأمن منهم، وعندما كان يحقق معهم يقولون: إحنا بتوع الأتوبيس، وقد تم تحويل هذه القصة إلى فيلم سينمائى باسم: إحنا بتوع الأتوبيس ..

وآخر هذه الأمثال يضرب للعاهرات اللاتى يمارسن الدعارة مع كل الأجناس، وهن على استعداد لممارسة الزنى مع اليهود والنصارى ولا تمكين أنفسهن من أولاد حاراتهن، وهو إشارة إلى نفرة هؤلاء النسوة من أهل حاراتهن وعدم التجانس معهم ..

ومجموع الأمثال التى عرضناها تعرض لشرائح مختلفة من المجتمع المصرى، وتكشف لنا من جانب آخر جوانب سلبية وخطيرة فى الشخصية المصرية، إلا أن مجمل ما تؤكده هو انعدام التجانس بين المصريين ..

وهناك العديد من الأمثال التى ترتبط بعلاقة المصرى بالحاكم سوف نستعرضها عند الحديث عن الحاكم..

المعتقدات الثلاث

والشخصية المصرية تتبنى ثلاث معتقدات تقوم على أساسها مواقفها تجاه ما يواجهها من أحداث وقضايا ..

المعتقد الأول: **انا مالى..**

والثانى: **معلهش..**

والثالث: إشمعنى..

وتعد هذه المعتقدات السبب المباشر فى ضياع الشخصية المصرية وتهلهلها، كما تعد أساس معاناة المصريين وتخلفهم..

فالمعتقد الأول جعل الشخصية المصرية غير مبالية بما يجرى حولها، وأنه لايخصها فى شىء طالما هى سالمة لا يلحق بها أذى على مستوى ذاتها أو أسرتها، وهذا المعتقد يشبه المعتقد القائل: نفسى أوالطوفان..

وهذا التصور قد ولد النزعة الأنانية لدى المصريين وجعلهم أكثر تشبثاً بأنفسهم..

واليوم ترى المصرى لو وجد جريحاً ينزف فى الطريق لتركه وولى وهو يقول: أنا مالى..

وقد ساهمت السلطة الحاكمة عبر التاريخ فى تقوية هذه النزعة الأنانية لدى المصريين عن طريق الكثير من المواقف والممارسات التى تتخذها من الذين يخالفون هذه القاعدة، فالذى

يحاول مثلاً أن ينقذ هذا الجريح فإنه يضع نفسه فى دائرة الشبهة، إذ يتم القبض عليه والتحقيق معه بتهمة محاولة قتل هذا الجريح، وهو حسب التعبير المصرى يدخل نفسه فى سين وجيم..

ومن أجل النجاة من فتنة السين والجيم وما يلحق بها من متاعب وربما إهانات فإن الفرد المصرى يمشى فى الطريق وكأنه لا يرى شيئاً ..

ومنذ فترة قام بعض الصحفيين التابعين لصحيفة معارضة بتجربة عملية فى الطريق العام بأن جاؤا بزميل لهم ولطخوا ثيابه بلون الدم ووضعوه على الرصيف حيث أخذ يصرخ فى المارة طالباً النجدة فكانوا يفرون منه ولم يبالى به أحد ..

أما معلهش فهى كلمة ملخصة لجملة: ما عليه شىء، فحرفها العامة إلى هذه الكلمة وصاروا يستخدمونها فى مواجهة كل حدث وأسرفوا فى استخدامها حتى شكلت استفزازاً كبيراً لكل من يتعامل مع الشخصية المصرية..

ومن الممكن أن يتعارك اثنان فى الطريق ويصيب أحدهما الآخر فيفقأ عينه مثلاً، فيأتى أحد المارة متدخلاً محاولاً فض الاشتباك بقوله: معلهش ..

واستخدام كلمة معلهش إنما هو فى محيط تطييب الخواطر، وفض المنازعات التى تحتاج إلى حسم بصورة أخرى تنفى الضرر الذى وقع على الضحية، وترد له حقوقه المغصوبة أو كرامته المهدورة..

ومثل هذه الكلمة إنما تدل على انهزامية الشخصية المصرية وتسيبها، وهى تتخذ ستاراً من قبل المصريين لمداراة عجزهم عن حسم أمورهم بصورة إيجابية ..

وفيما يتعلق بمعتقد: إشمعنى، وهى كلمة تعنى لماذا وملخصة لجملة إيش معنى أو أى شئ المعنى، فهى تعبر عن غيرة المصريين من بعضهم ومحاولتهم التساوى مع الآخرين ممن هم أرقى منهم حالاً وأوسع منهم رزقًا ..

وهذه الكلمة تتردد كثيراً على لسان النساء خاصة المتزوجات منهن ..

ومثل هذا المعتقد إنما يدل على عدم القناعة والحسد للغير..

ومن الواضح أن هذا المعتقد إنما يضع الأسرة المصرية فى أزمة ويوقعها فى الضيق، ويدفع برب الأسرة إلى الانحراف من أجل الحصول على الما ل كى يلبى طلبات أسرته،

ويدفع بالفتاة إلى الإنحراف أيضاً كى تتمكن من مجاراة زميلاتها فى الجامعة أو العمل أو الحى..

ولم تنحصر الأمثال المصرية فى الحدود الإجتماعية فقط بل امتدت إلى حدود الدين والأنبياء وأصحاب الملل الأخرى خاصة اليهود، وأبرزت لنا موقف المصريين من صور النصب والتلاعب بالدين..

ومن هذه الأمثال:

- ساعه لقلبك وساعه لربك..

- سيدنا موسى مات ناشف طرى هات..

- شرع الله عند غيرك..

- اللى فينا فينا ولو حجينا وجينا..

- يصلى الفرض وينقب الأرض..

- يفتى على الإبره ويبلع المدره..

- ضلالى وعامل إمام والله حرام..

ومن الأمثلة الخاصة باليهود:

- احتاجوا ليهودى قال اليوم عيدى..

- زى فقراء اليهود لا دنيا ولا آخره..

- زى ترب اليهود بياض على قلة رحمه..

- زى قبور الكفار من فوق جنينه ومن تحت نار..

- زى قراية اليهود تلتينها كدب..

- زى اليهود وش نظيف وجبه زى الكنيف..

والكنيف يقصد به دورة المياه، والمقصود أن جبة اليهودى عفنة كريهة الرائحة..

ومن الأمثلة الخاصة بالمسيحيين:

- قبطى بلا مكر شجره بلا طرح..

- الى ياكل عيش النصرانى يضرب بسيفه..

- يا كنيسة الرب اللى فى القلب فى القلب..

- شوبش يا حنا حط النقوط يا ميخائيل..

- الكنيسه تعرف اهلها..

ولا شك أنه هناك العديد من الأمثلة الأخرى التى أسهمت فى تشكيل وصياغة الشخصية المصرية لا يتسع المجال لذكرها هنا إلا أنه سوف يتم عرض نماذج منها من خلال الفصول القادمة ..



الحكام

3 من حكم مصر ملكها..



القارئ لتاريخ مصر يتبين له أن حكامها كانوا يتصرفون فيها وكأنها إقطاعية ورثوها عن الآباء، وسلوك الحكام هذا تولد من انعدام رد الفعل من قبل الشعب الذى يتسلح باللامبالاة أمام الحاكم ..

واستغلال مصر ونهبها واستعباد شعبها من قبل حكامها لم يقتصر على حكومات الفراعنة أو الفرس أو الرومان أو البطالمة، بل امتد أيضاً الى الحكومات العربية والإسلامية..

شـــهادة التاريـــخ

قال الحموى فى معجم البلدان عن مصر: **جبى عمرو بن العاص مصر لعمر بن الخطاب إثنى عشر ألف ألف دينار..**

فقال عثمان لعمرو: يا أبا عبد الله أعلمت أن اللقحة بعدك درت..؟

فقال عمرو: نعم ولكنها أجاعت أولادها ..

وقال لنا أبو حزم: إن هذا الذى رفعه عمرو بن العاص وابن أبى السرح إنما كان عن الجماجم خاصة دون الخراج وغيره ..

وروى ابن تغرى فى النجوم الزاهرة حوادث عام 90هـ فى ذكر ولاية قرة بن شريك على مصر من قبل الوليد بن عبد الملك فيما نقله عن صاحب كتاب (مرآة الزمان): **كان قرة من أمراء بنى أمية وولاه الوليد على مصر، وكان سئ التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً، قدم مصر سنة تسع وثمانين أو سنة تسعين، وكان الوليد عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وولى قرة وأمره ببناء جامع مصر والزيادة فيه سنة اثنتين وتسعين فأقام فى بنائه سنتين، وكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا ـ أى قرة ـ بالخمور والزمور والطبول فيشرب الخمر فى المسجد طوال الليل، ويقول: لنا الليل ولهم النهار، وكان أشر خلق الله..**

وروى فى حوادث عام 96هـ فى ذكر ولاية عبد الملك بن رفاعة الأولى على مصر، وكان المتولى على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخى ونقل عن الكندى قوله: كتب سليمان بن عبد الملك إلى أسامة: احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم، قال: فذلك أول شدة دخلت على أهل مصر ..

ويروى ابن بطوطة فى رحلته: ان احد خلفاء بنى العباس غضب على أهل مصر فقرر ان يولى عليهم أحقر عبيده، واصغرهم شأناً قصداً لإذلالهم والتنكيل بهم، وكان عبده خصيب من أحقر عبيده إذ كان يتولى تسخين الحمام، فخلع عليه وامره على مصر ..

وذكر ابن تغرى فى حوادث عام 255هـ أن أحمد بن طولو ن قد أنفق على بناء مسجده مائة الف دينار وعشرين ألف ..

ونظراً لكثرة مماليكه وعبيده قرر أن يبنى لهم مدينة خاصة سميت بالقطائع بنيت على قبور اليهود والنصارى بعد أن تم حرثها ..

وحين مرض وأحس بالنهاية استدعى الأطباء وقال لهم: والله لئن لم تحسنوا فى تدبيركم لأضربن أعناقكم قبل موتى ..

ولما اشتد مرضه خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود والنصارى بالتوراة والأنجيل، والمعلمون بالصبيان إلى الصحراء ودعوا له ..

وفى حوادث عام 270هـ ذكر أن مصروف مطبخ خمارويه ولده بلغ ثلاثة وعشرين الف دينار كل شهر، وهذا سوى مصروف حرمه وجواريه..

وكان خمارويه قد أنفق فى جهاز إبنته قطر الندى لما زوجها للخليفة المعتضد جميع ما كان فى خزائنه، وكان الاحتفال بهذا الزواج أسطورياً تحدثت به كتب التاريخ، وأصبح من موروثات التراث الشعبى المصرى وتغنت به الإذاعة المصرية ..

وذكر فى حوادث عام 134هـ عن المنطقة التى اختارها ابن طولون فيما بعد لبناء مسجده وقصوره والتى كانت تقع فيها بركة قارون: أن كافور الإخشيدى بنى على هذه البركة داراً صرف عليها مائة الف دينار وسكنها ..

وفى حوادث عام 297هـ ذكر أن والى مصر تكين الحربى أرسل فى عام 299هـ للخليفة المقتدر بالله العباسى هدايا وتحف وخمسمائة الف دينار ..

ويروى الحموى عن رسالة أرسلت إلى هارون الرشيد عن مصر جاء فيها:

مصر خزانة أمير المؤمنين التى يحمل عليها مؤن ثغوره وأطرافه، ويقوت بها عامة جنده ورعيته ..

ويروى أن مقدار الخراج الذى جباه جوهر الصقلى حين دخل مصر فى عام 358هـ بلغ **مليوناً ومائتى الف دينار ..**

ولقد أسرف الفاطميون كثيراً فى الإنفاق على المواسم والمواكب والأعياد التى كانت تنفق عليها الأموال الطائلة من خزينة الدولة ..

وذكر ابن إياس فى بدائع الزهور حوادث عام 589هـ عام وفاة صلاح الدين وتولى ولده العزيز بالله على مصر: **فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق، وجلس على سرير الملك لم يمش على طريقة والده، وسار مع الناس فى مصر أقبح سيرة، فأعاد المكوس التى كان ابطلها أبوه، وزاد فى شناعتها، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره، وحملت أوانى الخمر جهاراً من غير إنكار، وحميت بيوت المزارة - الدعارة - وأماكن الحشيش، وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى، وأقيمت عليهم الضرائب الثقيلة حتى صار يؤخذ من أرباب هذه الجهات فى كل يوم ستة عشر دينار حماية للسلطان، ولم يقدر أحد أن يعارض أماكن الفسوق فى أيامه، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ..**

وذكر فى حوادث عام 753هـ قصة الوزير الصاحب علاء الدين بن زنبور وأمواله الطائلة التى تم ضبطها بعد أن غضب عليه السلطان صلاح الدين بن قلاوون: **وكان قد عظم أمره ونمت أمواله واجتمع فيه من الوظائف السنية ما لم يجتمع فى غيره، فكان وزيراً وناظرالجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريف، فتعاظم على الناس بقوة البأس، فلما قبض عليه السلطان ضربه ضرباً شديداً، وقيده ونفاه إلى قوص واحتاط على موجوده من صامت وناطق ..**

هذا مع الإشارة إلى ما فعلته آخر هذه الحكومات وهى الحكومة العثمانية التركية التى نهبت مصر لقرون عديدة حتى الصناع والحرفيين المهرة صادرتهم لنفسها وحرمت وطنهم منهم وحرمتهم من ذويهم..

وهذه أمثلة بسيطة من آلاف الأمثلة التى تكتظ بها كتب التاريخ عن عمليات السلب والنهب لثروات مصر واستعباد شعبها من قبل حكام العصر الإسلامى الذى تفتخر به التيارات الإسلامية وتحلم بعودته..

من هنا فإن أحداً من هؤلاء الحكام لم يكن يفكر فى تربية هذا الشعب والاهتمام به، بل كان تركيزهم على نهب ثروات مصر وتثبيت كرسى الحكم ..

والحكومة الوحيدة التى انتفعت منها مصر طوال الحكم الإسلامى هى حكومة الفاطميين، وقبل الفاطميين كانت ثرواتها تذهب إلى خزائن الخلفاء فى دمشق وبغداد..

وكانت مصر تابعة لدمشق وبغداد فأصبحت متبوعة تتبعها دمشق وبلاد أخرى ولها عاصمتها وهى القاهرة..

وتحولت مصر على يد الفاطميين إلى قوة ومركز مؤثر ومنافس لدولة الخلافة فى بغداد بعد أن سلب منها هذا الدور لقرون عديدة..

وكان جزاء الفاطميين هو السب واللعن والتشويه على يد ساسة بنى أيوب الأكراد الذين أطاحوا بالفاطميين وحولوا مصر تابعة لدمشق، وعلى يد الفقهاء والمؤرخين المتعصبين..

ولم يكن للفاطميين من ذنب سوى أنهم شيعة ..

كذلك إنتفعت مصر من محمد على وأسرته وكان جزاؤه وأسرته اللعن والتشويه من قبل ضباط يوليو..

وتاريخ مصر يؤكد أنه لم يحدث أن تنازل حاكم عنها وتخلى عن السلطة فيها طواعية إلا أن يموت أو يقتل، وحالات اغتيال الحكام تكاد تكون نادرة جداً وهى إن وقعت فإنها تقع بأيد غير مصرية كما هو حال سليمان الحلبى قاتل كليبر خليفة نابليون..

والمصريون طوال تاريخهم يصفقون للحكام الذين يمتصون دمائهم وينهبون أموالهم، فقد صفقوا لسحرة فرعون فى البداية ثم صفقوا لفرعون فى النهاية، وهم يصفقون لكل فرعون كما يصفقون لأم كلثوم ولاعبى الكرة..

التلــون

ومن الأمور الملفتة تلون المصريين مع الحكام من الخلفاء إلى السلاطين إلى الملوك إلى الرؤساء، فكأنه تنطبق عليهم مقولة أحد السياسيين من العصر الملكى الذى وجد الناس يصفقون له فقال ساخراً: **اهلاً بمن يصفقون لكل حكومة..**

والتلون تجاه الحكام تجسمه لنا العديد من الأمثال التى توارثها المصريون وفى مقدمتها الأمثال السائدة التالية:

- أرقص للقرد فى دولته..
- إن راح الفرعون ييجى غيره ..
- البلد إلى تعبد العجل حش وارميله ..
- إللى يجوز امى اقوله يا عمى..
- إللى يجوز ستى أقوله ياسيدى..
- حكم قراقوش..
- اتوصو علينا ياللى حكمتو جديد إحنا عبيدكم وانتم علينا سيد ..
- زى كرابيج الحاكم إللى يفوتك أحسن من اللى يحصلك..
- سيف السلطنة طويل..
- السلطان مع هيبته ينشتم فى غيبته..
- الشكوى لغير الله مذله..
- ضرب الحاكم شرف..

والمثل الأول يدل دلالة واضحة على تلون المصريين مع الحاكم واستعدادهم الدائم للتعايش معه ولو كان قرداً..

والمثل الثانى يشير إلى حالة الإحباط واليأس التى تتسلط على المصريين وتجعلهم يفقدون الثقة بحكامهم، ويعتقدون بفساد السابق واللاحق منهم أيضاً على الرغم من كونهم لم يجربوه بعد..

وهذا الإعتقاد ناتج من معاناتهم الطويلة والمريرة مع كل حاكم حكم مصر والذى ما أن يصل إلى السلطة حتى يتحول لفرعون جديد..

من هنا فإن المصرى لا يفرح كثيراً بذهاب الفرعون الحاكم لاعتقاده أن القادم مكانه سوف يكون صورة طبق الأصل منه، وقد ولد هذا المعتقد لدى المصريين قناعة بأن الفرعون القائم هو خير وأصلح من القادم مكانه ذلك لأن القائم قد عرفوه واعتادوا على مظالمه، أما القادم فهو مجهول وقد تكون مظالمه أكبر..

وهـذا المثل يشير أيضاً إلى أن كل من يـحكم مصر لابد وأن يتفـرعن، فالذاهب فرعون والقادم فرعون أيضاً ..

أما مثل العجل فهو من موروثات العصر الفرعونى حين عبد الفراعنة عجل أبيس وأجبروا المصريـين على عبـادته، وهو يشيـر فى دلالة قاطعـة إلى قابلـية المصريـين للتلـون والانصياع للـحاكـم مهما كـان لونه ومـعتـقده، بل إن الـذى يخـالف هذه الـقاعـدة يـعد غـريبـاً وشـاذاً فى منطورهم..

وهذا الـتصـور سهـل للـحاكم صب الـشعب المـصـرى فى القـالب الذى يـريد، أو بـصـورة أخرى سـهل له تحويلهم لعبيد له..

وأذكر عـندمـا تم الـتحفظ علىَّ بقـرارات سبـتمـبر عـام(1981م) قبـيل مصـرع السـادات بشـهر تم التـحقيق معى من قـبل المدعى الاشتـراكى، وكان بصـحبتى أثناء الـذهاب إلى مكتب التحقيق حراسة تتكون من ضـابط عبيط وشـاويش ريفى سـاذج..

الضـابط كان يـرجع سـبب انتـشار الـجماعـات الإسلامـية إلى الـكبت الـعاطفى فـعنـاصر الجماعات فى نظره شباب فشل فى إقامة علاقة غرامية مع بنت الجيران..

أما الشـاويش فقد هـمس فى أذنى قائلاً: أنتـو مالكو ومـال الحكومه، دى الـبلد إللى بـتعبد العجل حش وارميله ..

وكان من المفروض على أن أسهم فى إطعام العجل الذى تعبده البلد بأن أحش – أى أقتطع مـا يمـكن من الـحشـائش وأقـدمـهـا له – حتى يـرضـى عـنى هـذا الـشـاويش وأمـثـاله من عـبدة العجل..

والمسـاهمـة فى إطعـام العـجل يعـنى الرضـا والقـبول بـالوضـع الـقائم والـفرعـون الحاكم والقبول بالعبودية له ..

ومثل الأم والـجدة هو امتداد لـلذى قبله وتـأكيداً له وهو يعنى أن كل من حكم وملك أصبح سـيداً مطـاعاً، فهو كـمن نكح الأم فأصـبح فى مقام العم، وكـمن نكح الجدة فـأصبح فى مقام الجد..

وهـذا المثل يـدعوا إلى سـياسـة الأمـر الواقـع والـتسـليم لـلفـرعون الـذى و صل إلى كرسـى الحكم و جلس عليه..

أما المثل المتعلق بقراقوش عبد صلاح الدين الذى سلمه حكم مصر بعد أن تم القضاء على الفاطميين فيكشف لنا استخفافه بمصر والمصريين ..

وتسليم مصر لمثل هذه الشخصية المجنونة التى أذاقت المصريين صنوف العذاب، كان الهدف منه القضاء على كل صور المقاومة بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة ..

وقراقوش هذا مارس أغرب وأبشع صور الظلم والاستبداد والبطش والتنكيل حتى ضرب به المثل..

وأقصى ما فعله المصريون فى مواجهة ظلمه واستبداده هو أنهم ضربوا به المثل، الذى لم يقتصر استخدامه فى محيط السياسة فقط، بل امتد إلى الأسر أيضاً حيث تصرخ المرأة المصرية فى وجه زوجها الضائقة به قائلة: **هو حكم قراقوش** ..

وقام أحدهم بتأليف كتاب أسماه: **الفاشوش فى حكم قراقوش**..

وصلاح الدين كان قد قسم قبل رحيله أملاك الأسرة الفاطمية والإقطاعيات فى مصر على أقاربه وأعوانه من الكرد الذين جاءوا معه من الشام ..

والأمثال الأخرى تترجم لنا حالة الخنوع والمذلة وقبول العبودية للحاكم ومحاولة تبرير هذا الوضع والاقتناع به..

ومثل السلطان الذى يشتم فى غيبته يكشف لنا السنة الثابتة للمصريين تجاه حكامهم وهى السنة التى يتمسكون بها حتى اليوم، حيث نسمع صور السب واللعن للفرعون الحالى على لسان جميع طبقات الشعب دون أن يسمعها هو بالطبع، مع الإشارة هنا إلى أن هناك تقارير تشير إلى وصول هذه الشتائم إليه، وهى إن كانت صحيحة فلن تغنى ولا تسمن من جوع مع شخصية بليدة الحس كشخصيته..

ونظراً لكون المصريين يتلحفون دائماً بالدين ويستخدمونه كغطاء يسترون به مساوئهم وسلبياتهم فقد اعتبروا أن الشكوى لا تكون إلا لله كوسيلة للهروب من شكوى الحاكم وتحمل تبعات هذه الشكوى..

وحين قال سعد زغلول كلمته الشهيرة وقت وفاته: **ما فيش فايده** تشبث بها المصريون وجعلوها مثلاً برروا به موقفهم السلبى من الحكام ..

أما المثل الذى يقول ضرب الحاكم شرف فيعد طامة كبرى فى جبين المصريين..

النكتـــة السياســـية:

وفى مواجهة ظلم واستبداد الحكام أطلق المصريون العديد من النكات فيهم، تلك النكات التى تعبر عن موقفهم ورأيهم وغضبهم أيضاً ..

ولا يمكن لنا رصد جميع النكات التى أطلقت على الحكام طوال العصور الماضية، إلا أنه من الممكن رصد العديد مما أطلق منها فى فترة العصر الجمهورى على عبد الناصر والسادات والفرعون الحالى ..

وحركة عبدالناصر لم تكن سوى انقلاب تم بالاتفاق والتنسيق مع الأمريكان، فمن ثم فإن حركته لا تستحق أن تسمى ثورة لأنه ببساطة لا تحدث ثورات فى مصر، ولا يعقل أن حركته بأسلحتها المحدودة والضعيفة والتى كانت مكشوفة للملك والإنجليز يمكن لها أن تقضى على القوات البريطانية التى كانت لا تزال تحتل مصر..

وعلى الرغم من ذلك كان الإعلام المصرى يصور على الدوام أن المصريين كانوا يعشقونه، إلا أن الراقع رصد لنا مجموعة من النكات التى تشير إلى غير ذلك..

وأول هذه النكات نكتة تقول: **ان عبد الناصر اراد ان يعرف مدى حب الشعب له فارتدى جلباباً ووضع على رأسه طاقية وستر وجهه ونزل إلى الشارع، ثم رأى أنه ليس من الممكن سؤال الناس فى الطريق فقد لا يصدقونه القول، فقرر دخول السينما فإذ بصورته تبرز على الشاشة فأخذ الجميع يصفق بحرارة بينما عبد الناصر لا يصفق، ولما لمحه جاره دفعه بكتفه وهو يقول بصوت منخفض: صفق لتروح فى داهية ..**

وكان الجمهور المصرى يعلق على قول عبد الناصر: أرفع رأسك يا أخى، بقوله: **ارفع رأسك عشان نقطعها لك ..**

والحق أنه منذ عصر عبد الناصر وحتى اليوم لم يستطع المواطن المصرى أن يرفع رأسه حتى اعتاد على هذا الحال، وأصبح المألوف هو أن تخفض رأسك خاصة أمام رجال الشرطة والشاذ هو أن ترفعها ..

ولو قدر لمواطن أن يرفع رأسه أمام ضابط شرطة فالويل له ولمن معه، وقد عانيت كثيرًا بسبب هذا الأمر ليس بسبب رفع رأسى أمام رجال الشرطة فقط، بل رفعه أيضاً أمام الشعب الذى اعتبر هذا صورة من صور الاستعلاء والتكبر المرفوضه..

ورفع عبد الناصر شعاراً يقول:«كفاية وعدل» وحدث أن اختفى الأرز من الأسواق، فتصادف أن اشترى أحدهم كرنبة ليصنع من ورقها محشى أرز وصعد بها الترام فقال له أحد الركاب مستغرباً: **بماذا سوف تحشوها ؟**

فأجابه قائلاً: **احشوها كفايه وعدل ..**

والبعض يعتبر هذه النكتة حقيقة وقد ختمت بالقبض على صاحب الكرنبه حيث تبين أن الذى سأله كان من رجال المخابرات..

وعبد الناصر كان كغيره من الحكام الذين ضحوا بمصر وشعبها من أجل كرسى الحكم، فمن ثم كان فرعوناً ولكن من نوع مختلف، إذ تمكن من سلب إرادة الشعب ودفعه إلى عبادته دون أن يدرى..

والحق أن عبد الناصر كان بلا سلطة حقيقية فقد كان يقاسمه السلطة عبد الحكيم عامر قائد الجيش، الذى كان بإمكانه أن يطيح بعبد الناصر فى أى وقت أراد وقد ترك له أمور السياسة بعيداً عن الجيش ..

وكان عامر زئر نساء معروف وعسكرياً فاشلاً لم يتحقق على يديه أى نصر ويعد هو السبب المباشر فى فشل الوحدة مع سوريا وكذلك الفشل فى اليمن ..

ولم يدفع ذلك كله بعبد الناصر إلى تغييره أو الخلاص منه خوفاً منه حتى وقعت الهزيمة الكبرى فى الخامس من يونيو (حزيران) عام 1967م ..

ونتج عن هذه الهزيمة أن وقع الصدام بين شريكى السلطة، وتحركت قوات عامر لتحاصر بيت عبد الناصر بقيادة على شفيق مدير مكتب عامر، وتحذره من القيام بأى عمل ضده بواسطة سلاح الطيران الذى كان موالياً لعبد الناصر وهددت بتدمير البيت عليه..

وتراجع عبد الناصر عن تهديداته لعامر خوفاً على نفسه وأسرته، وانتهى الصدام بقتل عامر حسبما أعلنت عائلته، أو انتحاره حسبما أعلنت الحكومة..

وحين أعلن عبد الناصر تنحيه عن السلطة وإقراره بالهزيمة، اندفع الشعب المغيب إلى الطرقات رافضاً تنحيه مطالباً ببقائه فى السلطة، وكان من الأجدر بعد أن أضاع البلاد أن يطالب بتقديمه للمحاكمة..

والجدير بالذكر هنا أن عامر كان متزوجاً من الممثلة نفيسه عبد الحميد المعروفة ببرلنتى عبد الحميد، وشفيق كان متزوجاً من المطربة مها صبرى..

وهناك نكتة صادرة عن جماعة الإخوان تقول: أن عبد الناصر ذهب إلى الحج بعد أن حاكم الإخوان وأعدم منهم من أعدم، وتعلق بأستار الكعبة وأخذ يبكى فى حرقة طالباً المغفرة، فلمحه واحد من الحجاج الإخوان فقال له:

خفف عن نفسك إن الله يقبل التوبة عن عباده وهو الغفور الرحيم..

فقال له عبد الناصر: إنك لا تعرف ما هو ذنبى ؟

فقال له الحاج: مهما يكن ذنبك فإن الله يغفر الذنوب جميعاً ..

فعرفه عبد الناصر بنفسه، ففر الحاج من أمامه مذعوراً وهو يصيح قائلاً:

مالك توبة مالك توبة..

أما النكات التى أطلقت فى السادات فمنها نكتة تتعلق بعلامة الصلاة التى كانت بارزة فى جبهته، حيث شكك المصريون فى كونها من أثر الصلاة، وإنما هى ناتجة من عبد الناصر الذى كان يضربه عليها كلما حاول الكلام قائلاً له: اسكت..

ونكتة أخرى تقول: أن الحمير تظاهرت وأحاطت بقصر السادات، فطل عليهم من النافذة قائلاً: أبعتولى واحد يمثلكم، فانتخب الحمير حماراً منهم ليعرض عليه مطالبهم، وحدث ان دخل الحمار القصر وغاب، فهاجت الحمير وأخذت فى النهيق ظناً منها أن مندوبها قد تم اعتقاله، فطل عليهم المندوب من نافذة القصر وقال للحمير: الصبر أنا لسه بافهمه..

وكانت جيهان زوجته بلا مؤهلات فقررت أن تدرس من جديد، وبعد فترة أعلن حصولها على درجة الليسانس، فصعد الشيخ حافظ سلامة المنبر فى صلاة الجمعة بمدينة السويس مركز نشاطه وقال ساخراً: الست جى جى أخدت الإعدادية والثانوية والليسانس فى أسبوع، فقبض عليه ضمن المتحفظ عليهم بقرارات سبتمبرعام ١٩٨١م..

وكان السادات قد سماه: مجنون السويس..

والسادات أظهر قدرة فائقة على التلون والعمل لحساب عدة جهات فى وقت واحد، حيث عمل لحساب الإنجليز والقصر وضباط يوليو معاً..

وكما يروى السادات فى مذكراته التى أسماها: (البحث عن الذات) أو البحث عن اللذات كما يتهكم عليه البعض، أنه كان فلاحاً ساذجاً وماكراً فر من قاعة العرض السينمائى حين

رأى القطار قادماً نحوه، وليس معروفاً السبب الحقيقى وراء احتفاظ عبدالناصر به على الرغم من كونه غير نافع وتحيط به الشبهات، وقد افتعل حادثة ليلة إنقلاب يوليو ليضمن لنفسه الأمان فى حالة إذا ما فشل الانقلاب، بأن اصطحب زوجته إلى السينما، وافتعل معركة داخلها ليذهب إلى قسم الشرطة ويثبت فى المحضر الرسمى وجوده هناك ساعة الإنقلاب..

وقد حمل السادات الكثير من العقد أفرغها جميعها حين وصل إلى السلطة، وكان شعوره الدائم بالدونية هو الذى دفع به إلى التمسح بالملوك وشاه إيران على وجه الخصوص...

وكان السادات وقت أن أعلن غضبته الكبرى فى سبتمبر عام 81 وقرر تصفية المعارضة وإغلاق الصحف والقبض على الكُتاب والصحفيين ورجال الدين الإسلامى والمسيحى وكان قد ابتلع قطعة من الأفيون جعلته شبه غائب عن الوعى وغير متزن ويصدر قراراته وهو قابع هناك في بلدته «ميت أبوالكوم» بالمنوفية، ويقوم وزير الداخلية النبوى إسماعيل «هامان» برحلات مكوكية من القاهرة لـ «ميت أبوالكوم» لتقديم التقارير الأمنية حول هذه الاعتقالات..

والنبوى إسماعيل كان ضابطاً سفيهاً ووالده كان يعمل «تربياً» أى دافن موتى وقد تم تصعيده على حساب زوجته المطربة «فايدة كامل» التى كانت عضواً بمجلس الشعب واستقبلت السادات وهو داخل المجلس بأغنية تقول: «ياسادات ياحبيبنا»، بينما أعضاء المجلس يرددون من ورائها الأغنية..

والخوض فى تفاصيل وأحوال الحكام السابقين لا يهم كثيراً الآن، وإن كان الكثير من المصريين يحلو له الخوض فى سيرتهم، من باب تفريغ شحنة الغضب الكامنة داخل نفوسهم، والتى لا يمكنهم إفراغها فى حياة هذا الحاكم ..

ومن أعظم ذنوب السادات المصيبة الكبرى التى ابتلى بها مصروالجناية العظمى التى ارتكبها فى حقها بفتحه الطريق أمام العجل الحالى ليلى أمر مصر كما سوف نبين ..



العجل

4 لا نائب ولا دستور..



كانت السنة التى سنها عبد الناصر بتمكين المؤسسة العسكرية من الحكم، وسيطرة الضباط على كل مرافق البلاد من مؤسسات ومصانع ومحافظات وأحياء ونوادى ووزارات، قد مهدت السبيل لوصول الفرعون الحالى إلى حكم مصر..

والفرعون الحالى أو العجل كما يطلق عليه أفراد الشعب كان تلميذاً بليداً، ولولا وساطة واحد من باشوات المنوفية كان يسعى إلى دعم أبناء بلدته، وهو عبد الرحمن باشا فهمى، ما تمكن مثل هذا البليد الذى ينتمى لعائلة فقيرة من دخول الكلية الحربية والانتماء لطبقة الضباط..

ولم يكن له فى ميدان العمل أى شئ يذكر، فقد كان مجرد ضابط يتلقى الأوامر من مرؤسيه وينفذها، فلم يعرف عنه أى نبوغ أو تميز فى عمله..

وفور أن انتقل من شقته الصغيرة فى حى مصر الجديدة إلى قصر العروبة الذى منحه له السادات بعد أن عينه نائباً له، قام على الفور بهدم القصر من الداخل وتجديده بالكامل - على حساب الدولة بالطبع - فلم يرض ابن الفلاح بهذا المستوى الذى عليه القصر الذى لم يكن أحد من أجداده يجرؤ على المرور من جواره فى العصر الملكى..

وقد حاز هذا العجل المستخف به من قبل الشعب على النصيب الأكبر من النكات منذ أن كان نائباً للسادات وحتى الآن ..

وأذكر أن الطلبة كانوا يطلقون عليه فى السبعينيات اسم جبن فرنسى برز بالسوق المصرى آنذاك وهو (**لافاش كيرى**) أى البقرة الضاحكة..

وكانت هناك ثلاث مسرحيات (كوميدية) اشتهرت فى تلك الفترة وهى:

شاهد ما شافش حاجه ..

يا حلوه ما تلعبيش بالكبريت ..

انتهى الدرس ياغبى ..

فأطلقت المسرحية الأولى على السادات، وأطلقت الثانية على جيهان زوجته، وأطلقت الثالثة على الفرعون الحالى ..

وحين وصل إلى الحكم برزت نكتة تقول: **ان الديكة والكلاب والحمير قررت الهجرة من مصر، فلما سمع بخبرهم قرر أن ينتظرهم على الحدود، ولما برز الديكة يتقدمهم كبيرهم سأله: لماذا تريدون ترك مصر ؟**

فأجابه الديك الكبير: كنا فيما سبق نؤذن للصلاة فيخرج الناس أفواجاً، أما اليوم فنحن نؤذن فلا يلبى النداء أحد فقررنا الهجرة الى بلد فيه إيمان..

ولما برزت الكلاب يتقدمهم كبيرهم سأله نفس السؤال، فأجابه بقوله: كنا فيما مضى نصيح فيفر اللصوص من أمامنا، أمااليوم فالبلد بقت كلها حراميه، ثم برزت الحمير وأمامها كبيرها الذى بادره قائلا: نحن وأنت لايسعنا بلداً واحداً ..

ولما كثر الكلام حول ولده علاء الذى أصبح من كبار الأثرياء برزت نكتة تقول: **أنه كان فى زيارة تفقدية للمصانع والشركات وكلما مر على مصنع أو شركة أخبروه أنها ملك لولده، فصاح فرحاً: كل ده من مصروفه..**

وعن ولده الثانى جمال الذى يعده للحكم برزت النكتة التالية: **أنه جمع رجال الدين المسلمين والمسيحيين وطلب منهم أن يباركوا ولده ويبايعوه، فكبر شيخ الأزهر ورجاله وأعلنوا مباركتهم وموافقتهم، أما شنودة بابا المسيحيين فقد انتفض واقفاً وهو يصيح فى غضب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فضج القساوسة وصاحوا فيه: لقد كفرت يا أبونا؟**

فأجابهم بقوله: ما هى حاجه تطلع الواحد من دينه، مش كفايه هو..

ومن شدة قرف المصريين من الفرعون الحالى كان كلما اشترى واحداً حذاءً جديدا قالوا **له: مبارك على الجزمة..**

وهناك نكتة تلخص موقف المصريين من العصور الجمهورية الثلاثة تقول:

واحد وكلنا المش وهو عبد الناصر ..

وواحد علمنا الغش وهو السادات ..

وواحد لا بيهش ولا بينش وهو الفرعون الحالى ..

أما المش الذى ربط بعهد عبد الناصر فهو تعبير عن حالة الفقر الشديد التى كان يعيشها الشعب فى ظل إشتراكيته، والمش هو ماء الجبن القديم المخزون فى إناء من الفخار يسمى (البلاص) وكان الطعام الأساس للفلاح المصرى طوال العصور السابقة، ومع طول تخزين هذا الجبن ينمو معه العديد من الديدان التى تظل ترعى فيه إلى أن يجف ماؤه..

وقد روى لنا الراحل الشيخ كشك حكاية عن أحد الباشوات فى العصر الملكى كان يتفقد أراضيه على حصانه ومعه حاشيته، فلفت نظره واحد من الفلاحين يتناول طعام الغذاء وهو عبارة عن صحن من المش الدود يلعب فيه الشطرنج - حسب تعبير كشك- وحبة بصل ورغيف جاف من الخبز وبجواره جرة من الفخار كان قد ملئها من قناة صغيرة إلى جواره يسميها المصريون (قله)..

وهنا توقف الباشا فى انتباه وهو يقول: الراجل ده حيموت فى خلال دقيقة واحدة..

وأخذ الباشا يرقب الفلاح وقد هوى بقبضته على حبة البصل فحطمها، ثم كسر قطعة من الخبز وغمسها فى المش ورفعها الى فمه وألحق بها قطعة من البصل، وانتظر الباشا طويلاً ولم يمت الفلاح إذ نهض بقوة بعد أن انتهى من طعامه وهو يمط ذراعيه مفرغاً جرعة الهواء داخله بلحن مميز قائلاً بصوت عال: الحمد لله ..

ولم يستطع الباشا الصبر أكثر من هذا إذ فر من المكان مسرعاً وهو يقول: الظاهر إنى أنا إللى حاموت بعد دقيقه ..

أما الغش فيعنى أن عصر السادات قد ساده الفساد وأصبح لم يعد فيه مكان للصالح والأمين بحيث أن الشعب أطلق عليه مقولة: **اللى ماعرفش يسرق فى عصر السادات مش حيعرف يسرق بعد كده ..**

ونتيجة لانتشار الفساد فى عصره خرج على الناس يقول:**ما أمريكا فيها فساد..**

ولقد غش السادات الشعب حين رفع شعار **(دولة العلم والإيمان)** وهو لا صلة له بالعلم ولا بالإيمان، ولم يكن لهما أى أثر على ساحة الواقع..

وغشه أيضاً حين أعلن عودة الأحزاب والحريات ثم أعلن غضبته على الجميع وقرر تصفيتهم قبيل اغتياله ..

وغشه أيضاً حين أعلن أنه سوف يحقق الرخاء ولم يتحقق من ذلك شىء..

وغشه أيضاً حين أعلن هدم المعتقلات وتصفيتها بينما كان فى الحقيقة يبنى معتقلات جديدة ..

وفيما يتعلق بتعبير لا بيهش ولا بينش فيعنى أن الفرعون الحالى إنسان خائب لا يصلح لشىء..

ومثل هذه النكات إنما تعكس حالة من الوعى الشديد من قبل المصريين بحكامهم، إلا أن هذا الوعى لا يمكن أن يترجم فى خارج حدود الكلام الذى يتهامس سراً كما هو حال هذه النكات..

وكان السادات قد اختار الفرعون الحالى ليكون نائباً له فى فترة كانت مصر فيها غاصة بالكثير من العناصر القيادية التى لا يوزن أمامها بشئ..

ولا يعرف على وجه اليقين السبب المباشر وراء تصعيده السريع و اختياره وإن كان البعض يرجعه إلى دوره فى حرب أكتوبر وهو دور مشكوك فيه، كما يرجعه البعض إلى كشفه لخلية من الضباط المناوئين للسادات داخل سلاح الطيران ..

ولم يكن له دور يذكر فى حياة السادات، ولم يكن السادات يريد منه أكثر من إطاعة الأوامر ونقل الرسائل بينه وبين زعماء العالم، وقد سافر إلى إيران مرتين لنقل رسائل السادات إلى الشاه، وهو ما اعترف به بعد تسلمه السلطة أنه كان مجرد منفذ للأوامر..

وكان من المقدر له أن يكون فى عالم النسيان لولا اغتيال السادات، إذ كان من المقرر أن يلقى به السادات فى مستودع أصحاب المعاشات من المسئولين السابقين- وهم كثيرون بمصر، ويشكلون عبئاً كبيراً على ميزانيتها بما يتقاضونه من رواتب كبيرة ليسوا هم فى الأصل بحاجة لها، فمعظمهم قد اختطف ما يمكن اختطافه من المال العام قبل أن يترك وظيفته..

والسادات كان قد أعد قراراً بتنحيته من منصبه كنائب له بعد أن قام بترحيله من القاهرة إلى مكان عزله فيه مع أسرته..

ومصائب قوم عند قومٍ فوائد..

ونموذج هذا الفرعون إنما يكشف لنا مدى انهيار الشخصية المصرية التى أتاحت لمثله أن يصل إلى حكم مصر ويسلم له الجميع بذلك، فهو لم يكن يملك أية مؤهلات عقلية أو سياسية أو حتى خلقية تدفع إلى التعاطف معه ودعمه، فضلاً عن كونه ليس له وزن أو تاريخ فى مجال تخصصه وهو مجال الطيران، وما ينسب له من أنه صاحب الضربة الجوية الأولى فى حرب أكتوبر كذب واختلاق..

وحين وقع حادث الاغتيال كان صاحبنا من المختبئين أسفل المقاعد على الرغم من أن القتلة لم يكونوا يقصدونه، ولما انتهى الحادث وتم القبض على مرتكبيه أخرجوه من أسفل المقاعد، وكان فى حالة من الهلع والفزع الشديد لتصوره أن ما حدث كان محاولة لقلب نظام الحكم، وأنه واحد من أركان النظام السابق تم القبض عليه، وهو كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه لا فى التور ولا فى الطحين حسب المثل المصرى السائد، وأنه كما يقال: تور الله فى برسيمه ..

من هنا كان يصيح فى خوف قائلاً: **انا ماليش دعوه بحاجه، انا كنت بانفذ الأوامر**.. وإذ بالضباط الذين اقتادوه من ساحة العرض يأخذونه إلى القصر الجمهورى ليجهز نفسه لتسلم الحكم بدلاً من أن يلقوا به فى أقرب مقلب زباله..

وإذ به يصدر قراراً بإحالة هؤلاء الضباط إلى المعاش كى لا يرى وجوههم ولا يرون وجهه بعد ذلك..

والأمر الملفت أن قيادات مصر السياسية ورموز المعارضة - والتى كان السادات قد تحفظ عليها قبيل مصرعه - والقيادات العسكرية سلمت له بالأمر دون معارضة، بل وجلس أمامه الجميع فى خوف وخشوع، بينما هو فى الحقيقة لم يكن يصدق ما يحدث وكان خوفه منهم أكثر ..

وفى الفترة الأولى من حكمه لم يكن يتصور أنه سوف يمضى فترة أخرى فقد كان يتصور أن وصوله للحكم كان لظروف إستثنائية، وأنه سوف يطاح به حتماً، خاصة أنه لم يكن يوزن بشئ أمام كبار رجال الدولة وعلى رأسهم المشير أبو غزالة، وهو قد صرح أنه لن يبقى فى الحكم لفترة تالية..

إلا أن العجيب أن هؤلاء أفسحوا له الطريق بسهولة بالغة لم يكن هو يتصورها أو يصدقها..

وهكذا يصنع المصريون فراعنتهم بأيديهم ثم يلعنونهم..

وكان قد صرح أمام الرأى العام أنه لن يدع زوجته تسلك سبيل جيهان السادات، إلا أنه لم يمض وقت كثير وإذ بزوجته تصول وتجول وتتعدى حدودها وتتفوق على جيهان بمراحل كثيرة..

ثم إن هذا السفيه لما وجد الجميع له سجداً مفسحين له الطريق دون مقاومة تأسد وأظهر شجاعة غير مسبوقة فقال: أنا ربكم الأعلى ولكن بلغة العصر، فاحتكر السلطة وصار الآمر الناهى، وأعلن أنه لا يجد فى مصر من يصلح ليكون نائباً له فأبقى منصب النائب شاغراً حتى اليوم، وقام بتغيير الدستور ليصبح حاكماً إلى الأبد يفعل بمصر ما يشاء..

وكونه لا يجد فى مصر من يصلح لدور النائب يعنى أنه لا يجد من هو على شاكلته ومن صنفه النادر الوجود..

وكون الجميع يصفقون له ولا يعترض أحد على قوله هذا الذى يشكل إهانة كبيرة لمصر وشعبها يعنى أن الشعب قد تحول إلى عبيد..

ولقد سخرت أجهزة الإعلام المصرية للدعاية له والتعتيم على حقيقته وقدراته الواهية وسفاهته أيضاً، كلما أقيم مشروع فى مصر أسموه على اسمه..

وعندما تم الإنتهاء من مشروع مترو الأنفاق وضعوا اسمه على أكبر المحطات بينما وضعوا اسم عبد الناصر على محطة صغيرة وكذلك أحمد عرابى..

ومما يضحك أن سدنته وحاشيته بحثوا له عن منقبة يسترون بها عوراته فلم يجدوا، وكان حاله كحال معاوية الذين بحث أنصاره له عن منقبة فلم يجدوا فاخترعوا له مناقب ونسبوها للرسول ..

إلا أنهم وجدوا صورة له مع مجموعة من الضباط المصطفين لتحية عبد الناصر حين زار قاعدتهم العسكرية.. فأبرزوها على الملأ..

إن من العار على مصر وشعبها أن يحكمها مثل هذا الأحمق الغبى الذى لا يتصف بشئ من العقل والمروءة، والذى لم يرد مثله حتى فى عصر المماليك..

وولده جمال مريض نفسياً وفاشل جنسياً وكان يعالج فى أمريكا ..

وزوجة الفرعون تغير دمها كل حين فى الخارج على حساب الشعب بعد أن أجرت عملية جراحية تم من خلالها إستئصال ثدييها..

وولده الثانى علاء إشتهر بمغامراته النسائية ومطاردة ممثلات السينما وقد تسبب فى مطاردته لإحداهن أن انقلبت بها السيارة وأصيبت إصابات بالغة أقعدتها عن التمثيل لتعلن بعد فترة تحجبها واعتزالها، هذا بالإضافة إلى السرقات والرشاوى والإتاوات التى رفعته إلى عالم المليادرات..

وقد حاول اثنين من الصحفيين الكتابة عن ولدى العجل متصورين أن الديمقراطية التى ينادى بها زوراً تسمح لهما بذلك، فكانت النتيجة أن تم القبض عليهما وقدما للمحاكمة ليتأكد لهما أن الديمقراطية فى مصر ليست للشعب وإنما هى من ممتلكات الفرعون التى لا يجوز مساسها..

وكان وزير الداخلية الراحل زكى بدر زميل الدراسة للفرعون الحالى والمعروف بطول لسانه قد كشف هذه الأمور فى حديث جانبى ولما وصل الخبر إلى العجل أقاله من منصبه..

والجدير بالذكر هنا هو أن الفرعون الحالى يعيش نفس حالة بورقيبه الذى ظل قابضاً على السلطة فى تونس رغم مرضه واختلال قواه العقلية، مما دفع بزوجته إلى إدارة شئون الحكم مكانه حتى تم الإطاحة به وبزوجته ..

و مصر اليوم تعيش نفس حالة تونس فالفرعون مريض ومختل عقلياً ولازال يقبض على السلطة لكونه يعلم أن تركها ليس فى صالحه ولا فى صالح أسرته، وقد أدى هذا الوضع إلى تدخل زوجته وولده فى الحكم، فمن ثم هو معتكف دائماً فى منتجع شرم الشيخ مكلفاً الدولة ملايين الجنيهات التى تنفق عليه وعلى المسئولين كبدل سفر للعديد منهم من أجل المثول أمامه..

ونظراً لتردى حالته الصحية وقدرته الضعيفة على الحركة تم وضع مصعد خاص فى قصره ليمكنه من الصعود إلى الطابق الثانى من القصر ..

ورغم حالته الصحية السيئة وعمره الذى وصل إلى الثمانين والمشاكل والصعاب التى تحيط بمصر يجد لديه الوقت لمشاهدة مباريات كرة القدم..

والمصريون يعتقدون أنه كان شؤماً على مصر، أو نحس حسب تعبير العوام، وساد اعتقاد لدى أفراد الشعب أنه إذا ما حضر أحد المباريات الخاصة بالفريق القومى أو النادى الأهلى الذى يعشقه فإن النتيجة تكون هى الهزيمة..

ومن صفاته الرذيلة طول اللسان، ونتيجة لشعوره باعتلال الصحة وقرب الأجل وضعف النفوذ كثيراً ما يثور ثورة عارمة على من فى القصر من الزوجة إلى الأولاد ويصيح فيهم غاضباً: **انا لسه عايش ياولاد..**

وثورته هذه كانت تطول العديد من المسئولين الذين يأتون إليه فى مكتبه والذين كان ينالهم من السب جانب..

وحين أعلن أنه تعرض لمحاولة إغتيال فى مدينة بورسعيد قامت الدنيا ولم تقعد، وأنزلت صحافته لعناتها على أعداء مصر فى الداخل والخارج ..

والحقيقة أنه لم تكن هناك محاولة إغتيال ولا شئ من هذا، والقصة فى مجملها تتلخص فى أن أحد المواطنين المقهورين اقتحم موكبه وهو يسير فى الطريق مقدماً له شكواه فأطلق الحرس عليه النار وأردوه قتيلاً..

وقام الفرعون بمعاقبة بور سعيد جميعها بسبب هذا الحادث، وتم الإطاحة بمحافظها وتعيين لواءً من مباحث أمن الدولة مكانه، وصفع ولده جمال وزير الداخلية على وجهه وهو يصيح فى وجهه غاضباً: **حتموتوا الراجل يا ولاد الكلب..**

والحكم فى مصر اليوم هش بل شديد الهشاشة حتى أنه تهزه مجرد شائعة، وهو ما حدث نتيجة نشر بعض الصحف مؤخراً أخباراً عن اعتلال صحة الفرعون..

والفرعون فى مصر لا يصنع من فراغ وإنما تصنعه أيدى المصريين ثم بعد أن تصنعه تلعنه، وهو ما حدث مع الفرعون الحالى الذى تلعنه جميع طبقات الشعب اليوم، وفى مقدمتهم أهل الفكر والثقافة مع أن تقاعس هؤلاء وتخاذلهم هو المتسبب الأول فى صناعته..

إن مصر اليوم تعيش أسود أيامها وأسوأ أحوالها فى ظل حكم هذا الفرعون على المستوى السياسى والإجتماعى والإقتصادى وحتى الثقافى، إلا أن هذا كله لا يحرك المصريين، بل

يؤدى بهم إلى إصدار العديد من النكات الجديدة التى يعبرون من خلالها عن سخريتهم مما يجرى لهم ..

وعلى رأس هذه النكات نكتة تقول: أن الفرعون الحالى تساءل لماذا لا يسمع أية شكوى أو اعتراض أو تذمر من قبل الشعب، فأشار إليه أحد مستشاريه أن يقوم بفرض ضريبة مرور على الناس فى الطرقات، فأصدر قراراً بذلك وتم تنفيذه وأصبح كل مار فى الشارع يدفع جنيهاً دون اعتراض، فأصدر قراراً آخر بضرب كل مار فى الطريق على قفاه، فجهز كل مار قفاه دون اعتراض، وهنا أصدر أمره لرجاله بممارسة اللواط فى كل مار فوجد اعتراضاً وشكوى من الناس ففرح بذلك وسأل أحد المعترضين عن سبب اعتراضه، فأجابه قائلاً: يجب زيادة عدد الرجال الذين يمارسون اللواط معنا حتى لا نتأخر عن أعمالنا..

وهناك نكتة أخرى تقول: ان الفرعون الحالى سأل شيخ الأزهر: هل يجوز أن يتولى ولده جمال رئاسة الحزب الوطنى؟

فأجابه بقوله: يجوز..

فسأله: هل يجوز أن يتولى جمال رئاسة مجلس الشعب..؟

فأجابه بقوله: يجوز ..

فسأله: وهل يجوز أن يتولى رئاسة الجمهورية ؟

وهنا انتفض واقفاً وأجابه: لا يجوز ..

فقال له: لماذا يا مولانا ؟

فقال: لأن الله يقول: ولا تنكحوا ما نكح آبائكم ..

ونكتة أخرى تقول:

أن الفرعون دخل أحد الحمامات ليستحم وبعد أن فرغ من الإستحمام دفع جنيهاً واحداً، وعندما عاد إلى القصر قال لولده جمال: لقد اكتشفت اليوم حماماً رخيصاً وأخبره بمكانه، فانطلق جمال نحو الحمام ودخل ليستحم، ولما خرج طلب منه صاحب الحمام عشرة جنيهات، فقال له: إن أبى دفع جنيهاً واحداً، فقال صاحب الحمام: أنت أوسخ من أبيك بكثير ..

ونكتة أخرى تقول: أن أبواب جهنم قد فتحت ودخلها جميع المجرمين إلا باباً واحداً وهو الباب رقم ٢٨ الذى يحوى أشد صور العذاب فقد كان محجوزاً لشخصية كبيرة، وتساءل أهل

جهنم عن هذه الشخصية التى سوف تدخل من هذا الباب، وما الذى فعلته حتى تستحق الدخول من هذا الباب..؟

وإذ حسنى مبارك يدخل فيقابله «ابولهب» فيسأله حسنى عن باب رقم «٢٨»، فيصاب ابولهب بدهشة ثم يقول له: ماذا فعلت حتى تدخل من باب «٢٨» وأنا ابولهب دخلت من باب «١٢»..

ومصر اليوم إنما تحكمها عائلة تتكون من ثلاث أفراد: الأول هو الفرعون الذى تعتل صحته ما بين الحين والآخر، ثم ولده وأمه التى تصول وتجول فى مصر وكأنها ملكة متوجة..

واختيار الوزراء والمسئولين إنما يتم على أساس مزاج الفرعون الحالى الذى لا يميل إلى الشخصيات الكبيرة ذات الوزن والخبرة، وإنما يميل الى تصعيد السفهاء والأغبياءوالأراذل أمثاله الذين يفهمهم ويفهمونه، أو بمعنى أدق يجارونه، فعندما تقدم له لائحة لاختيار وزير أو مفتى مثلاً فإنه يختر من هو فى ذيل القائمة..

ويبدو هذا واضحاً فى إختياره رؤساء الوزارات من السكارى العابثين الذين لا يفقهون سبيلا ولا خبرة لهم بشئ ..

من هنا فإن قائمة الشخصيات التى حكمت مصر من الوزراء والمشايخ والمحافظين وغيرهم طوال فترة هذا الفرعون لم تكن سوى مجموعة من القوادين والسفهاء والعابثين والسكارى الأغبياء والشواذ..

وأول رئيس للوزراء فى عهده كان وزيراً للتخطيط ولا يفقه شيئاً فى شئون الحكم والإدارة، إلا أنه كان يملك مؤهلاً هاماً فى نظر العجل وهو إنتماؤه لبلدته، وبعد أن أقاله جاء من بعده بشخصية حسابية ضعيفة كانت تدير الجهاز المركزى للمحاسبات، ولم تكن تملك أية خبرة فى مجال الحكم والإدارة فضلاً عن السياسة، ثم أقاله بعد أن أثبت فشله، وجاء من بعده بشخصية تعيش على الدوام فى غيبوة ولا تفيق من السكر، وقد وضع فى مسكنه باراً حتى لا يغيب عن الخمر أو تغيب الخمر عنه، ثم أطاح به بعد أن ثبت فشله أيضاً ليأتى من بعده بشخصية لا تتميز بشئ سوى الطول وتقديم قرابين الطاعة والولاء..

حتى أن الشخصية التى جاء بها لتولى مشيخة الأزهر تعد من أتفه الشخصيات الأزهرية التى لم تكن تحظى بأى قدر من الإحترام والتقدير بين رجال الأزهر بل كانت موضع سخريتهم..

وهكذا جعل العجل مصر حقل تجارب وحول الدولة إلى ألعوبة يفعل بها ما يشاء دون أن يجرؤ أحد على مراجعته أو محاسبته..

ولقد مكث واحد من الشواذ وزيراً للزراعة أكثر من ربع قرن حتى خرب أرض مصر وأفسد التربة الزراعية مما أدى إلى انتشار الأمراض والأوبئة..

وكان رد فعل الشعب هو قوله: **ادعوا على يوسف والى..**

ويوسف والى هو وزير الزراعة المقصود..

ومكث قواد شهير وزيراً للإعلام أكثر من خمسة عشر عاماً، ثم ولاه الفرعون بعد ذلك رئاسة مجلس الشورى وقيادة الحزب الوطنى، ولا يزال فى السلطة حتى الآن..

كان هذا القواد فى الأصل ضابط مخابرات كانت مهمته توريد النساء من الراقصات والممثلات والمذيعات والمطربات لكبار الضباط والمسئولين وضيوف مصر فى فترة عبد الناصر..

ولا يزال شاذ آخر يحكم حركة الثقافة فى مصر منذ حوالى العشرين عاماً وهو لا يملك أى رصيد ثقافى ..

وقد أدت سيرته المشاعة على كل لسان إلى بروز العديد من النكات عليه منها نكتة تقول:

أن الفرعون جمع الوزراء وهددهم إن لم يفعلوا كذا وكذا فسوف يلوط بهم واحداً واحداً..

وهنا نهض وزير الثقافة فى فرح قائلاً: **هل هذا وعد ياسيادة الرئيس..؟**

وفرعون مصر الحالى أصبح من أصحاب المليارات ودخل ضمن أثرياء العالم، وذلك بفضل العمولات التى يتقاضاها عن الصفقات العسكرية، والإتاوات التى يفرضها على رجال الأعمال والمستثمرين، بالإضافة إلى نسبة الـ 1% التى يتقاضاها من دخل قناة السويس..

ويعد الفرعون الحالى أشبه بنيرون الذى أحرق روما حيث أنه مستمر فى تخريب البلاد واستنزاف العباد حتى يشعلها ناراً تأكل الأخضر واليابس..

ومن سوء حظ المصرين وعظيم بلائهم أنه قد طال عمره وتجاوزت فترة حكمه الربع قرن ..



العقل المصرى

5 الإحباط واللامبالاة



كيف يفكر المصريون فى مواجهة المشاكل والتحديات التى تفرض نفسها عليهم..؟

وبأى عقل يتسلحون..؟

وما مدى تأثير الأمثال الشعبية على العقل المصرى..؟

وهل تحرر هذا العقل من عقد الماضى..؟

هذه التساؤلات وغيرها سوف نجيب عليها من خلال استعراضنا للعقل الأمنى والسياسى والإعلامى والثقافى والاقتصادى فى دائرة هذا الباب..

أما العقل الاجتماعى فهو يبدو واضحاً مما عرضناه سبقاً وما سوف نعرضه لاحقاً..

العقـــل الأمنـــى

اعتمد عبد الناصر اعتماداً كلياً على المؤسسة العسكرية، وجاء السادات من بعده فهمش هذه المؤسسة لخوفه منها وركز اهتمامه على المؤسسة الأمنية..

من هنا نشأ ما سمى بقوات الأمن المركزى التى أخذت فى التضخم حتى أصبحت اليوم تشكل جيشاً ثانياً، هذا فى الوقت الذى تم فيه إضعاف المؤسسة العسكرية وتفريغها لتتحول إلى مؤسسة خدمية..

وفتحت الأبواب على مصارعها لضباط الجيش ليقدموا استقالاتهم منه مقابل معاشات كبيرة ومكافآت مغرية، عبارة عن شقة وسيارة ووظيفة كبيرة فى الشركات الاستثمارية..

وجاء الفرعون الحالى فشدد من القبضة الأمنية حيث أعطى صلاحيات واسعة لرجال الأمن، وجعل للمؤسسة الأمنية ميزانية مفتوحة تأخذ بلا حساب من خزينة البلاد، وتتحصن بقانون الطوارئ الذى فرض بعد قتل السادات ولا زال مفروضاً إلى الآن..

وهكذا سيطر العقل الأمنى وأصبحت مصر اليوم دولة (بوليسية) محكومة بجهاز مباحث أمن الدولة يتصرف فيها كما يشاء، مما أدى إلى انهيار الأوضاع الداخلية، وانتشار الخوف والإرهاب، وارتباك الحالة الاقتصادية، وتراجع السياسة الخارجية وانهزامها..

والعقل الأمنى فى مصر عقل غبى، أو هكذا أرادوا له أن يكون حتى يتمكن من القيام بدوره فى البطش والقمع دون تردد، وقد دار بينى وبين بعض قيادات مباحث أمن الدولة حوار منذ عدة سنوات عن السنة والشيعة والجماعات قال لى كبيرهم فيه بالحرف الواحد: إن جهاز مباحث أمن الدولة جهاز غبى، وضابط أمن الدولة يجب أن يكون غبياً ..

والطريف أن عملية انتقاء جنود الأمن المركزى تقوم على أساس اختبارات غبية، فهؤلاء الجنود يتم اختيارهم من أبناء الفلاحين المطلوبين لتأدية الخدمة العسكرية الإجبارية وهم فى الأغلب أميون، فيتم تحويل أمثال هؤلاء إلى وزارة الداخلية التى تقوم بفرزهم فتحتفظ بالأميين منهم وترد إلى الجيش من كان يفقه منهم..

و يتم عن طريق هذه الاختبارات إختيار أغباهم وأجهلهم ليكون من جنود الأمن المركزى، حيث يتم توزيعه فى فروعه المختلفة، من قوات مكافحة الشغب، إلى حراسة السجون والمعتقلات والأماكن الحيوية، الى خدمة كبار الضباط..

والأمن المصرى يحكمه المثل القائل: الباب اللى يجيلك منه الريح سده واستريح ..

فهو يمنع الإيرانيين من دخول مصر حتى يستريح من مراقبتهم والأخطار المتوقعة من دخولهم مصر واحتكاكهم بالمصريين حسب تصوره ..

وهو يمنع إسرائيل من المشاركة فى معرض القاهرة الدولى للكتاب تجنباً للمشاكل الأمنية، والمظاهرات التى من الممكن أن تقع من قبل جمهور المعرض من أصحاب الاتجاهات المعارضة للحكومة ..

وهو قد قام بطرد البدو من أراضيهم وهدم بيوتهم التى تقع على الحدود مع رفح من أجل حسم قضية تهريب الأسلحة إلى قطاع غزة بدلاً من البحث عن حل آخر ..

وهو يحتفظ فى السجون المصرية بأعداد كبيرة من المعتقلين منذ سنوات طويلة بدون محاكمة أو توجيه اتهام لهم حتى يستريح من مراقبتهم ويأمن جانبهم ..

وسيناء كما هو معروف أو غير معروف هى منطقة منزوعة السلاح حسب إتفاقية كامب ديفيد، والقوات الموجودة فيها هى قوات الأمن المركزى الذى يعد أكبر سلاح يحملونه هو البندقية الآلية، إلا أنه قد تم السماح مؤخراً بدخول أسلحة أكبر لمواجهة حالات التمرد من قبل بدو سيناء وازدياد العمليات الأمنية فى محيطها، خاصة بعد التفجيرات الأخيرة فى المنتجعات السياحية ..

ومما يدل على الغباء الأمنى فى مصر تلك النفقات الكبيرة التى تشكل عبئاً على الميزانية العامة، والتجهيزات الضخمة والأعداد الكبيرة التى يحشدونها ضمن جيش الأمن المركزى الذى تجاوز عدد جنوده المليون، والطائرات العمودية والمدرعات والأسلحة الحديثة التى يملكها، بالإضافة الى الميزانية الهائلة المخصصة لحماية الفرعون الحاكم والحفاظ عليه، كل هذا يتم فى مواجهة واقع ساكن لا يتحرك، وشعب مستسلم رضى بالفتات..

ويظهر غباء العقل الأمنى فى مصر فى فترة معرض القاهرة الدولى للكتاب الذى يسيطر عليه رجال الأمن، فقد قسموا أبواب المعرض الى مداخل ضيقة لاتكاد تدخل الفرد الواحد إلا بجانبه، وعندما يدخل يجد رجال الأمن فى مواجهته حيث يقومون بتفتيشه..

وكثيراً ما يغلقون المعرض أو يعطلونه لساعات طويلة بسبب الهاجس الأمنى الذى صور لهم أن رواد المعرض لابد وأن يكونوا إرهابيين..

ويعد معرض الكتاب المصرى من أكبر المعارض فى العالم ويرتاده الملايين من المصريين وغيرهم..

ويركز العقل الأمنى على المثقفين المعارضين وأصحاب الرأى فى مصر ويضع فى مواجهتهم شتى العراقيل، ويمارس عليهم أشد الضغوط ويضعهم ضمن القائمة السوداء..

وقد كنت واحداً من هؤلاء حيث مكثت ضمن القائمة السوداء لأكثر من ربع قرن وظللت ضمن هذه القائمة حتى رحلت من مصر التى لم يكن رحيلى منها سهلاً ميسوراً، كما هو حال أغلب أفراد الشعب الذين يسيرون على الصراط المستقيم صراط الفرعون الذميم، فالقائمة السوداء تعنى وجود إسمى فى جميع المطارات والموانئ حيث ينتظرنى هناك رجال الأمن ليخضعونى لعملية استجواب طويلة ثم يقررون بعدها السماح لى بالسفر أم لا..

ومن السخرية وضع الآية القرآنية التى تقول: (ادخلوها بسلام آمنين) على مدخل القادمين لمطار القاهرة ليدخل منها الأجانب آمنين بينما يحتجز أمثالى فور وصولهم..

وما يجب ذكره هنا هو أن هذه الآية خاصة بالجنة، فهل يتصور العقل الأمنى أن مصر هى جنة الخلد..؟

ولقد امتد الذراع الأمنى فى مصر إلى كل جوانب المجتمع ومرافقه ومؤسساته بحيث أصبح لا يتم التعيين فى أى مرفق أو مؤسسة أو حتى جامعة إلا بموافقة جهاز الأمن، وقد نتج عن هذه السياسة الإطاحة بالعديد من الكفاءات والتخلص منها بسبب الشك فى ولائها لنظام الحكم ..

وأصبحت الوسيلة الوحيدة أمام المواطن المصرى كى يحصل على قوته ويعيش فى سلام ويتقى شر رجال الأمن، هى تقديم قرابين الطاعة والولاء للفرعون، والإنتماء للحزب الوطنى الحاكم، والانغماس فى اللهو والسفه السائد، وإذا ما قدر له أن ينسى فإن جنود الأمن المدججين بالسلاح الشاهرينه فى وجهه بالطرقات يذكرونه..

ولم تكن المؤسسات الدينية خاصة الأزهر ببعيدة عن الذراع الأمنى الذى تغلغل فيها وتحكم فى قراراتها، وجعلها ألعوبة بين يديه، وأصبح رجال الأزهر أشبه بعملاء لجهاز مباحث أمن الدولة ..

وجهاز أمن الدولة من باب إثبات الوجود والولاء للفرعون لابد له من أن يقدم كبش فداء له كل حين، فيقوم بالقبض على مجموعة من المواطنين تحت مسمى دينى أو سياسى ويتهمهم بتشكيل تنظيم سرى لقلب نظام الحكم، وليست تلك المجموعات سوى تنظيمات وهمية من اختراع جهاز الأمن..

وكنت قد خضت تجربة هذه التنظيمات الورقية الوهمية حين تم اعتقالى عدة مرات فى فترة الثمانينيات تحت هذه المسميات، وأدركت عملياً مدى غباء هذا الجهاز وفشله على الرغم من كون الواقع يشكل عاملاً مساعداً له على إقرار الأمن ..

وقضية التنظيمات الوهمية أو الورقية تدعم أيضاً من قبل نيابة أمن الدولة التى تتلقف هذه التنظيمات من جهاز أمن الدولة، وتباشر التحقيق معها دون أساس قانونى ثم تقذف بها إلى ساحة القضاء الذى يباشر محاكمتها ليشغل الرأى العام بها، ويتبين فى النهاية أنه أن الأمر ليس سوى فرقعة إعلامية ..

والقضاء المصرى مصاب بعجز شديد من عقود طويلة خاصة بعد اغتيال السادات وفرض قانون الطوارئ، وهو قد طاله الفساد الذى طال مرافق ومؤسسات الدولة الأخرى..

والعقل الأمنى فى مصر يعتقد أن المصريين لا يفكرون فى الثورة والانتفاضة والعمل على قلب نظام الحكم، ولا يحتمل وجود مثل هذه الأفكار بينهم، فمن ثم إذا ما حدث وأنه كشف مجموعة تتبنى هذه الأفكار، فلابد وأن يعمل على ربطها بالخارج حتى ولو لم يكن هناك ما يدعم هذا الربط، وفى مثل هذه الحالة يتم اختراع جهة معادية تربط بها هذه المجموعة..

وقد حدث هذا معى عملياً حين تم التحفظ علىِ قبيل اغتيال السادات واكتشاف تنظيم الجهاد، حيث تم إدخالى ضمن عناصر التنظيم وتقديمى للمحاكمة معهم على الرغم من كونى لا أنتمى لهم، ليس لسبب سوى أننى كنت أعمل صحافياً فى الكويت وهذا يؤهلنى للقيام بدور تمويلى حسب المنظور الأمنى، فكانت تهمتى هى تمويل تنظيم الجهاد عن طريق عناصر كويتية ..

ولم تكن تخلو قائمة الإتهام ضمن تنظيم الجهاد من هذه العناصر الكويتية وغيرها من العناصر العربية الأخرى التى لم تكن فى مصر ولم تصل إليها أيدى رجال الأمن والتى عدوها من العناصر الهاربة..

وشكل إتهام هذه العناصر وغيرها ضمن تنظيم الجهاد، والتنظيمات الأخرى الوهمية طوال فترة الثمانينيات إزعاجاً كبيراً لحكومات الدول التى تنتمى إليها هذه العناصر، والتى اكتشفت بعد أن قامت بتحرياتها أن الأمر لا يخرج عن كونه مجرد أكاذيب وإدعاءات من قبل المصريين، مما إنعكس على صورة جهاز الأمن المصرى بالسلب..

ولايزال جهاز الأمن المصرى يعتمد على الوسائل القديمة فى انتزاع المعلومات من المعتقلين، ويظهر هذا بوضوح من أساليب التعذيب التى يمارسها عليهم من تعصيب العينين مع الوقوف فى مواجهة الحائط لفترة طويلة، والضرب على القدمين بأسلاك الكهرباء المعقودة، والصعق بالكهرباء، وسكب الماء البارد على الجسم العارى فى فصل الشتاء، أو على أرض الزنزانة واحتجاز الأمهات والزوجات والشقيقات كرهائن، وغير ذلك من الأساليب التقليدية ..

ولى حكايات كثيرة بعضها طريف وبعضها مؤلم مع جهاز الأمن المصرى تدل على مدى سفاهة وغباء هذا الجهاز وتلفيقه للقضايا، وزجه بالأبرياء فى السجون والمعتقلات، سردتها بالتفصيل فى كتابى: مذكرات معتقل سياسى ..

ونتيجة لتركيز الأمن المصرى على الجماعات الإسلامية والمعارضة والمثقفين الفاعلين أهمل الشارع، مما فتح الباب على مصارعه للمجرمين بشتى صورهم لينالوا من المواطن المغلوب على أمره، ويرتكبوا أفطع الجرائم دون حسيب أو رقيب ..

وفى جريدة الأهرام بتاريخ 15/2/2004... رسالة تحت عنوان:«الشارع المصرى وقبضة الأمن» يقول صاحبها: إن الساحة الاجتماعية مليئة بكل ما يدفع الشباب إلى البلطجة والإجرام، وهو ما يتمثل فى ازدياد معدلات البطالة على النحو الذى اعترف به رئيس الوزراء، وتزايد مظاهر السفه فى الإنفاق على المستوى العام والخاص، لاشئ يشجع على البلطجة إلا تراخى قبضة الأمن وتراخى قبضة العدالة ..

ومن هنا يمكن فهم تزايد نسبة الجرائم فى مصر وانتشار البلطجة، فإلى جانب أن العقوبات الإسلامية لا تطبق فى مصر فإن العقوبات المدنية لا تطبق أيضاً، وهو ما نلاحظه فيما تنشره الصحف المصرية من بعض الأحكام فى جرائم خطيرة فيها اغتصاب وقتل وحرق لا تتناسب مع الجرم، فضلاً عن جرائم يرتكبها بلطجية ذوو سوابق تعد بالعشرات، ومع ذلك تركتهم سلطات الأمن يسرحون فى شوارع المدن كالأفاعى يسرقون ويضربون ويغتصبون ويقتلون، وهو ما لا يحدث حتى فى بلاد الواق واق ..

هل يستطيع المواطن العادى أن يمارس انتماؤه لمصر البانجو والبلطجة والفساد..؟ أهـ..

ومن طريف ما نشر ببعض الصحف أن سكان أحد العمائر ضبطوا لصاً داخل عمارتهم فقاموا بإبلاغ الشرطة عن طريق الهاتف، فطلب منهم الضابط أن يحضروا اللص إليه فى تاكسى ..

ويحصل رجال أمن الدولة على العديد من الامتيازات والمكافآت على الرغم من فشلهم الدائم وقضاياهم المصطنعة، فيكفى فى نظر الفرعون الحاكم أنهم يتفانون فى عملهم ويملئون المعتقلات بالأبرياء، ويحطمون كل شئ من أجل الحفاظ على أمنه وسلامته..

والجدير بالذكر هنا أن جهاز أمن الدولة بعناصره وضباطه إختفى من الساحة بعد هروب وزير الداخلية النبوى إسماعيل وقت إغتيال السادات..

وأذكر حكاية هنا عن مجموعة من رجال أمن الدولة منحتهم الحكومة مساحات من الأراضى مجاناً يقسمونها فيما بينهم، فحدث أن دارت بينهم معركة كلامية تطورت إلى التشابك بالأيدى والمقاعد بسبب التصارع على قطع الأرض ذات المواقع المميزة..

والعقل الأمنى فى مصر يخضع للعقل السياسى ويظهر هذا بوضوح فى موقفه المتميع تجاه قضية الإرهاب والعنف فى مصر، حيث لا يستطيع جهاز الأمن العمل على سد منابع الإرهاب والعنف، والحد من ذلك الكم الهائل من الكتب التراثية التى أغرق بها السوق المصرى من بداية عصر السادات والانفتاح على السعودية وحتى اليوم، خاصة كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وما تحويه من الأحكام والفتاوى المتطرفة التى أسهمت بشكل فاعل فى نشأة التيارات الجهادية وإضفاء المشروعية على قتل الآخر واستحلاله، حتى أن الفتوى التى أستبيح دم السادات على أساسها خرجت من ابن تيمية، مما دعا إلى إرتفاع العديد من الأصوات فى حينها تطالب بمنع ومصادرة كتب ابن تيمية وتلميذيه ابن القيم وابن كثير، إلا أن هذه الأصوات كبتت فى حينها..

والواضح أن هناك العديد من الجهات على مستوى الداخل والخارج تريد لهذا الإرهاب أن يستمر وأن تكون مصر منطلقه وقاعدته ..

ومن الملاحظ أن سياسة الأمن مع عناصر الجماعات لا تقوم على الحزم والحسم الكامل، إذ يتم القبض عليهم لفترة ثم يطلق سراحهم حتى دون أن تكون هناك محاولات لتهذيب أفكارهم وتصحيح معتقداتهم..

وفكرة التوبة والمراجعات التى ارتبطت بتيار الجماعة الإسلامية وبعض عناصر الجهاد والتى تمت تحت إشراف جهاز الأمن، هى فى حقيقتها ألعوبة من ألاعيبه، استغلتها عناصر الجماعات لتخفيف الضغوط الأمنية عليها، وذلك لكون الأطر الفكرية والعقدية لهذه الجماعات لاتتيح لها التراجع عن موقفها من الواقع الذى لم يتغير، ولا من الحكومة الثابتة على موقفها من هذه الجماعات، والأمر فى حقيقتة لم يكن إلا مناورة لتبييض وجه الحكومة المتهمة بانتهاك حقوق الإنسان أمام العالم، وفرصة لإطلاق هذه العناصر فى الساحة الإسلامية ليحدثوا فيها الخلل الذى يتيح لجهاز الأمن استثماره لصالحه ..

والغريب أن الأزهر مؤسسة الدوله وممثل الدين الحكومى يقف موقف المتفرج ولا يقوم بأى دور فى مواجهة هذا الفكر المتطرف الوافد على مصر..

والغريب أيضاً أن جهاز الأمن قبض على الشيعة عدة مرات وأعانه الأزهر والجماعات على ذلك بالرغم من كون الفكر الشيعى يعد من العوامل المساعدة على تطويق الفكر السلفى الوهابى المتطرف وتحجيمه..

وكانت دوافع الأمن فى حرب الشيعة سياسية وليست أمنية، فقد سقط شيعة مصر ضحية الخلاف أو الصدام المصرى الإيرانى على ما بينا فى كتابينا: **الشيعة فى مصر، ومصر وإيران** ..

أما دوافع الأزهر والجماعات فقد كانت دوافع مذهبية تكمن فى الخوف من فكر الشيعة وتأثيره على المصريين المحبين لأهل البيت ـ محل تركيز هذا الفكر ـ وانعكاسات هذا الأمر على وجودهم ومستقبلهم كممثلين للمذهب السنى وناطقين بلسانه فى مصر..

ونتيجة لتشابك العلاقات المصرية السعودية أصبح من الصعب على جهاز الأمن المصرى التصدى بحسم للتيارات السلفية الوهابية ـ التى تشكل منبع الإرهاب والتطرف وبيئة نمو الجماعات الجهادية والتكفيرية ـ التى تقف ورائها مؤسسات سعودية وجهات استثمارية كبيرة، فإن هذا التصدى سوف يقود إلى خلخلة العلاقات الخارجية وضياع العديد من المصالح الخاصة بأصحاب النفوذ..

أما التصدى للشيعة فلا توجد من وراءه إنعكاسات على نظام الحكم وأصحاب النفوذ فهو من المنظور الأمنى يخدم الأمن القومى لمصر..

والحق أنه يخدم الفرعون الكبير وبطانته من الفراعنة الصغار الذين يمكنهم أن يضحوا بمصر وبشعبها من أجل مصالحهم ونفوذهم وهو ما يتم بالفعل ..

والعقل الأمنى فى مصر تسوده الطبقية فى أبشع صورها فرجال الأمن الكبار (الباشوات) يستعبدون الضباط الصغار (البكوات) والضباط الصغار يستعبدون من هم أقل منهم رتبة، ومجمل هؤلاء يستعبدون المخبرين والجنود الضعفاء من أبناء الفلاحين الذين يعاملونهم كخدم يقضون لهم الحاجات الخاصة بهم وبعائلاتهم..

ومما يجدر ذكره هنا هو أن الأمن فى مصر يتعامل مع الشعب على أساس أنه موضع اشتباه والقاعدة التى يتبناها هى أن المواطن متهم حتى تثبت براءته ..

ومن صور استخفاف العقل الأمنى بالشعب تلك الشعارات التى يرفعها على أبواب مراكز الشرطة منها شعار يقول: **الشرطة فى خدمة الشعب**..

وهذا الشعار ارتبط بالفترة الناصرية..

أما فى عصر السادات فقد رفعت الشرطة شعاراً يقول: **الشرطة فى خدمة القانون**..

وفى عصر الفرعون الحالى تغير هذا الشعار وأصبح هذا نصه: **الشرطة فى خدمة الشعب والقانون،** ثم تغير مرة أخرى ليصبح: **الشرطة فى خدمة الوطن**..

ومثل هذه الشعارات لا صلة لها بالواقع، والشرطة المصرية لم تكن يوماً فى خدمة الشعب ولا فى خدمة القانون أو الوطن وإنما هى فى خدمة الفرعون..

وكان من المفروض على الشرطة فى عهد الفرعون الحالى أن ترفع شعاراً يقول: **الشرطة فى إهانة الشعب وتعذيبه** ..

وفى العصر الملكى وفى ظل الإستعمار الإنجليزى كان حال الشرطة أفضل من حالها اليوم بكثير، وكان لا يسمح بالإنتماء إلى صفوفها إلا لأبناء الأعيان والذوات الذين لا يمكن أن يفتنهم المال..

أما اليوم وبعد أن تداخلت الطبقات وأصبح لا يعرف الصالح من الفاسد فقد تحول رجال الشرطة إلى مجموعة من المبتزين للشعب المريقين لدمه داخل مراكز الشرطة وخارجها..

ورجل الشرطة فى مصر من السهل عليه أن ينتهك المواطن ويصادر ما فى جيبه بل ويقتله إن لزم الأمر، ولا يوجد من يحاسبه لا من الحكومة، ولا من الشعب المستعبد بالطبع..

وقصص تعذيب المواطنين وقتلهم فى مراكز الشرطة مستمرة و مشهورة فى مصر وهى حديث الرأى العام..

وهناك قصة شهيرة وقعت فى مدينة طنطا مركز محافظة الغربية بشمال مصر هذا نصها: **كان احد المواطنين يقوم بإصلاح سيارته بمحل إصلاح السيارات وجاء احد ضباط الشرطة بسيارته وطلب من العامل أن يترك ما فى يده ويتولى إصلاح سيارته، فاعترض**

المواطن صاحب السيارة الأولى، فما كان من الضابط إلا ان سبه وصفعه على وجهه، فرد عليه المواطن بصفع وجهه وضربه، فترك الضابط المكان وعاد بعد قليل راكباً حصاناً ومحضراً معه قوة من العساكر الذين امسكو بالمواطن وربطوه بالحصان، ثم إنطلق الضابط بالحصان واخذ يجرالمواطن فى الطريق العام حتى لفظ انفاسه بينما المارة يتفرجون..

ولم يتعظ رجال الأمن من خلال الدرس الذى لقنته لهم الجماعة الإسلامية بصعيد مصر والتى ألحقت فى صفوفهم خسائر فادحة لم تحدث من قبل ..

ويعتمد العقل الأمنى فى مصر على طائفة المخبرين أو من كان يطلق عليهم فى الماضى اسم البصاصين، وهى طائفة لا تستقطب إليها إلا الأراذل والأوباش الذين يستخدمون هذه المهنة فى الحصول على قيمة وحيثية وسط المجتمع يرهبون بها الناس، ومثل هؤلاء لديهم القابلية ليلقون شتى صور المهانة من الضباط ويكونوا عبيداً لهم وهو ما يؤدى بهم بالتالى إلى تفريغ عقدهم فى أفراد الشعب، وبجانب هؤلاء يعتمد العقل الأمنى أيضاً على المرشدين من أفراد الشعب ..

وجهاز الأمن لم يستثن من النكات منها نكتة تقول: أنه جرت مسابقة بين أجهزة الأمن العالمية لاصطياد أرنب شارك فيها جهاز الأمن المصرى، وبعد فترة عاد كل جهاز ومعه الأرنب إلا جهاز الأمن المصرى الذى اختفى فى الغابة، ولما بحثوا عنه وجدوه قد أمسك بحماراً وأوثقه بالحبال وأخذ يضرب فيه وهو يصيح فى غضب: قول أنا أرنب..

وعلى الرغم من ذلك استعانت العديد من الدول العربية برجال الأمن المصرى لمساعدتها فى قمع شعوبها، والمكر بها وطبخ القضايا وتلفيق التهم والإيقاع بالمعارضين، وغير ذلك من الأمور التى برع فيها رجال الفرعون المصرى..

العقل السياسى:

ويمكن القول أن السياسة المصرية إنما تعكس رغبات الفرعون وميوله ومواقفه أكثر من كونها تعبر عن مصالح مصر، فمن ثم فهى ترجمة لقوله تعالى على لسان فرعون: (ما أريكم إلا ما أرى).

وقد تلونت السياسة المصرية وتقلبت كثيراً مع بداية الحكم الجمهورى وحتى الفترة الحالية، فقد أعلن عبد الناصر الحرب على آل سعود ثم تصالح معهم..

وأعلن الحرب على نظام بورقيبة فى تونس ثم تصالح معه ..

وأعلن الحرب على النظام الملكى فى المغرب والأردن ثم تصالح معهما ..

وفى الوقت الذى أُعلنت فيه الحرب على الأمريكيين كانت السيارات الأمريكية تغزو مصر، وكذلك المعونة الأمريكية التى كنا نتلقاها ونحن صغار فى المدارس، وكانت توزع على أفراد الشعب وعليها علامة الصداقة المصرية الأمريكية وهى عبارة عن جبن ودقيق ومثلى وخلافه غير البضائع الأمريكية الأخرى ..

وقد عمدت المخابرات المصرية فى عصر عبد الناصر إلى استخدام النساء استخداماً سياسياً، فقامت بتجنيد الراقصات والممثلات والمذيعات وغيرهن من أجل تحصيل المعلومات، وجذب الشخصيات وكسب ولائها، وأيضاً تجنيدهن للقيام بمهام تخدم سياسة الحكم وتسهم فى التخلص من الزعماء المنافسين لعبد الناصر كعبد الكريم قاسم فى العراق، والإمام البدر فى اليمن ..

وتحضرنى قصة طريفة تتعلق بواحد من الشخصيات اليمنية التى كانت تعدها المخابرات المصرية للقيام بدورفى اليمن.

وتتلخص هذه القصة فى أن المخابرات المصرية كانت قد جمعت هذه الشخصية براقصة كانت تقوم بالترفيه عنه طوال فترة إقامته بمصر، ثم وجهته بعد ذلك إلى اليمن إلا أنه اختفى فجأة ولم يظهر فيها، وكشفت التحريات بعد ذلك أنه عاد إلى مصر سراً ليلتقى بالراقصة التى لم يطق فراقها..

وعندما لجأ صدام حسين إلى القاهرة بعد المحاولة الفاشلة لإغتيال عبد الكريم قاسم، والتى كان من المشاركين فيها وكان وقتها طالباً، استقبلته المخابرات المصرية وهيأت له سبل الراحة والرفاهية، فساح فى النوادى الليلية وأقام علاقات مع العاهرات، وقد سجلت له محاضر فى أقسام الشرطة بسبب اعتدائه على بعضهن بالضرب..

والطريف أن ملف صدام حسين فى مصر لم يفتح إلا بعد أن قام بغزو الكويت وتحول السياسة المصرية من تأييده إلى إعلان الحرب عليه ..

وفى حين كانت السياسة الناصرية تعلن العداء لإسرائيل وأمريكا والسعودية وإيران الشاه، اتجهت السياسة الساداتية إلى العكس فأنهت حالة العداء مع إسرائيل، وأقامت

علاقات متينة مع الأمريكان والسعودية وإيران، ثم بعد أن سقط نظام الشاه انقلبت على إيران لتصبح من خصومها واستمرت على هذه السياسة إلى اليوم ..

وتم استضافة شاه إيران فى مصر بعد أن كان يلعن صباحاً ومساءً فى عهد عبد الناصر، وبعد أن تنكر له الجميع وحاصره المرض ليموت فيها ويتم دفنه فى مسجد الرفاعى بحى القلعة الذى شيدته حفيدة الخديوى إسماعيل ليكون مدفناً للعائلة الملكية..

وفى ظل الحكم الملكى دخلت مصر حرب عام (1948م) ليهلك جنود مصر بواسطة الأسلحة الفاسدة التى جاء بها مجموعة من الفراعنة الكبار من باشوات مصر، وباعوها إلى الجيش ليجنوا من ورائها أرباحاً طائلة، وتتم هزيمة الجيش المصرى..

وفى ظل الحكم الجمهورى دخلت مصر فى حروب كثيرة ولم تحقق النصر فى واحدة منها..

وأول هذه الحروب حرب عام(1956م) حين تحالفت فرنسا مع انجلترا وإسرائيل وقاموا بغزو مصر ثم خرجوا نتيجة الضغوط الخارجية..

ورغم ذلك اعتبر الفرعون الحاكم ذلك نصراً وجعل ذلك اليوم عيداً أسماه عيدالنصر واستمر الاحتفال به حتى فترة قريبة وتم إلغاؤه ..

ودخل عبد الناصر فى صراع مع نظام حكم عبد الكريم قاسم فى العراق دون مبرر معقول، وتمكن بأموال الكويتيين من الإطاحة به عن طريق عبد السلام عارف، وتم قتل عارف بعد ذلك فى حادثة طائرة ليتولى الحكم من بعده شقيقه الضعيف عبد الرحمن عارف، ويمهد الطريق أمام البعثيين ليصلوا إلى حكم العراق ويخربوا المنطقة بكاملها ..

ويصدر عبد الناصر قراراً بوضع اسم عبد السلام عارف على أحد شوارع القاهرة والإسكندرية ولا زالا يحملان هذا الإسم حتى اليوم ..

وبرزت صحيفة الأهرام برئاسة هيكل لتفرد صفحات كاملة لصور مقززة تقشعر منها الأبدان لعبد الكريم قاسم والعراقيين يمثلون بجثته..

وهيكل هذا دخل عالم المليادرات بعد رحيل عبد الناصر وذلك بفضل الوثائق والمعلومات التى جمعها، أو بمعنى أصح استولى عليها طوال فترة حكم عبد الناصر، والتى أخذ يتاجر بها فى كل مكان، وهو مستمر فى هذه التجارة حتى اليوم ..

ولو كان عبد الناصر لم يتدخل فى شئون العراق وترك عبد الكريم قاسم لكان من الممكن أن تكون للمنطقة العربية صورة أخرى..

وكانت الصحف المصرية تخرج على الشعب فى فترة عبد الناصر بالعناوين الضخمة التى تتعلق بلوممبا وجيفارا وخرشوف ونهرو وتيتو وغيرهم من زعماء العالم الذين لا يمكن أن ينشغل بهم شعب جائع لا يهتم بالسياسة من الأصل ..

وقام الجيش المصرى بغزو اليمن والإطاحة بنظام حكم البدر وتلقى العديد من الضربات الموجعة من اليمنيين، ثم عاد من هناك ليستقبل بالأغانى وأنتجت له أفلاماً سينمائية كمحاولة للتغطية على فشله هناك..

ثم تلقى هذا الجيش المنهك العائد من اليمن الضربة القاضية ليهزم هزيمة منكرة فى يونيو عا م (1967م)..

ودخلت مصر حرب عام(1973م) ولم تستطع أن تحرر إلا بضعة كيلومترات من سيناء وتمكنت القوات الإسرائيلية من الالتفاف حول القوات المصرية وفتح ثغرة استطاعت من خلالها أن تعبر القناة وتحتل مدينة السويس، وتجبر المصريين على التفاوض من أجل استرداد بقية سيناء، حيث لم يتمكنوا من تسلمها إلا فى عام 1982م..

ورغم ذلك أطلق الإعلام المصرى المضلل على السادات لقب: **بطل الحرب والسلام..**

والانتصارات الباهرة فى تاريخ مصر كانت على يد الغرباء الذين حكموها مثل المماليك الذين أوقفوا زحف التتار فى موقعة عين جالوت، ومثل محمد على الذى حقق العديد من الانتصارات على الأوربيين والوهابيين..

وقام السادات بإعلان الحرب على ليبيا عام 1976م وأخذت الصحف المصرية تتهكم على القذافى حتى صورته فى رسوم (كاركتيرية) كطفل صغير يجلس على مقعد الخراءة..

ثم لما تغيرت السياسة المصرية تجاه ليبيا أصبحت الصحف وأجهزة الإعلام لا تذكر القذافى مجرداً من ألقابه بل تطلق عليه: **الزعيم الليبى وقائد الثورة الليبية..**

ولو كان عبد الناصر قد ركز جهوده على بناء مصر وإشباع شعبها لكان من الممكن أن يكون لها شأن ووزن آخر وقيمة عالية بين دول العالم..

ولقد تقدمت الكثير من الدول على مستوى العالم بإمكانيات أقل من إمكانيات مصر بكثير، بل إن هناك من الدول المتقدمة اليوم لا تملك شيئا من المصادر الطبيعية مثلما تملك مصر..

وشاء فراعنة مصر على الدوام ألا يمدوا أيديهم ليد طاهرة، فمدوها لطواغيت الأرض ممن يلعقون دماء شعوبهم وينهبون أموالهم، ويفسدون فى الأرض من الشيوعيين الملاحدة والحكام الدمويون والملوك الفاسدين، وعلى رأس هؤلاء صدام حسين ..

وهى اليوم مستمرة فى دعم نظام القذافى الذى كانت تحاربه بالأمس وتسخر منه، بل أنها سمحت بطبع الآلاف من كتابه الأخضر فى مصر وترويجه بين المصريين، على الرغم من تبنيه نظرية وأفكاراً تخالف الحكم وسياساته ..

وهى تهادن الحكم السعودى وتتملقه على الرغم من دوره المكشوف فى تخريب الواقع المصرى وإفساده ..

وكبار رجال الحكم فى مصر اليوم لهم مصالحهم الاقتصادية الوطيدة مع ليبيا والسعودية، تلك المصالح التى من الممكن أن يضحوا بمصر وشعبها من أجل الحفاظ عليها..

ومن السخرية أن الفراعنة المعاصرين لا يزالوا يتمسحون بمبادئ يوليو ويحتفلون بعيدها بينما هم قد ضربوا بها عرض الحائط وساروا فى الاتجاه المضاد لها ..

ولقد اعتمد الحكم فى مصر على كثير من القوادين والمنافقين الذين قام بتصعيدهم وتلميعهم ليخدموا سياسته، وقد كثر هؤلاء فى فترة الفرعون الحالى ..

وتبدو ظاهرة تلون المصريين ونفاقهم بوضوح من خلال ممارساتهم السياسية، فهم يمارسون السياسة على طريقة الفرعون الحاكم ووفق توجيهاته، ومعظم ساسة مصر المعاصرين، وبعضهم فى الحكم الآن مثل مستشار الفرعون السياسى، كانوا يطبلون ويزمرون لإشتراكية عبد الناصر وسياسته المتطرفة، وكانوا بالإضافة إلى هذا أعضاء فى الاتحاد الاشتراكى، وفى عصر السادات أصبحوا من أولياؤه المنادين بالسلام، وفى العصر الحالى يمجدون الفرعون ويسبحون بحمده، وكل ذلك من باب التوضيح لاصلة له بالسياسة وإنما بأكل العيش، مما يؤكد القاعدة التى ذكرناها سابقاً وهى أن عقيدة المصريين فى بطونهم ..

من هنا لاتوجد معارضة حقيقية فى مصر والأحزاب لا وجود لها فى الشارع وهى لا تخرج عن كونها أحزاب ورقية..

ومجلس الشعب المصرى يعد صورة تطبيقية لهذه القاعدة فجميع أعضائه من أنصار أكل العيش الباحثين عن غنيمة يغنمونها من الحكومة، أما من جهة الوعى السياسى أو الثقافة فهم فيها شديدو الفقر، وهى الصفة التى تريد الحكومة توافرها فيهم لتفسح لهم باب الدخول إلى هذا المجلس، وهذا هو التفسير الوحيد لتلك الملايين التى ينفقها رجال الأعمال من أجل دخوله، فهم يستردونها أضعافاً مضاعفة، وبالإضافة إلى ذلك يحصلون على الحصانة البرلمانية التى تحول دون أن يتعرض لهم أحد وهذا هو الهدف الأساس من دخولهم المجلس..

وهذا ما يكشف لنا سر تحول هذا المجلس إلى مدرسة على رأسها ناظر حكومى هو رئيس المجلس، وتحوله أيضاً إلى آداة لإضفاء المشروعية على الفرعون الحاكم ومباركة قراراته ..

وأعرف واحداً من هؤلاء المنافقين الوصوليين كان عاملاً فى أحد المطاعم الصغيرة بوسط القاهرة، وكان يقوم بالإضافة إلى ذلك بخدمة مسجد صغير خلف هذا المطعم والقيام بالآذان وإمامة المصلين والخطبة فى أوقات كثيرة ..

ومن خلال المسجد تعرف على العديد من عناصر الجماعات الإسلامية التى التصق بها لتكتشف هذه الجماعات فيما بعد أنه ينقل أخبارها بالكامل لجهاز الأمن، ولما افتضح أمره فى أوساط الجماعات اتجه نحو الشيعة وقام بنفس الدور معهم لحساب الأمن، واحتال على عدد من رجال الأعمال الشيعة من غير المصريين واستولى منهم على مبالغ كبيرة من المال، ثم لما اكتشفه الشيعة انتقل إلى الحقل السياسى وتمكن من اختراق حزب الأحرار ليصبح واحداً من قياداته البارزة، وحين توفى رئيس الحزب دخل فى صدام مع قياداته من أجل الحصول على منصب الرئيس، وسهل له جهاز الأمن دخول مجلس الشعب كنائب عن الحزب، ولايزال عضواً فى هذا المجلس يقوم بالتجسس على عناصر المعارضة فيه لحساب الحزب الوطنى الحاكم وقد دخل عالم الأثرياء وأصبح يملك مزارع وعقارات غير أرصدته فى البنوك ..

ومما يدل على سفاهة السياسة فى مصر وحالة التردى والانهيار التى تعيشها اليوم فى ظل الفرعون الحالى أن هذا المنافق الوصولى أصيب بمرض شديد فأصدر الفرعون قراراً بمعالجته على نفقة الدولة فى الخارج، وقد نشر هذا الخبر فى الصفحة الأولى لجريدة الأهرام الحكومية..

ولا تفوتنا الإشارة هنا إلى الجامعة العربية التى تتخذ من القاهرة مقراً لها منذ نشأتها، والتى هى فى الحقيقة لا تمثل أية قيمة، وليس لها من دور فى الواقع السياسى العربى، ووجودها فى القاهرة قد أضر بها، ويكفى القول أن الوقت الذى يقضيه دبلوماسييها وضيوفها فى السكر والعربدة مع النساء هو أكثر بكثير من الوقت الذى يعطونه للجامعة التى لا تمثل سوى غطاء وحصانة لهم ..

العقـــل الإعلامـــى

و يقوم الإعلام المصرى بشتى شرائحه على أساس سياسة الاستخفاف بالعقل المصرى والعقل العربى عامة، فهو يتبنى الأكاذيب ويروج الأضاليل متصوراً أن المتلقى لا يفهم ولا يعقل..

وقد استمر الإعلام المصرى لعقود طويلة يعبث بالعقل المصرى والعربى حتى ظهور ثورة إلاتصالات التى هيأت السبل للتحرر منه وكشف زيفه ودجله..

وحتى تتضح لنا الصورة الحقيقية للإعلام المصرى لابد لنا من استعراض وسائله المتعددة من تلفاز وسينما وصحف..

أولاً: التلفـــاز

كان التلفاز المصرى منذ ظهوره ولازال يسيطر عليه العقل الأمنى الذى حال بينه وبين أن يخترق من قبل أى اتجاه من الاتجاهات، وجعل منه بوقاً للحكومة ووسيلة هامة لتخدير الناس وتضليلها ..

والمراقب لشاشته يرى مدى الاستخفاف بالعقول، وتسطيح الأمور وتأصيل التفاهة، وتضخيم السفهاء، يرى ذلك وغيره من خلال المسلسلات التافهة ..

ومن خلال البرامج السياسية والدينية والترفيهية ..

ومن خلال نشرات الأخبار الانتقائية ..

ترى المسلسلات المصرية تشغل الناس بقضايا هى بعيدة كل البعد عن واقعهم، وهى إن اقتربت من الواقع لا تقدر على تشخيصه..

ويعمل المسلسل المصرى على تضليل المشاهد حيث يصور منزل الموظف والمواطن الكادح على أنه قصر ملئ بالأثاث الفاخر، ومائدته عامرة بالأطعمة والحلوى والفاكهة وغير

ذلك مما لا صلة له بالواقع، كذلك يصور بطل المسلسل وهو يرتدى أفخر الثياب بينما دوره فى المسلسل لا يتطلب ذلك..

ونفس الحال ينطبق على النساء العاملات فى المسلسل حيث نرى الممثلة تتزين بأفخر أنواع الزينة وملابسها على أحدث موضة..

و المسلسلات بهذه الصورة تستفز المواطن المصرى فى الداخل الذى يعانى من الفقر والبطالة، كما تزيف الواقع فى عيون المشاهد العربى ..

والعجيب أن هذه المسلسلات يتم تصديرها إلى العالم العربى وشغل العرب بها بينما هى فى الحقيقة لا تقدم للعقل شيئاً ذا قيمة ..

والنتيجة التى تتحقق من وراء هذه المسلسلات هى إضاعة الوقت الذى يعد صورة من صور التخدير والتضليل شكلت عاملاً مساعداً للحكومات العربية كما شكلت عاملاً مساعداً للنظام المصرى ..

والغريب أن الإعلام المصرى يصر على تسويق هذه المسلسلات تحت مسمى المسلسل العربى، وكأنه بهذا يوحى للمشاهد أنه يمثل العرب والعروبة بينما هو فى الحقيقة لا يمثل حتى مصر، كما هو حال الفيلم المصرى الذى يطلق عليه الفيلم العربى أيضاً..

وترى البرامج المصرية مكررة وصورة طبق الأصل من بعضها وتخلو من الإبهار والإبداع، وليس الهدف منها سوى سد الفراغ وتشغيل العاطلين من المذيعين والمعدين والصحفيين من سدنة النظام التافهين..

والبرامج الدينية على وجه الخصوص هى حكر على كهان الأزهر الذين يروجون من خلالها للإسلام الحكومى والأفكار المسطحة والخرافة باسم الدين ..

أما البرامج السياسية فهى حكر على رجال الحزب الوطنى الحاكم والأمن القومى الذين يسيطرون على الصحف وأجهزة الإعلام، فمن ثم فإن هذه البرامج ينحصر دورها فى الترويج لسياسة الفرعون، وإضفاء المشروعية عليها والتعتيم على التيارات المعارضة ..

كذلك البرامج الفنية كما يسمونها التى تحمل مسميات مختلفة بينما هى صورة طبق الأصل من بعضها وتعتمد على السطو على الأفلام القديمة واقتطاع مناظر منها والتعليق

عليها، أو استحضار بعض الأغانى، أو بعض اللقاءات مع الراحلين من الممثلين والمطربين وغير ذلك مما لا صلة له بالعقل والفكر..

والهدف من تلك البرامج ليس تشغيل العاطلين من أبواق الحكم فقط، بل الحصول على أكبر غنيمة من خزائن التلفاز المفتوحة والممتلئة على الدوام ..

وترى بعض البرامج تستهلك الساعات الطوال فى الحديث والحوار مع قردة العصر من المهرجين والراقصين، ممن أسموهم فنانين بهدف تجميلهم فى أعين المشاهدين، بينما هم فى الحقيقة لا صوت ولا صورة..

كذلك ترى بعض البرامج تضيع الساعات الطوال فى مناقشة قصة تافهة لقصاص مبتدئ تعتبره مبدعاً مهملة عن عمد أهل العقل والفكر من شرفاء مصر ومستنيريها ..

وقد يقدر لك أن تسمع كلاماً جاداً من خلال بعض البرامج المصرية يأتى على لسان ضيف أو مذيع أو مذيعة فتتابع البرنامج لتكتشف فى النهاية أن هذا الكلام بعيد كل البعد عما تبادر فى الذهن، وتجد الأمر مجرد حديث عن الرقص أو الغناء أو تاريخ واحد من المغنين أو الممثلين الذين يشغلون الناس بالحديث عنهم ليل نهار، مما يشير إلى معلم هام من معالم الشخصية المصرية وهو خلط الجد بالهزل على الدوام ..

وهذه البرامج التافهة انتقلت عدواها إلى الدول العربية وسائر القنوات الفضائية..

ولقد برزت فى مصر اليوم مكاتب خاصة لصناعة الساقطين والساقطات وتحويلهم إلى مطربين ومطربات فى أقصر الأوقات..

ونرى الواحدة من هؤلاء تأتى إلى مصر حاملة حقيبة مليئة بالدولارات معروف أن مصدرها عرق الأسّرة، ليتسلمها أحد هذه المكاتب ويصنع منها مطربة لتشق طريقها فى عالم ما يسمونه بالفن، وتصبح صاحبة حيثية ومكانة اجتماعية بعد أن كانت امرأة ليل..

وما أن تشتهر المرأة من هؤلاء وتسلط عليها الأضواء حتى يسعى ورائها رجال الأعمال والنمور السمان منفقين الغالى والنفيس عليها، بانين لها القصور ومشترين لها أحدث السيارات فتكون بهذا قد استردت ما أنفقته وزيادة..

ومثل هؤلاء الذين دخلوا عالم المال ليسو سوى مجموعة من اللصوص والسماسرة الذين لم يبذلوا جهداً فى جمع هذا المال، وما ينفقونه على أمثال هذه الساقطات يستردونه بسرعة من أموال الشعب المغلوب على أمره والتى تنهب بلا حساب ..

ونشرات الأخبار لابد وأن تفتتح بأخبار الفرعون الحاكم والتأكيد على وجوده على قيد الحياة، وأنه سوف يظل كاتماً على أنفاس المصريين إلى أن يتوفاه الله، وإن كان الله قد أطال فى عمره فهو دليل بركة لا دليل نقمة وغضب إلهى ..

وهى تقوم باختيار الأخبار التى ترضى الفرعون وتتفق مع سياسته والتعتيم على الأخبار الأخرى التى لاترضى سيادته..

وتركز هذه النشرات على الإنجازات الحكومية التى تجمل الحكومة فى أعين الناس وقد تتطرف فتذكر بعض الأخبار العالمية التى لاتهم الناس فى شئ ..

ولا تنس هذه النشرات الأخبار الرياضية والفنية التى ترح القلوب وتبهج النفوس وتنسيهم بؤس الواقع وأكاذيب الحكومة..

وهى تكون أشد تطرفاً حين تستعرض الصحف اليومية حيث تتلوا على المشاهدين بعض من الأخبار التى حوتها وهى أخبار منتقاة بالطبع ومعلم عليها بقلم الرقيب حتى لا يضل المذيع عنها فيخرب بيته..

ومن باب الديمقراطية وحرية الرأى تستعرض صحف المعارضة وتتلوا الأخبار المعلم عليها وهى أخبار محلية فى الأغلب ولا تشكل أهمية..

والتلفاز المصرى تسيطر عليه عائلات المسئولين وكبار المذيعين الذين يقومون بتعيين أبنائهم وأقاربهم فيه، وهذه السياسة ترضى جهاز الأمن المهيمن وتريحه حيث تضمن له استمراره على السياسة المرسومة ..

وهو بهذه الصورة يمارس أعظم صور الاستخفاف بالمصريين ..

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العديد من المذيعين المصريين وبعض الممثلات قد فروا من التلفاز المصرى نحو القنوات الفضائية التى يهيمن عليها السعوديون فى الغالب، ونتج عن هذا صبغ هذه القنوات بالصبغة المصرية المائعة و السفيهة ..

وهناك واحدة من الممثلات الفاشلات ـ تنتمى للبهائية – تزوجت ثرياً سعودياً أقام لها قناة تولت إدارتها وحشوها بالتفاهات والسفاهات ..

وقد دخل العديد من رجال الأعمال المشبوهين الذين لا تعرف مصادر أموالهم مجال القنوات الفضائية مستعينين بعناصر مصرية ..

واستقطبت هذه القنوات من أجل هذا الدور كتاب المقاهى وسفهاء القلم والصحفيين الفاشلين ومن لاعمل له، كما استقطبت عناصر الجماعات السلفية من حملةالأسفار والفقهاء الصغار ليعبثوا بالدين ويشوهوه ومنحتهم الرتب والألقاب، كما منحت العديد ممن لا وزن له رتبة مفكر وخبير وداعية..

والتلفاز المصرى الحكومى أشبه بتكية نسائية لا دور للرجل فيها وهذا من بركات الست زوجة الفرعون التى حشرت أعوانها فى كل أركانه..

والمخرجون وكبار المسئولين فيه قد حولوه إلى قصر للملذات، حيث يستمتعون فيه بالطامحات من الممثلات والراقصات والموظفات اللاتى يسعين إلى دخول عالم الشهرة والمجد، حتى أنه وصل الأمر بمضاجعة بعضهن فى دورات المياه..

وحتى اليوم لازال يرفض وجود مذيعة محجبة بين مذيعاته المتهتكات رغم كونه يتمسح بالدين فى كل مناسبة، فى الوقت الذى حرص فيه على إبراز العناصر المسيحية ضمن مذيعيه من باب الوحدة الوطنية..

ولازال أيضاً يعرض المسلسلات الأجنبية الإباحية التى تصطدم مع قيم المجتمع فى الوقت الذى يرفض فيه عرض المسلسلات النظيفة الهادفة..

ثانياً: السينما

وتعد السينما مرآة الواقع المصرى التى تكشف الوجه القبيح لهذا الواقع وتعرى المصريين أمام العالم، وقد قدمت لنا أدق تصوير له وللشخصية المصرية، وكشفت لنا مدى الفساد المتغلغل فى داخله، كما كشفت لنا أيضاً مدى ضعف الشخصية المصرية وسفاهتها وميلها الدائم إلى اللهو والبعد عن الجد، والتهافت على الوسائل السريعة والطرق الرخيصة لخطف الرزق، والميل إلى الهروب من الواقع باللجوء إلى الخمر والمخدرات، وسرعة انحطاطها وكفرها بالله إذا ما زادت عليها الضغوط..

وفى الوقت نفسه عرت نفسها والعاملين فى دائرتها والحياة الماجنة التى يعيشونها من سكر وعربدة، والثمن الذى يدفعونه من أجلها..

ومثل هذا الدور الذى تقوم به السينما والذى لم يصدر أى رد فعل فى مواجهته من قبل المصريين والمسئولين إنما يعكس لنا حالة الاستهتار واللامبالاة عندهم، وهو يعكس لنا أيضاً ضعف الانتماء ..

ولعل هذه الصورة القبيحة للسينما والتمثيل بوجه عام هى التى دفعت بالعائلات فى الماضى إلى محاربته ونبذ العاملين فى محيطه، حيث كانوا يطلقون على الممثل اسم المشخصاتى، ويرفضون الاعتراف به أو قبول شهادته وتزويجه من بناتهم ، وهو ما عملت السينما المصرية على محوه من أذهان الناس من خلال العديد من الأفلام ..

وسبب هذا الموقف يعود إلى كون هذه المهنة تأسست على يد اليهود والمسيحيين الوافدين على مصر ..

ويعود أيضاً إلى أن مهنة التمثيل أو التشخيص كانت تجتذب عادة الساقطات من الغوازى والعاهرات، والساقطين من الفاسقين والمخنسين والمائعين الذين يكتظ بهم المجتمع المصرى ..

ولا تزال هذه المهنة حتى اليوم لا تجتذب إلا هذه الأصناف من الرجال والنساء من الفاسقين والعابثين الذين لا يشغلهم شئ ولا يصلحون لشئ ..

وحكايات هؤلاء الذين أطلق عليهم الإعلام المصرى لقب النجوم تتهافت عليها الصحف الرخيصة التى تخصصت فى رصد أخبار ومنكرات هؤلاء، كما أن تاريخهم ووصولهم إلى هذه الدرجة العالية من التركيز الإعلامى المتعمد والمرسوم معروف للجميع، فكما ركز الإعلام عليهم وأسهم فى شهرتهم عراهم من جانب آخر وفضحهم..

والسينما المصرية أقرت بهذا واعترفت به فى العديد من أفلامها حيث كشفت لنا فداحة الثمن الذى تدفعه المرأة من أجل الوصول إلى النجومية ..

ولعل هذا ما دفع بالعديد من نساء السينما بعد أن كبرن وانسحبت الأضواء عنهن إلى الاعتزال والتوبة ..

وعلى الرغم من قناعة المجتمع المصرى بجميع طبقاته بانحطاط هذه الفئات التى تعمل فى مجال الرقص والتمثيل والغناء، إلا أنه يتهافت عليها ويخشع لها، كما يطاردها أبناء الذوات من البنين والبنات..

وتصر الأفلام المصرية القديمة على حشر عدد من أصحاب اللحى من كبار السن غالباً وسط الخمارات، وتركز الكاميرا عليهم وهم يتناولون الخمور، أو يرقصون، أو يتفرجون على الراقصات وهم فى غاية النشوة والسرور..

والمشاهد للفيلم المصرى يجد صورة مزرية مهينة تقدمها السينما لتاريخ مصر والدين والشخصية المصرية والمرأة على وجه الخصوص ..

ويمكن اعتبار أن ما تقدمه هو الواقع والحقيقة المرة، إلا أن ذلك لا ينفى أن هناك جانب من الزيف والتضليل فى عرض الحقائق المتعلقة بالدين وتاريخ مصر..

فليس من المعقول التسليم بأن الراقصات وبنات الليل كان لهن دور بارز فى الحركة الوطنية وقد كن يقمن بالترفيه عن الإنجليز ومضاجعتهم ومثل هذا التصور يمثل إهانة لمصر والمصريين ..

وليس من المعقول التسليم بأن الشعب المصرى كان فى غليان دائم وثورات مستمرة ضد الإنجليز، فقد كان المصريون فى واد آخر كعادتهم وهو واد الفقر الذى يشغل كل أوقاتهم، ويحصر نشاطهم فى السعى للحصول على لقمة العيش، وهو ما جعل محاولات الثورة والمقاومة تكون على استحياء ودون تأثير..

والمقاومة الوطنية للإنجليز لم تبرز فى مصر إلا فى فترة العشرينيات أى بعد أكثر من خمسين عاماً من الاحتلال، وكانت مقاومة ضعيفة ومحدودة لكن السينما عملت على تضخيمها..

وليس من المعقول التسليم بأن قوة الشرطة والمخابرات المصرية لا تقهر وهى تتحلى بذكاء خارق كما تحاول تصوير ذلك السينما المصرية، ولو كان هذا التصور صحيحاً فما هو سر انتشار تلك الجرائم وحالة الخلل والفساد التى تلازم المجتمع المصرى من قديم ..؟

وإذا كانت المخابرات المصرية بتلك القوة والذكاء فما هو سبب الهزائم المتتالية التى منيت بها مصر على يد إسرائيل.. ؟

وقد عمدت السينما المصرية على تصوير المرأة على أنها عاهرة، فلا تجد إمرأة تؤدى دور فى فيلم خادمة كانت أو مدرسة أو طبيبة وخلافه إلا وتكون عاهرة سهلة المنال تلهث وراء الرجل من أجل الحصول على ليلة حمراء..

وترى المرأة تمثل دورها فى المضاجعة بشوق وشبق شديد وهى مجردة من ملابسها وبدا وكأنها فى الحقيقة، وهى فى الحقيقة لا تفعل ذلك ..

وترى البطل يقبل البطلة قبلة ساخنة ويحتضنها بشوق وهى تبادله الشوق فى الطريق العام وأمام المارة أو فى الحديقة العامة أو على شاطئ البحر الأمر الذى لا صلة له بالواقع..

ومثل هذا الذى يحدث بين الرجل والمرأة على الشاشة المصرية يفوق ما يحدث فى هوليود ويتعدى حدود القيم والأخلاق وحدود الرشد ..

ولم يكن هذا الأمر يعنى الحكومة فى شئ بعد أن سلمت الرقابة على المصنفات الفنية إلى الشيوعيين واللادينيين، ممن لا صلة لهم بالقيم والأخلاق وهوية المجتمع..

كان ما يعنى الحكم الناصرى هو محو وتشويه العصر الملكى بكل صورة ممكنة، والتركيز على الدعاية للنهج القومى الإشتراكى، فكانت الأفلام المصرية القديمة التى تم إنتاجها فى العصر الملكى يتم تسويد صورة الملك فؤاد أو فاروق إذا ظهرت فيها، وهو تصرف ساذج نتيجته هى لفت الانتباه أكثر إلى صورة الملك ولو تركت الصورة على حالها لكان أفضل، ثم تم إنتاج أفلام جديدة تهدف إلى تشويه الحكام السابقين وعلى رأسهم الخديوى إسماعيل الذى أظهروه فى فيلم:(ألمظ وعبده الحامولى) كزئر نساء لا يعنيه شئ سوى الرقص والغناء، وقد عطل الحملة العسكرية على السودان بسبب انشغاله بألمظ التى كانت تستحم ويريد التلصص عليها من باب الحمام ..

هذا فى الوقت الذى حوت فيه مجموعة الضباط الذين سموا بالأحرار أكثر من زئر طاردوا نساء الأسرة الحاكمة وأكملوا بالراقصات والممثلات وغيرهن..

وكان على رأس هؤلاء الساعد الأيمن لعبد الناصر وهو عبد الحكيم عامر المتسبب الأول فى هزيمة يونيو عام (1967م)، وقصته مع المطربة الجزائرية مشهورة مما دفع بعبد الناصر إلى إصدر قرار بترحيلها من مصر ..

وله قصة أخرى مع ممثلة إغراء انتهت بالزواج منها..

وقد تم اكتشاف العديد من نساء السينما والراقصات فى أحضان كبار الضباط ليلة هزيمة يونيو..

وغير هذا كثير مما كشفته واحدة من هؤلاء النسوة وهى اعتماد خورشيد فى كتاب أصدرته بعد رحيل عبد الناصر..

وقد ركزت السينما فى عهد عبد الناصر أيضاً على تذويب الفوارق بين الطبقات عن طريق الحب وذلك بعرض أفلام تحكى قصة حب بين بنات الطبقات الراقية وأبناء الطبقات الفقيرة أو بين شاب قبيح الوجه وفتاة بيضاء جميلة..

وفى عصر السادات برزت العديد من الأفلام التى تشوه عبد الناصر وتركز على صور الفساد التى كانت سائدة فى فترة حكمه ومن هذه الأفلام:

الكرنك، وزائرالفجر، وطائر الليل الحزين، واحنا بتوع الأتوبيس، والقطط السمان وغيرها..

ومن صور السفاهة السائدة فى السينما المصرية تركيزها الدائم على الخمور والخمارات التى تدور فيها الكثير من حوادث الأفلام، حيث نرى البطل كلما واجه مشكلة غرامية أو اجتماعية أو مالية لجأ إلى الخمارة ليحتمى بخمرها وينسى بفضلها مشاكله وهمومه كذلك بيت البطل لا يخلو من (بار) يلجأ إليه ما بين الحين والآخر..

والغريب أن السينما تردد دائماً على لسان البطل وهو يحتسى الخمر ويقرع بكأسه كأس صاحبه الذى يشاركه الشراب مقولة: **فى صحتك** ..

وتصور السينما وكذلك التلفاز أيضاً البطل وهو يعيش فى قصر عظيم، أو فيلا راقية، مما يعد صورة من صور التضليل عن الواقع، كما تصوره وهو بحوزته سلاحاً على الدوام يقتل به ويسرق إذا لزم الأمر، وهذا يعد إشارة إلى تركيبة المجتمع المصرى المتنافرة والتى تؤدى على الدوام إلى تصادم المصريين ببعضهم وتقاتلهم من أجل الفتات، بينما تركوا الفرعون ينعم بالجمل وما حمل ..

كذلك تركز السينما المصرية على الراقصات وتعمل على تجميلهن وتبديد الصورة العالقة فى الأذهان عنهن..

وأصبح الفيلم المصرى لا يخلو من راقصة يسلط المخرج آلة التصوير على صدرها تارة، وفرجها تارة، ومؤخرتها تارة وبصورة فاضحة..

ولقد أرخت السينما لتاريخ مصر من خلال سيقان النساء وهو ما نراه بوضوح من خلال ثلاثية نجيب محفوظ: **بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية** ..

وما نراه أيضاً من خلال الأفلام التى ركزت على تاريخ الراقصات والأدوار المزعومة التى لعبوها فى المحيط السياسى والاجتماعى مثل أفلام: **شفيقة القبطية، وبديعه مصابنى، وبمبه كشر، وامتثال، ودلال المصرية وغيرها** ..

كذلك الأفلام التى ترجمت قصص إحسان عبد القدوس ويوسف إدريس وغيرهما.. وتسعى السينما المصرية إلى التأكيد على أن الشعب المصرى جاهز للرقص فى أى وقت بمجرد أن يسمع صوت الطبلة والمزمار سرعان ما ينتفض راقصاً غير مبالٍ بشئ..

والسينما المصرية رغم تفاهتها وسطحيتها نجحت إلى حد كبير فى تشخيص الواقع المصرى البائس المتطاحن والمتردى، وكشف الوجه الحقيقى للشخصية المصرية، وهى قد أكدت لنا من جانب آخر أن هذا الشعب لم يفلح فى شئ سوى فى قرع الطبول ونفخ المزمار..

وهناك العديد من الأفلام القديمة التى شخصت الحالة الاجتماعية البائسة للمصريين بدقة منها:

اليتيمتان، وأولاد الفقراء، والجريمة والعقاب، وكأس العذاب، والبؤساء، والحرام، وبداية ونهاية وأولاد الشوارع وغيرها..

والسينما الحديثة هى أدهى وأمر فقد استغلت حالة الانفتاح، وتخفيف الضغوط الرقابية فى إبراز صورة هى أشد قبحاً من الصورة التى أبرزتها السينما القديمة عن مصر والمصريين، خاصة الطبقات الجديدة التى برزت فى الواقع المصرى، وعلى رأسها طبقة رجال الأعمال وأنشطتهم المشبوهة، بالإضافة إلى التركيز على الفساد المستشرى فى كل مكان، وحالة التردى والانحطاط التى تعيشها المرأة المصرية وشيوع الإدمان، وحالة الفراغ والضياع الذى يعيشه جيل الشباب ..

والمسرح المصرى لا يختلف عن السينما فى شيء، وهو لا يقل عنها تفاهة وسطحية..

والممثل المصرى والذى يحظى بمكانة عالية اليوم ويتقاضى أجوراً خيالية بالملايين، عكس الماضى، يتميز بأمية شديدة كحال بقية الشعب، فهو لا يقرأ ولا يفكر ولا يشغله شئ سوى التمثيل وجنى المال واللهو والانغماس فى الملذات، بينما يحاول الإعلام المصرى التأكيد على أنه يشقى ويكدح ويعانى كثيراً فى مهنته، وكل ذلك الهدف منه تبرير الأجر الكبير والذى يعد خيالياً بالنسبة لأفراد الشعب المطحون الذى لا يجد الفتات..

وإذا كان الممثل يشقى ويتعب فإن العامل والطبيب والمهندس والمعلم وغيرهم يشقون أكثر فهل يصل دخلهم إلى عشر دخله..؟

والوسط الفنى كما يسمونه يسيطر عليه القوادون، من كبار الموظفين فى التلفاز وعالم الإنتاج الذين يتاجرون بالنساء لصالح أمراء النفط وأثرياء الخليج، وأصحاب النفوذ وغيرهم من كبراء الزمان ..

وقد كشفت مجلة روز اليوسف عن هؤلاء فى عدد لها ظهر وعلى غلافه مانشيت كبير بعنوان: القوادون، وقد أثار هذا العدد ضجة كبيرة أدت إلى القبض على مسئول كبير فى التلفاز وتقديمه للمحاكمة ..

إلا إنه بعد ذلك بفترة تم إقالة رئيس تحريرها ورئيس مجلس إدارتها، وتم الإفراج عن المسئول ليتسلم منصباً كبيراً فى مدينة الإنتاج الإعلامى ..

وهناك الكثير من الفضائح المتداولة والمخزية التى تتعلق بالممثلين والممثلات والراقصين والراقصات والمغنين والمغنيات الذين كثر فى وسطهم الشاذين والشاذات، والتى لا يتسع المجال لذكرها هنا وقد تناولتها العديد من الصحف ..

ومن أشهر هذه الفضائح شبكة الدعارة الكبرى التى تم ضبطها فى منتصف السبعينيات بزعامة ممثلة عجوز ضمت مجموعة من الممثلات كان من زبائنها شخصية ليبية كبيرة..

وهناك واحدة من هذه الفضائح تتعلق بممثلة شهيرة ماتت منتحرة مؤخراً، وتتلخص هذه القصة فى أنها أسرفت كثيراً فى الشراب يوماً واشتد عليها الشبق الجنسي، ولم تجد أمامها سوى واحد من العمال فأخذته ليبيت معها ولما استيقظت فى الصباح ووجدته إلى جوارها قامت بطرده من غرفتها، ثم قررت التنكيل به حتى لا يفضحها فسعت فى طرده من العمل، ولفقت له تهمة قبض عليه بسببها فأصابه خبل وأصبح بعد ذلك شريداً فى الطرقات يعرف بمجنون سعاد..

وهناك قصة لمطرب شعبى اشتهر فى فترة السبعينيات وكان فى الأصل يعمل بائعاً للتسالى ـ أى البزور والفول السودانى ـ على باب إحدى دور السينما، حيث تم ضبطه مع امرأة خليجية من عائلة كبيرة، وعوقب من قبل أفراد العائلة بقطع زكره..

وهناك مخرج قديم كان يطلق عليه شيخ المخرجين، كان زئر نساء من الدرجة الأولى، وقد وجد مقتولاً فى بيته وبرفقته طالبة جامعية زج بها فى بعض أفلامه، وبعد مصرعه غابت عن الأضواء ..

ومخرج آخر كانوا يلقبونه بمخرج الروائع كان زئر نساء أيضاً، وكانت له شقة خاصة بوسط القاهرة يقضى فيها شهواته ..

ومخرج شهير يطلقون عليه المخرج العالمى يتباهى بكونه من الشاذين العاشقين للولدان..

وهناك مطرب شاب اشتهر بسبب ارتباطه بمطرب راحل شهير وجد ملقى على الطريق وهو ميت نتيجة جرعة من الهيروين ..

وملحن شهير له علاقاته النسائية الواسعة مع المطربات المحليات والوافدات ماتت فى شقته مطربة مغربية مغمورة بسبب جرعة هيروين كانت تتناولها بينما يمارس معها الجنس، وتم التخلص منها بإلقائها عارية من شرفة الشقة فى الطريق العام، ولما فتح التحقيق فى القضية نصح أحد رفقاء الملحن، وهو قاض، وكان من الحاضرين جلسة العربدة، نصح الملحن بالفرار من مصر ففر منها إلى لندن وظل فيها حتى تم تسوية القضية وحكم له بالبراءة..

وممثل عجوز وصل إلى درجة وكيل وزارة كان زئر نساء ولا يكف عن مطاردة الفتيات فى الشوارع رغم ما يلقى من إهانات، وعندما تسلم رئاسة نقابة الممثلين فتح الأبواب على مصارعها للمومسات والراقصات للدخول إلى عالم التمثيل بعد أن دفعن الثمن مقدماً ..

وهناك العديد من الممثلات والراقصات قد قمن بتصوير أفلاماً جنسية فى بيروت فى فترة السبعينيات، كما أن العديد منهن لا تزال تقوم برحلات خاصة لأمراء النفط الطالبى المتعة والترفيه، ومعظم ثرواتهن مصدرها هذه الحفلات الماجنة ..

هذا بالإضافة إلى فضائحهم فى مجال الإدمان والسكر وخلافه، وفضائح هؤلاء لا تكفيها مجلدات، ويعرفها القاصى والدانى ..

ومن المضحك أنه لا تزال فى إوساط هؤلاء نساءً تجاوزت الخمسين والستين عاماً تدعى أنها لاتزال بكراً وتبحث عن إبن الحلال ..

لقد صنع المصريون لأنفسهم صنماً أسموه الفن وبرروا بواسطته شتى صور الفسق والفجور والكذب والتضليل، وباسمه تعرت المرأة واستبيح جسدها، وباسمه أيضاً أضفيت المشروعية على الغناء والرقص والسكر وشتى صور المجون، وببركاته أصبح المهرجون والسفهاء والساقطات سادة المجتمع وقدوته..

ثالثاً: الصحـــف

وكانت الصحف المصرية كثيرة فى العصر الملكى حيث كان من حق أى مصرى أن يصدر صحيفة باسمه ..

وفى العصر الجمهورى تم إلغاء الصحف الفردية وإغلاق الصحف الأخرى، وضم صحيفتان منهما إلى الحكومة لتكون تحت إشرافها وهما: صحيفة «الأهرام» وصحيفة «الأخبار» ثم صدرت بعدهما صحيفة أخرى هى صحيفة «الجمهورية» لتصبح الصحف الحكومية اليومية ثلاث ..

وقد استمرت هذه الصحف الثلاث بلا منافسة حتى جاء السادات وفتح الأبواب لعودة الأحزاب التى عملت على إصدار الصحف الخاصة بها فظهرت صحيفة «الوفد» الناطقة بلسان الحزب، وظهرت صحيفة «الأحرار» الناطقة بلسان حزب الأحرار، وظهرت صحف حزبية أخرى أسبوعية كصحيفة: الشعب الناطقة باسان حزب العمل الذى تم حله، وصحيفة مايو الناطقة بلسان الحزب الوطنى الحاكم، وصحيفة العربى الناصرى الناطقة بلسان الحزب الناصرى، ثم ظهرت صحف أخرى كثيرة مع ظهور العديد من الأحزاب الجديدة..

ومع ظهور قوة رجال الأعمال والتوسع فى حركة الاستثمار وهيئات المجتمع المدنى برزت العديد من الصحف اليومية والأسبوعية التى يقف من ورائها بعض رجال الأعمال وجهات أخرى محلية وأجنبية ..

وهكذا كان انتشار الصحف فرصة للقضاء على البطالة التى كانت سائدة بين الصحفيين والمغامرين وخريجى الجامعات، وأصحاب الطموحات من القصاصين والوصوليين، وأصحاب التوجهات والتيارات المعارضة للحكومة، والتيار الإسلامى لتبرز على الساحة العديد من المعارك وتصفية الحسابات وصور الابتزاز والإتجار بالقيم والأعراض..

وظهرت أيضاً العديد من الصحف الدينية التى أصدرت بعضها الأحزاب والمؤسسات الحكومية كمحاولة منها لسحب البساط من تحت التيار الإسلامى مثل صحيفة «عقيدتى» التى تصدر عن مؤسسة «الجمهورية» الحكومية ..

وصحيفة «اللواء الإسلامى» التى تصدر عن الحزب الوطنى الحاكم ..

بالإضافة إلى الصحف التى تصدر عن المؤسسة الدينية مثل:

مجلة «الأزهر» التى تصدر عن مؤسسة الأزهر منذ الفترة الملكية، وكذلك جريدة «صوت الأزهر» التى صدرت مؤخراً..

ومجلة «منبر الإسلام» التى تصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية التابع لوزارة الأوقاف ..

هذا بالإضافة إلى المجلات التابعة للطرق الصوفية مثل:

«التصوف الإسلامى» التى تصدر عن مشيخة الطرق الصوفية والمسلم والإسلام وطن..

وفى مواجهة الصحف الإسلامية برزت العديد من الصحف المسيحية منها:

صحيفة «وطنى» الأسبوعية ومجلة الحياة القبطية الأرثوذكسية..

كذلك كانت هناك بعض الصحف اليهودية منها: إسرائيل الأسبوعية التى كانت تصدر باللغة العربية والعبرية والفرنسية، والحرية التى كانت تصدر باللغة الفرنسية والفجر والصوت اليهودى وغيرها..

والصحف الحكومية ثابتة على سياستها القديمة التى تتركز فى نشر تصريحات الفرعون فى الصفحة الأولى، ونشر تصريحات المسئولين عن تخفيف الأعباء عن الجماهير، ومواجهة زيادة الأسعار، وتوفير السلع فى الأسواق، وحل مشاكل الشباب وأزمة الإسكان والقضاء على البطالة، وغيرها من التصريحات المكررة منذ عقود طويلة دون أن يتحقق منها شئ ..

وأباطرة الصحف الحكومية الذين يسيطرون عليها منذ عقود قد دخلوا عالم الأثرياء لتوفيرهم للفرعون الغطاء وهو بدوره قد أجزل لهم العطاء..

وحين وقع حادث أديس أبابا والمحاولة الفاشلة لاغتيال الفرعون خرجت هذه الصحف تقول: الشعب أصيب بصدمة..

وهذه الصحف كما هو حال التلفاز مسخرة للحزب الوطنى الحاكم وتغطى كل نشاطاته ومؤتمراته خاصة بعد أن برز على رأسه ابن الفرعون..

والمتابع لصحف المعارضة والصحف الخاصة فى مصر يصاب بدهشة شديدة من كم الأخبار المفزعة، والجرائم المتعاقبة وقضايا الفساد التى تؤكد فى دلالة قاطعة أن المجتمع المصرى فى طريقه إلى الإنهيار أو هو قد انهار بالفعل ..

ويكفى نشر خبر واحد من هذه الأخبار المفزعة لإحداث ثورة فى أى بلد آخر إلا مصر التى تنتظر دائما التغيير من فوق ..

وسوف نعرض لنماذج من هذه الأخبار ضمن ملاحق الكتاب..

وبالطبع لابد وأن يحدث هذا الوضع صداماً مع الصحف الحكومية التى تدافع عن الفرعون وتكذب مثل هذه الأخبار، وتعدها مغرضة تقف من ورائها القوى المعادية والمتربصة بمصر..

والحرب بين الصحف الحكومية والصحف الأخرى لا تنتهى وهى مستمرة بلا توقف وتزداد اشتعالاً إذا ما حاولت بعض هذه الصحف المساس بالفرعون الحاكم..

وموقف الصحف الحكومية التى يهبط مستواها يوماً بعد يوم ليس بريئاً، كما أن موقف الصحف الأخرى أيضاً لا يمكن الحكم ببرائته، فهو موقف مأجور لافتعال معارك بين الحين والآخر لتحقيق مكاسب معينة للجهات التى تقف من ورائها ..

وقد شنت العديد من هذه الصحف حرباً شعواء على الشيعة لحساب جهات سعودية وهابية، كذلك هى مستمرة فى شن حروب على رجال الإعمال لحساب رجال الأعمال الآخرين الذين يقفون ورائها..

وبعض هذه الصحف من صنع الأمن القومى المصرى وتقوم بدور استطلاعى للرأى العام، فتسرب لها بعض المعلومات مابين الحين والآخر لإحداث ضجة إعلامية، وقياس ردود الأفعال التى تنتج عن نشر هذه المعلومات ..

والصحف فى مصر عموماً تفرد صفحات عديدة لأخبار الممثلين والمغنين والراقصات ولاعبى الكرة والإعلانات التجارية والتسالى، بينما لاوجود على صفحاتها للموضوعات الجادة والفاعلة إلا إذا كانت تخدم توجهاتها وتعود عليها بالفائدة ..

والصحف الحكومية - خاصة الأهرام - تفرد الصفحات الواسعة للوفيات والعزاءات للموتى من المسلمين والمسيحيين، تلك العزاءات التى تعد صورة من صور التبزير فى الوقت والمال، والتفاخروالدعاية لعائلات الموتى الذين يستثمرون الإعلان فى ذكر أسماء السابقين للميت، والعائشين من أقاربه ومناصبهم ونسبهم ..

وقيمة الإعلان وحجمه هى التى تحدد مكانة المتوفى ومركز عائلته، وتعلو قيمة المتوفى إذا ما كان من رجال الحكم أو رجال الجيش أو الشرطة، فمثل هذا تنهال على عائلته إعلانات التعازى من المسئولين، وتفرد لها مساحات خاصة وتكتب بخط عريض..

ولا تقتصر هذه الإعلانات على فترة الوفاة فقط بل تمتد إلى ذكرى الأربعين والذكرى السنوية الأولى والثانية والثالثة وهكذا ..

ومما يجدر ذكره هنا أن الإعلانات الخاصة بالأحياء والأموات تهدر بسببها ملايين الجنيهات على مدار العام فى بلد لا يجد فيه الأحياء قوت يومهم ..

والحديث عن الإعلانات يقودنا إلى كشف صور الدعارة والإتجار بالفتيات فى هذا المجال حيث يتم استثمارهن جسدياً من أجل كسب العميل وتوريد أكبر قدر من الإعلانات للشركات اللاتى يعملن بها، هذا مع الإشارة إلى أن العديد من فتيات الإعلانات قد تحولن إلى نجمات فى عالم السينما.

والصحافة المصرية حكومية وغير حكومية صحافة مستهترة ولا يضيرها أن تنشر غسيلها الوسخ أمام الناس وعلى الملأ، ومن هوايتها نشر الفضائح حتى ولو كانت تعرى مصر التى يتغنون بها..

والكثير من الصحفيين قد تم تجنيدهم من قبل جهاز الأمن القومى، خاصة العاملين منهم فى الصحف الحكومية، وعلى رأسها صحيفة الأهرام التى يعد مركز الدراسات الاستيراتيجية التابع لها أحد واجهات هذا الجهاز..

والصحافة المصرية تطبق المثل القائل: **إذا وقع العجل كثرت سكاكينه ..**

تطبق هذا المثل على من يقع من الناس والمسئولين وتنال من أعراضهم، ولا تترك صغيرة ولا كبيرة تحط من شأنهم إلا وذكرتها..

وإذا ما ثبتت براءة هؤلاء وتبين كذب كل ما قيل فيهم يعتمون على الأمر وكأن شيئاً لم يكن، وحينما تقرر نشر خبر البراءة تنشره فى ركن صغير لا يرى، هذا فى الوقت الذى كانوا ينشرون فيه الفضائح بالخط العريض وفى أماكن بارزة..

وترى الصحف المصرية تنشر خبراً مثيراً جاذباً وبالخط العريض على صفحتها الأولى، إلا أنه بمجرد قراءة الموضوع المتعلق بالخبر لا تجد شيئاً، ويتبين لك أن هذا الخبر ليس سوى

طريقة ملتوية لجذب القراء، وهى صورة من صور الخداع التى تمارسها هذه الصحف والتى تكشف لنا طبيعة الشخصية المصرية المعوجة ..

ونتيجة لهذه السياسة الإعلامية السفيهة التى جعلت شغلها الشاغل هو تمجيد الفرعون وحاشيته والمطربين والراقصات والتافهين والساقطات، والمنافقين، ولاعبى الكرة، والتى أدت فى النهاية إلى تحويل هؤلاء إلى أصنام مما أصابهم الغرور وظنوا أنهم فوق الجميع، أصيب المواطن المصرى بالإحباط وتعطل عقله مما أوقعه فريسة الأمراض النفسية ودفع به إلى الهروب من الواقع وركوب أعالى البحار، وتعريض حياته للخطر من أجل الوصول إلى موطن آمن يشعر فيه بذاته، ويحصل فيه على رزقه الذى حرم منه فى موطنه ..

وقد قررت الحكومة مؤخراً تجديد الأبواق وتغيير الوجوه القديمة فى الصحف الحكومية بعد أن أفلست و فاحت رائحتها، وفتحت الباب للعديد من الوجوه الجديدة لترأس هذه الصحف، تلك الوجوه التى لم تكن تملك الخبرة أو المقومات التى تؤهلها لتولى هذه المسئولية، فقط ما تملكه هو الطاعة والولاء والإيمان بكفاءة ابن الفرعون ..

وهذه الوجوه الجديدة التى كانت تخدم الوجوه القديمة بتفانٍ وإخلاص لم تكن تحلم بالجلوس إلى جوارها فضلاً عن أن تحل محلها ..

ومن هنا انبرت الصحف الحكومية بإدارتها الجديدة تدافع عن الفرعون وولده بحماسة منقطعة النظير وتبررالفشل الحكومى وشيوع الفساد والتفاوت الطبقى ..

والحديث عن الصحافة المصرية يقودنا إلى الإشارة للدور السعودى والعراقى والليبى فى محيط الصحف المصرية حكومة ومعارضة، ذلك الدور الذى أدخل العديد من الصحفيين عالم الأثرياء ..

وهناك واحد من الصحفيين المغمورين كان والده كاتباً سينمائياً، تمكن بواسطة الدعم السعودى من إصدار عدة صحف ومجلات ليلمع اسمه فى مجال الإعلام، ويتولى إدارة قناة سعودية كبيرة ..

وهناك واحد آخر من أولئك المغمورين من الصعيد المحسوب على الناصريين، كتب كتاباً للقذافى وأصدر صحيفة أسبوعية فى مصر، ثم عمل لصالح صدام، وهو لا يزال يدافع عنه إلى الآن، وهناك نماذج أخرى كثيرة..

وكان صدام قبل غزوه الكويت بعشرة أيام أرسل إلى مصر هدية لكل رؤساء تحرير الصحف المصرية، وكذلك أفراد العائلة الحاكمة ورجال الفرعون، وكانت هذه الهدية هى سيارة مرسيدس حديثة وخالصة الرسوم الجمركية ..

العقـــل الثقافـــى

وتعد الحركة الثقافية من أضعف الحركات وأقلها شأناً بين المصريين المربوطين فى ساقية الفرعون المشغولين بتحصيل لقمة العيش..

والحقيقة التى يجب التأكيد عليها هنا هى أن الذين وضعوا حجر الأساس للحركة الثقافية المصرية كانوا من المسيحيون واليهودوالوافدين من غير المصريين كما هو الحال بالنسبة للمسرح والسينما والموسيقى..

فعلى مستوى المسرح والسينما والموسيقى هناك يعقوب صنوع وداود حسنى اليهوديان، وعزيز عيد وجورج أبيض المسيحيان..

وعلى مستوى الصحافة قام سليم وبشاره تقلا بتأسيس جريدة الأهرام عام 1876م..

وقام جرجى زيدان بتأسيس دار ومجلة الهلال..

وقام سليم سركيس بتأسيس مجلة المشير..

وقام شبلى شميل بتأسيس مجلة الشفاء..

وقامت فاطمة اليوسف بإصدار مجلتها روز اليوسف ..

وجميع هؤلاء من الشوام..

وهناك العديد من العائلات الوافدة على مصر تركت بصمة واضحة فى الحياة الثقافية فيها، ومن هذه العائلات:

عائلة التيمورية التركية الأصل ..

وعائلة الإباظية التركية الأصل أيضاً ..

وعائلة البستانى المسيحية الشامية الأصل ..

هذا بالإضافة إلى أمير الشعراء أحمد شوقى التركى الأصل..

والشعب المصرى شعب غير قارئ من الأصل ونسبة الأمية فيه كبيرة والأمية الثقافية فيه.

أكبر، كما أن الثقافة المصرية ثقافة سمعية، فمن ثم هو لايحترم الكتاب بل يخاف منه ويعتبره منشوراً معادياً للحكم قد يجرعليه البلاء ويضعه فى زمرة الأشقياء ..

وهذا التصور السائد بين المصريين عن الكتاب لم يأت من فراغ، وإنما نتج عن حالة الاضطهاد الدائمة للمثقفين المصريين الذين يخشاهم النظام، ويداوم على اعتقالهم ومصادرة ما يجده بحوزتهم من كتب يراها مصدر الرؤية والمعتقدات التى تشكل خطراً فى منظوره ..

ولا يزال الكتاب يشكل مصدرخوف ومحل ارتياب دائم من قبل العقل الأمنى فى مصر على الرغم من ظهور ثورة الاتصالات وتحطيمها العديد من الحواجز التى صنعتها الأنظمة الحاكمة المتخلفة للحيلولة دون وصول المعلومة وانتشارها ..

وقد وقعت لى العديد من الصدامات مع رجال الأمن بالمطارات بسبب الكتب التى كنت أحملها معى فى سفرى، والتى كانت تستفزهم وتدفع بهم إلى مصادرتها من باب الاستسهال، فهم لا يريدون أن يكلفوا أنفسهم قراءتها ورصد ما فيها لكونهم ببساطة أميون سوف يجهدون عقولهم بلا طائل ..

والأمر الغريب أن هذا كان يحدث لى وأنا خارج من القاهرة وليس فقط وأنا قادم إليها من الخارج والكتب التى فى حوزتى من طبع وإصدار القاهرة..

وأذكر حادثة وقعت لى مع هؤلاء الأغبياء حين هبطت بى الطائرة فى مطار القاهرة ليلاً وما أن فتحت حقيبتى وظهرت منها الكتب حتى استنفر رجال الأمن وأحاطوا بى، فشككت فى نفسى وتصورت أننى وقعت فى فخ عصابات التهريب الذين يتصيدون المصريين فى الخارج ويبدلون حقائبهم بحقائب مماثلة تحوى ممنوعات، إلا أنه تبين لى أن الأمر غير ذلك وأننى جئت فى ميقات ضجة مفتعلة حول رواية «اعشاب البحر» التى تم منعها ومصادرتها من الأسواق على الرغم من كونها صادرة عن وزارة الثقافة..

وإذ برجال الأمن الأغبياء يجرون تحقيقاً معي وكأننى المسئول عن هذه الرواية، وأن وجود الكتب معى دليل قاطع على كونى من عملاء مؤلف الرواية ..

ولم أخرج من هذه المشكلة إلا بعد أن تم مصادرة ما معى من كتب وأوراق وقد كان من الممكن أن يتطور الأمر إلى مصادرتى شخصياً ..

والمصريون ينتفضون عادة مع كل كارثة وتعلوا أصواتهم وتزداد همتهم ثم ينامون بعدها فى ثبات عميق وكأن شيئاً لم يحدث، حتى أنهم لا يضعون فى حسابهم إمكانية تكرار مثل هذه الكارثة مرة أخرى ..

وهم قد انتفضوا فى مواجهة الزلزال الذى وقع بالقاهرة، والسيول التى وقعت فى الجنوب ثم ناموا بعدها، وهم قد انتفضوا فى وجهى حين حدوث زوبعة أعشاب البحر ثم ناموا بعد ذلك وهم غافلون أصلاً عن الكتب المغرضة والهدامة التى تطبع فى مصر بين الحين والآخر..

وأذكر حكاية أخرى وقعت لى مع رجال الأمن فى أحد المنافذ البرية حين كنت مسافراً إلى سوريا براً حيث تم ضبط مجموعة من كتابى: مذكرات معتقل سياسى ..

وهذا الكتاب كان يتعرض لرجال الأمن ويتهكم عليهم ..

وضبطت معى أيضاً بعض الصحف المصرية الحكومية التى تحوى أخباراً عن بعض الاعتقالات لما سمى بالتنظيم الشيعى الخمينى ..

واعتبر ضابط الأمن الغبى أن وجود هذه الكتب والصحف معى جريمة، وأننى أسعى لتشويه وجه مصر وتلويث سمعتها فى الخارج، وأنكر ما يحتويه الكتاب من معلومات صائحاً فى وجهى: إتق الله..

وكان ردى عليه هو أن هذه الصحف حكومية وما نشر فيها كان بموافقة جهاز الأمن الذى تعمل أنت فى دائرته، أما الكتب فهى تحكى تجربتى الشخصية داخل المعتقلات من سنوات مضت قبل أن تلتحق بجهاز الأمن..

وحاول الضابط منعى من السفر وقام بالاتصال بقيادته واستغرق ذلك ساعات طويلة بالطبع حتى أذن لى بالسفر بعد أن تم مصادرة ما معى من كتب وصحف ..

وترى المثقف المصرى يتحدث عن السلبيات والفساد والتدهور الإقتصادى والإجتماعى بطريقة عشوائية وفى خوف، ولا يجرؤ أن يشير إلى بيت الداء ومنبع هذا التدهور والفساد المتمثل فى الفرعون الحاكم..

والمصريون لا يميلون إلى معالجة مشاكلهم معالجة جذرية وإنما يفضلون سياسة الترقيع والحلول الجزئية لكونها السياسة التى تبعدهم عن شر الفرعون وتحقق لهم الأمن ..

ويشهد الواقع فشل النخب الثقافية فى الارتباط بالجماهير والتأثير فيهم وبدا وكأنهم يعيشون فى برج عالٍ وينظرون إليهم من علٍ ..

والنخب الثقافية فى مصر هى نخب مفلسة تتنازعها توجهات شتى تفقدها أثرها على ساحة الواقع وتجعل الحكم يستخف بها ..

والكتابات التى تصدر عن هذه النخب كتابات مهلهلة ولا صلة لها بالواقع وآلام الجماهير كتلك الكتابات المترجمة والكتابات الفلسفية ..

بل أن العديد من هذه الكتابات تستفز مشاعر الجماهير وتضرب مسلماتها العقدية كتلك الكتابات التى تتناول قضايا الدين بشئ من الاستخفاف ..

وفى مصر صرح كبير يسمونه «اتحاد الكتاب» لا صلة له بعالم الكتابة والثقافة ولا يضم بين أعضائه سوى الزجالين والقصاصين والمبتدئين فى عالم الكتابة، ولا صلة له بالمفكرين والباحثين والمؤلفين، ولا صلة لهم به..

والمثقفون المصريون سريعو التلون كما هو حال بقية الشعب، وقد تلونوا بسرعة مع السادات وانقلبوا على عبد الناصر، وتلون بعضهم أيضاً من اليسار الى اليمين، ومن اليسار واليمين إلى الإسلام..

وكبار المثقفين من اليسار واليمين الذين كانوا يناهضون السادات من الخارج الذين فروا من مصر بعد الصلح مع إسرائيل، عادوا إليها بعد أن أصدر الفرعون الحالى عفوه عنهم، وتلونوا مع النظام الجديد، وعايشوا الفساد والاستبداد وانتهاك حقوق الإنسان، والتزموا الصمت أمام ما يجرى فى مصر، والذى يعد ما جرى فى عصر السادات هو شئ يسير بالنسبة إليه..

من هنا فإن علاقة المثقف بالسلطة فى مصر علاقة متلونة حسب تركيبة الشخصية المصرية المتعددة الأوجه، ومن شذ عن قاعدة التعايش مع السلطة كان مصيره السجن أو الاعتقال، أو دخول مستشفى الأمراض العقلية كما كان يحدث فى فترة عبد الناصر التى تم فيها الزج بالعديد من المثقفين والمفكرين والعلماء ليقضوا بقية أعمارهم وسط المجانين ..

وقد فتحت الحكومة الأبواب أمام الكثير من المثقفين والكتاب والصحفيين ليدخلوا عالم الأثرياء ويصبحوا من رجال الأعمال ويلتصقوا بالمنظومة الحاكمة، وقد تزاحم الكثير منهم على هذا الباب المفتوح على مصارعه ..

والعديد من الرموز الثقافية التى برزت على الساحة المصرية وسلطت الأضواء عليها فى الفترة الملكية والجمهورية كانت من الدخلاء على عالم الفكر والثقافة وما نسب إليها من أعمال كان من صنع الغير..

وبعض هؤلاء الأدعياء والسراق لازال موجوداً يرتع فى الساحة الثقافية حتى اليوم فى مجال القصة والكتاب والشعر وعلى رأسهم صاحب كتاب: (**فى صالون العقاد**) الذى لم يكن يوماً على صلة بالعقاد ولا من مرتادى صالونه ..

والسرقات لم تكن تنحصر فى المحيط الأدبى والثقافى بل امتدت إلى الغناء والموسيقى والنصوص التمثيلية مسرحية وسينمائية وتلفزيونية، وكثير من المشاهير فى عالم ما يسمى بالفن هم فى الحقيقة لصوص سرقوا إبداعات الغير ونسبوها لأنفسهم..

وقد اقتحم الساحة الثقافية العديد من الأطباء الذين هجروا مهنة الطب ولم يفلحوا فيها من الشيوعيين والعلمانيين وغيرهم فاتجهوا إلى عالم الكتابة، ومنهم من برع فى كتابة القصة كيوسف إدريس، ومنهم من اتجه نحو الدين كمصطفى محمود..

وجاءت ثورة الاتصالات وانتشار الصحف فى مصر لتفتح الباب لكل من هب ودب من الأطباء والصيادلة ليخوض فى الدين والفكر ويخترقوا الساحة الثقافية، بل والقنوات الفضائية ..

ومما يدل على مرضية هؤلاء وانهيار القيم والضوابط العلمية أنهم يتسترون بلقب دكتور، ويتمسكون به ليوهموا القارئ أو المشاهد بقيمتهم العلمية الكبيرة، ويعد هذا صورة من صور الزيف والخداع السائدة فى الساحة الثقافية المصرية ..

إلا أن هذا كله لا ينفى وجود العديد من المثقفين المقهورين والمحبطين الذين أصبح مثلهم كمن يؤذن فى مالطه، فهم يكتبون وينقدون الشعب والحكومة فى صحف وجدت للتنفيس وتلميع وجه الحكم، وينشرون وسط شعب غير مبالٍ ولا يقرأ ..

كتب الدكتور أحمد عكاشه تحت عنوان «التشريح النفسى للمصرى» يقول:

إذا نظرنا إلى القاهرة اليوم نجدها من أكثر مدن العالم ازدحاماً، حيث تبلغ كثافة السكان حوالى ٥٣٠٠ نسمه فى الكيلو متر المربع، وهذا يعنى أن الإنسان فى القاهرة لايستطيع سوى الاهتمام بشئونه الخاصة، ولا يأمل فى أكثر من الأمان لأسرته، بغض النظر عن الوطن أو الهدف

العام، ومن ثم يفقد الانتماء الوطنى والهادف، فالجملة المشهورة " هوانا حاصلح البلد وحدى " او " كلهم بيعملوا كده، هاعمل زيهم " هو الشعار السائد، والكثير من الشخصيات المصرية تتصف بالاتكالية السلبية المتمركزة حول الذات، وهو مانراه فى تنشئة الطفل وحتى الوزير فى مسئوليته الكبيرة لايقدم على خطوة إلا بعد التأكد من انها من توجيهات الحاكم او حرم الحاكم ..

ونشر طارق حجى كتاباً يحوى مجوعة مقالاته النقدية للحالة الثقافية والاقتصادية والادارية والدينية فى مصر تحت عنوان: «**نظرات فى الواقع المصرى**» قال فيه تحت عنوان: الحزب الواجب هدمه: أكبر تجمع بل أكبر حزب يتمتع بأكبر عدد من الأعضاء، وأوسع دائرة من دوائر الذيوع والشيوع والانتشار، ليس حزباً سياسياً، ولا تجمعاً فكرياً أواجتماعياً أو دينياً، إنما هو حزب الحقد والضغينة والبغضاء والشحناء، والحزب المذكور حزب قديم كان له الدور الأعظم فى تشتيت جهادنا الوطنى عبر سنوات طوال، وكان له الدور الأكبر فى هدم وتحطيم عشرات المحاولات الوطنية فى تاريخنا الحديث ..

ووضع فصلاً تحت عنوان: **مأساة الثقافة والتعليم فى مصر ..**

وفصلاً تحت عنوان: **الأمية ذلك العار الوطنى ..**

وفصلاً آخر تحت عنوان: **مشروع قومى لإصلاح طبيعتنا ..**

وحدد حجى معوقات الادارة فى عدة أمور تعود فى مجموعها إلى طبيعة الشخصية المصرية والأعراف الاجتماعية الموروثة..

ومن هذه المعوقات:

- **اعتبار الوظيفة حقاً اجتماعياً ..**
- **ضعف الالتزام تجاه العمل ..**
- **إعاقةالحياة الاجتماعية الشرقية لقيم العمل فى المجتمعات المتقدمة ..**
- **انعدام روح المنافسة ..**
- **خلط العوامل الشخصية بالعوامل الموضوعية بحكم الفكر الاجتماعى السائد ..**
- **الخلط بين الأداء والقدرة ..**
- **شيوع مفاهيم خاطئة عن الترقية والرئاسة ..**

ويقول الشاعر فاروق جويده فى جريدة الأهرام بتاريخ19/2/2007: أقول وأنا أشعر بخيبة الأمل أن حزب الأغلبية وهو الحزب الوطنى الديقراطى لا توجد به لجنه ثقافية، ولا يوجد فى برنامجه مشروع ثقافى، ولا يوجد بين أعضاء مجلس الشعب مثقف كبير ..

ولا أعرف لماذا هذا العداء بين السلطة فى مصر والثقافة، وإن كانت ثورة يوليو هى التى أوجدت هذه القطيعة المبكرة ..أهـ

والحديث عن الثقافة فى مصر يقودنا إلى الحديث عن التعليم الذى هو امتداد للثقافة وحيث أنه لاتوجد ثقافة فلا يوجد تعليم ..

وهذه هى الحقيقة المرة أن ما يجرى فى مجال التعليم لا صلة له بالتعليم بل أن ما يجرى هو مجرد تلقين بلا وعى..

والتعليم المصرى لا يسعى إلى بناء عقول لكون الفرعون لا يريد عقولا بل يريد بغالاً وحميراً، وهو ما يشهد به الواقع من أن خريجى المدارس والجامعات أميون وجهلاء حتى فى مجال تخصصهم، فالطبيب المتخرج حديثاً يتدرب فى المرضى وحتى يصير طبيباً يكون قد أزهق العديد من الأرواح البريئة ..

وكذلك الحال بالنسبة إلى المدرس والمحامى والمهندس وغيرهم ..

من هنا فإن الطالب المسكين لا يجد العلم الذى يؤهله للحصول على الشهادة والتخرج

فى المدرسة أو الجامعة، وإنما يجده فى بيوت أساتذته عن طريق الدروس الخصوصية التى توقع الأهالى فى الديون لتغطية نفقات هؤلاء المدرسون ..

والمواطن المصرى يسعى لتعليم أولاده حتى الرمق الأخير وهو يعلم جيداً أن ولده بمجرد أن يتخرج لن يجد عملاً، وإن وجد فسوف يكون فى غير مجال تخصصه وقد يكون عملاً وضيعاً..

وانهيار التعليم المصرى ليس وليد الساعة وإنما هو وليد عقود طويلة سابقة..

والانحطاط فى التعليم قد طال الجميع أساتذة وطلاباً من عقود طويلة حيث لا تجد بين الجامعيين اليوم أستاذاً يستحق هذ اللقب أو يلم إلماماً جيداً بمجال تخصصه ..

وقد أطلق فى الفترة الملكية شعار يقول: التعليم كالماء والهواء وكلٍ بحسب إدراكه..

وفى فترة حكم الضباط حذفت عبارة كلٍ بحسب إدراكه ..

يقول على يوسف فى نداء إلى شرفاء الأمة معلقاً على هذا الشعار: **وذلك حتى يتحول التعليم إلى تصارع شرس بين كل افراد المجتمع، كأحد وسائل إلهاء الشعب عن التفكير فى حقوقه المغتصبة، وقد نجحت هذه السياسة نجاحاً فاق كل توقع، وكانت النتيجة ان فقدت الأمة نظامها التعليمى كلية ..أهـ**

والكثير ممن يحملون شهادات الدكتوراه فى مصر اليوم هم مزورون ولا صلة لهم بالعلم والتعليم والثقافة وهم يكتبون رسالاتهم بطريقة القص واللصق، أى بطريقة التجميع من الكتب، وفى الأغلب يقوم بهذه المهمة سواهم ، والحصول على درجة الكتوراه ليس سوى وسيلة للترقى فى المناصب وزيادة الدخل ..

وفى كتاب «**صور من الفساد الجامعى**» لحازم هاشم عرض المؤلف العديد من الصور التى تكشف فساد التعليم فى مصر، كما كشف العديد من الأساتذة الذين يحملون شهادات مزورة وينسبون لأنفسهم بحوثاً مسروقة من الطلاب ..

العقــل الإقتصــادى

وفيما يتعلق بالاقتصاد فإن ما يجب التأكيد عليه بداية أن مصر دولة غنية ولم تكن يوماً فقيرة، ودليل ذلك واضح وضوح الشمس وهو أنها تنهب عبر القرون الطويلة ولاتزال قائمة على الخارطة بثرواتها..

ولم يستطع أى فرعون من الفراعنة الذين حكموا مصر طوال التاريخ أن يعلن الحجم الحقيقى لثروات مصر..

واليوم تفجرت فى مصر العديد من الثروات التى من الممكن أن تنهض بها وتنتشل شعبها من الفقر لتضعه فى صفوف الشعوب الغنية..

فى مصر اليوم نفط وغاز وذه ومعادن كثيرة..

وفى مصر بحيرات وأنهار شتى ..

وفى مصر زراعة واسعة ويمكن أن تتسع أكثر..

وفى مصر بحار طويلة على طول حدودها الشمالية والشرقية..

وفى مصر منافذ مائية هامة ..

وفى مصر ثروة بشرية كبيرة ..

وفى مصر ثلث آثار العالم ..

هذا بالإضافة إلى تحويلات العاملين بالخارج والتى تصل إلى بلايين الدولارات ..

ويمكن لنا أن نتتبع دخل مصدر واحد من مصادر الثروة فى مصر حتى تتضح لنا الصورة وهى قناة السويس..

كان الدخل اليومى للقناة فى نوفمبر من عام٢٠٠٢م هو ٨,٢ مليون دولار، وكان الدخل السنوى لنفس العام هو ١,٩٠٠ مليار دولار، وكان الدخل السنوى لعام ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧ هو ٤ مليار و١٧٠ مليون دولار بزيادة قدرها ١٧٪ عن العام السابق، وهو أعلى إيراد للقناة فى تاريخها، وكان إيراد القناة يوم ٢٠٠٨/١١/٢٥ هو ٢١,٣٩٠ مليون دولار..

هذا مع الإشارة إلى أن الحكومة لا يمكنها الإجابة عن سؤال يتردد كثيراً على ألسنة المصريين وهو: أين يذهب دخل قناة السويس..؟

ولا يمكنها أن تصرح بالدخل الحقيقى للنفط والغاز، أو بوجود معادن نفيسة فى مصر مثل الذهب المتوافر فى مصر منذ آلاف السنين..

قال الشاعر فاروق جويدة فى جريدة الأهرام بتاريخ 2/5/2008:

أين بنود الإنفاق الحكومى فى قرارات رفع الأسعار..؟

إن فى مصر الآن مؤسسات تنفق عليها الدولة آلاف الملايين من الجنيهات ابتداء بمرتبات العاملين فيها وهى بعشرات الآلاف، وانتهاء بالحراسات والسيارات والتشريفات ومواكب السادة الوزراء التى تخترق كل يوم شوارع القاهرة وتمثل انتهاكاً لموارد هذا الشعب، يضاف لذلك الوفود المسافرة للخارج كل يوم وتوابعها من المرافقين وهى تمثل إهداراً لموارد هذا الشعب ..

فى أحيان كثيرة يسأل المواطن المصرى بسذاجته المعهودة: أين دخل مصر من قناة السويس وهو ٢٥ مليار جنيه سنوياً ..؟

وأين دخل مصر من السياحة وهو أكثر من ٤٠ مليار جنيه..؟

وأين دخل مصر من البترول والغاز..؟

واين دخل مصر من بيع الأراضى وتسقيعها..؟

واين دخل مصر من تحويلات المصريين فى الخارج..؟

وقبل هذا كله أين انفقت الحكومه ٧ مليار جنيه هى حجم الديون الخارجية والداخلية، و٣ مليار جنيه هى حجم المعونات ..

من الخطأ الشديد أن ندعى الفقر والإفلاس لأن لدينا موارد كثيرة، ولكن الأزمة الحقيقة أن حجم انفاقنا يتجاوز حدود الإمكانيات ..أهـ

ونحن نضيف فوق هذا سؤالاً هو: أين ذهبت مجوهرات أسرة محمد على..؟

وقد صرح وزير الاتصالات فى 2008/2/15 **ان عائد القطاع العام فى مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات بلغ ٤,٥ مليار دولار..**

والسؤال هنا هل يمكن لبلد يحوى كل هذه الثروات ويعد فقيراً ..؟

يقول عباس الطرابيلى فى جريدة الوفد: **ما الذى يحدث فى مصر..؟**

بل ما الذى يحدث لمصر..؟

وهل هؤلاء مصريون حقاً، أم انهم يدمرون مصر..؟

وهل الهدف هو حرمان مصر من ثروتها الطبيعية التى وهبها لها الله، من الفوسفات فى أبى طرطور، إلى الحديد فى أسوان، وكذلك السماد فى كيما، إلى الفحم فى المغارة، وإلى الذهب فى صحراء مصر الشرقية ..؟

ويقول جويده فى جريدة «الأهرام» بتاريخ 2007/5/25:

إن أهم الأحداث الاقتصادية فى مصر الآن هى صفقات البيع، بنك الإسكندرية ١٦ مليار جنيه، شبكة الاتصالات الثالثة ١٦ مليار جنيه، أرض العلمين بالساحل الشمالى ٦ مليارات جنيه، أرض القاهرة الجديدة والشيخ زايد و٦ اكتوبر ١٧ مليار جنيه ..

هناك سؤال ينبغى أن نجد الإجابة عليه: أين تذهب هذه الأموال..؟

هل تدخل فى نطاق الإنفاق الحكومى..؟

أم تسد عجز الميزانية، أم تستخدم فى سداد الديون..؟

وماذا يقال إذا كان الإنفاق الحكومى سرداباً طويلاً مظلماً لانهاية له..؟

والعجز فى الميزانية يزداد عاماً بعد عام والديون تتضخم، فأين تذهب كل هذه المليارات..؟

لقد وصلت الديون إلى 727 مليار جنيه بزيادة تصل إلى مليار جنيه سنوياً منها 61 مليار جنيه عجزاً فى الميزانية ..

فهل نبيع الأراضى لشراءالسيارات وتمويل مهرجانات الحزب الوطنى وانتخاباته والوفود المسافرة إلى الخارج..؟ أهـ

وتعمل الحكومة على التأكيد أن العائد من هذه المصادر يذهب لتسديد الديون المستحقة على مصر والتى هى فى الأصل ناتجة عن سياستها الحمقاء التى لا تدل على إنتماء..

ودوامة الديون لن تنتهى لأن الفرعون وأشياعه لا يريدون لها أن تنتهى لكونها تمثل غطاءاً يستر صور النهب المستمر لثروات مصر من قبلهم، فهم يستدينون ثم يسرقون الديون لتظل طوقاً فى رقبة البلاد وتسدد من قوت الشعب والدخل العام، مع الإشارة إلى أن ثروات لصوص مصر فى الخارج تكفى لسداد ديونها وزيادة ..

والغريب أنه يوجد بمصر جهاز يسمى الجهاز المركزى للمحاسبات مهمته مراقبة الإنفاق الحكومى، إلا أن هذا الجهاز لايمكنه فعل شئ أمام الحيتان التى تبتلع ثروات مصر لكونها مدعومة ومتحصنة بالفرعون الكبير، ولا يمكنه فعل شئ أمام الإسراف الحكومى ونفقات الفرعون وأتباعه الباهظة التى تشكل عبئاً على الميزانية العامة للدولة..

إن الكثير من بلدان العالم نهضت وتقدمت وهى لا تملك ربع هذه الثروات، وسبب نهوضها وتقدمها كان بسيطاً وهو أنها كانت تعتز بنفسها وأكرمت شعبها واحترمته ..

وأزمة مصر على مر التاريخ تتلخص فى هذه المسألة وهى أن فراعنتها كانوا ينهبونها ويحتقرون شعبها ولا يستثمرون طاقته إلا فيما يخدم مصالحهم وكراسيهم ..

والمتأمل فى تاريخ الفراعنة القدامى يجد هذا الأمر واضحاً، فقد سخر هؤلاء الفراعنة ثروات مصر ومقدراتها وشعبها فى بناء المعابد والتماثيل والقبور التى تمجدهم، وحتى ذهبهم وما يقتنون من نفائس قرروا أن يدفن معهم ..

والمتأمل فى النفقات الهائلة التى تنفق اليوم على شتى صور السفه من غناء ورقص وتمثيل واحتفالات وأمن الحكم والفرعون لا يمكن أن يقول سوى أن هذا بلد مجنون ..

وإذا كانت مصر فقيرة فلماذا يتقاطر عليها هذا الكم من الغزاة والسراق وطالبى الرزق من مختلف شعوب العالم على مر التاريخ..؟

وفى ظل حكومات الفراعنة القدامى والجدد لابد للعقل الاقتصادى أن يتجمد ويظل مجمداً لأن استثمار ثروات مصر على الوجه الأكمل لابد وأن يؤدى إلى الصدام بالفرعون الحاكم الذى لا يحكم مصر فقط بل يملكها بما فيها من ثروات ..

وبالطبع لابد وأن يؤدى مثل هذا الحال إلى توالد عقد كثيرة لدى المصريين تدفع بهم إلى كراهية وطنهم والفرار منه تاركينه للفرعون وحاشيته وهو ما نراه واقعاً..

إذ كيف يمكن لبلد به كل هذه الثروات ولا يجد شعبه رغيف الخبز النظيف الصالح للأكل..؟

ولا يمكنه أكل اللحوم إلا فى المناسبات..؟

ولا يمكنه الحصول على الأسماك الطازجة والنافعة ويظل يلهث وراء الأسماك الرخيصة الفاسدة..؟

وتنتهى فى ظله الطبقة الوسطى ليتحول المجتمع إلى طبقتين:

- **طبقة منتفخة متضخمة من الثراء ..**
- **وطبقة معدومة ومسحوقة من الفقر ..**

والحد الأدنى من الأجور فى مصر اليوم لا يصل إلى ثلاثين دولارا، فالمدرس الذى يعمل فى حقل التعليم منذ عشر سنوات لايزيد أجره على خمسين دولارا، كذلك استاذ الجامعه قد يزيد أجره على مائة دولار كما هو حال موظف الحكومة القديم..

وهذا ما أدى إلى انتشار الرشاوى والإختلاسات وسرقة المال العام وبيع ما تصل إليه الأيدى، وانتشار الدروس الخصوصية التى مكنت العاملين فى حقل التدريس من الصمود فى مواجهة الضغوط المعيشية..

ومن الطرائف أن المجلس القومى للأجور قدم اقتراحاً بزيادة الحد الأدنى للأجور إلى (224)جنيهاً بدلاً من(35) جنيهاً وذلك بتاريخ 18/2/2008ومثل هذا المجلس ينطبق عليه المثل القائل: **إن لم تستح فاصنع ما شئت..**

وهو يشير من جانب آخر إلى أن هذا المجلس فى غيبوبة عن الواقع، وكم بك يا مصر من المضحكات..

وقد أصدر رئيس الوزراء الحالى تصريحاً بنفس التاريخ السابق يقول: **اجراءات جديدة لرفع المعاناة عن الجماهير..**

ومثل هذه التصريحات التى اعتاد عليها المواطن المصرى تصدر من قبل الفراعنة منذ عقود..

وأسعار السلع الضرورية خاصة المواد الغذائية لا تتلائم مع مستوى الدخل الثابت والفجوة بينهما كبيرة جداً..

ورغيف الخبز مثلاً وصل سعره إلى ربع جنيه وأكثر وهو بتراب الفرن كما يقولون.. وهو ما دفع بأحد الكتاب ليطلق صرخة فى جريدة الوفد بتاريخ 1/10/2007 قائلاً: **معقول أن تخصص الدولة ١٢ مليار جنيه لتدعيم انتاج رغيف الخبز.. ياناس ياهووه ماذا دهانا، هل نسينا أننا دولة زراعية كانت تتباهى بأجود أنواع محاصيلها، وكنا نتغنى بالقطن طويل التيلة، وكذلك لم نكن فى حاجة إلى حبة قمح، وكان كل فلاح يكفى بيته ولا يحتاج أن يمد يديه للدولة، ماذا يحدث لو تعرضنا لهزة إقتصادية واختفت العملة التى نشترى بها القمح، أو نفد مخزوننا الإستراتيجى، أو حال حائل أياً كان دون وصول القمح لنا..؟**

ماذا نحن فاعلون..؟

ستكون كارثة قد حاقت بالبلاد..

كيف ندعم رغيف العيش بمبلغ ١٢مليار جنيه، تصوروا الخبز يدعم بهذا المبلغ المجنون الذى يتم سحبه من الخزانة اللى بطنها خاوية.. بالذمة دى مش مصيبة..

أين آلاف وملايين الأفدنة التى يتم إستصلاحها..؟

وكتب الدكتور خليل محمد المدرس بكلية الهندسة جامعة الإسكندرية فى بريد الأهرام بتاريخ 1/10/2007 يقول: **تنفق الدولة نحو ١٣ مليار جنيه سنوياً لإنتاج رغيف الخبز المدعم بواقع نحو ٢١٠ملايين رغيف يومياً، ومن المؤكد أن الإنتاج الفعلى لايصل إلى هذا القدر والا اختفت طوابير الخبز..**

وكما هو واضح فإن هذا المبلغ الضخم لا ينفق كله من أجل رغيف الخبز، وإنما يسرق معظمه، ولو كان ذلك صحيحاً ما كانت هناك مشكلة، ولكان رغيف الخبز المصرى معجوناً بالبيض والزعفران لا بالدقيق فقط.. أ.هـ

واليوم يقتتل الناس فى الطرقات على رغيف الخبز الرخيص الدى لم يعد له وجود وقد سقط مؤخرا آكثر من عشرين قتيلا فى طوابير الخبز..

ومع تفاقم الأزمات فى مصر يظهر كثير من المحتالين الخبثاء الذين يحاولون استغلال هذه الأزمات لاختطاف ما يمكن اختطافه من الشعب الجائع ..

وقديماً كان أمراء المماليك يشترون القمح والغلال من الأسواق بأسعار رخيصة، ويقومون بتخزينها تحسباً لوقوع الأزمات والمجاعات بسبب انقطاع مياه النيل، ثم يبيعونها بأسعار عالية ويحققوا مكاسب كبيرة..

وفى ظل أزمة الزيت الماضية طرحت فى شوارع القاهرة كميات منه معبأة فى قنانى بلاستيكية، تهافت عليها المواطن المصرى وانقلب بها إلى أهله مسرورًا ليتبين له حين فتحها انها تحوى ماء نبات الحلبة الذى يشبه لونه لون الزيت ..

واليوم قام واحد من المصريين فى ظل أزمة الخبز الأخيرة بطرح كمية من جوالات الدقيق على الناس فى قرية من القرى بسعر رخيص، وتم بيع كمية الدقيق فى فترة قصيرة، ثم بعد أن تم فتح الجوالات تبين أنها تحوى الجير الأبيض الذى يستخدمه طائفة المعماريين ..

ومع ارتفاع أسعار اللحوم اتجه العديد من أصحاب محلات الأطعمة إلى طرح أرغفة من الخبز محشوة بزبالة اللحوم التى يطلق عليها المصريون اسم (حوواشى) او بالكفتة وبسعر فى متناول الجميع، وأقبل المصريون على هذه الأرغفة التى راجت بين العامة ليتبين فى النهاية أن بعض هذه المحلات تستخدم لحوم القطط والكلاب والحمير..

وقد تفجرت مؤخراً هذه القضية أمام الرأى العام بعد ضبط عدداً من محلات اللحوم التى تبيع لحم الحمير وغيرها على أنها لحوم بهائم، وبرز العديد من الأطباء والمسئولين على شاشات التلفاز لتنبيه الجمهور وتعريفه بكيفية التفريق بين هذه اللحوم واللحوم الصالحة للاستخدام الآدمى ..

وفيما يتعلق بالمواصلات العامة فقد وصل سعرها إلى جنيه وأكثر..

وسعر كيلو اللحم الجيد وصل إلى أكثر من أربعين جنيهاً..

هذا بالإضافة إلى ارتفاع أسعار الخضروات والفاكهة والخدمات العامة من ماء وكهرباء ورسوم مختلفة..

والمساحة المزروعة بالقمح فى مصر لا تزيد على 300 ألف فدان مما يضطر الحكومة إلى استيراد القمح من الخارج، وهذه هى الطامة الكبرى بالنسبة لبلد زراعى مثل مصر كان يطعم الشرق بأكمله فى العصور السابقة..

ولو قدر أن منعت الدول المصدرة القمح عن مصر فسوف يختفى رغيف الخبز من الأسواق مما سوف يؤدى إلى حدوث مجاعة..

أما كبار رجال الأمن والجيش فيتقاضون أعلى الرواتب ويحصلون على العديد من الامتيازات، فمن ثم هم لا يشعرون بالفجوة بين الدخل والأسعار التى تحترق بنارها الطبقات المسحوقة التى تشكل غالبية الشعب..

وتشير الإحصائيات إلى أن هناك أكثر من ثلاثة ملايين أسرة معدمة تعيش تحت خط الفقر فى مصر ولا تشعر الحكومة بوجودهم..

وأن هناك أكثر من نسبة 66٪ من مجموع الشعب المصرى يعيش على البقوليات من فول وعدس وأرز وخلافه..

إن مثل هذا الوضع يكشف لنا مدى الاستخفاف بالشعب من قبل حكامه، ويكشف لنا أيضاً مدى سلبية وانهزامية هذا الشعب الذى يقف متفرجاً على حكامه وهم يقتلونه قتلاً بطيئاً ..

ومما يدل على جمود العقل الإقتصادى المصرى تركز الشعب من قديم حول شريط النيل وهو ما يشغل مساحة ضئيلة جداً من مساحة مصر..

وكتب الدكتور عبد المنعم سعيد فى جريدة الأهرام بتاريخ: 10/9/2007 يقول: **فلعله من المدهش أنه برغم الكثير من الأغانى والادعاءات الوطنية، فإن مساحة مصر التى تصل الى مليون كيلومترمربع وتمتد إلى ٢٥٠٠ كيلو متر من الشواطئ لم يكن يستغل منها حتى مطلع الثمانينيات إلا ٣٪ فقط تتمركز حول النيل وفروعه، وفى الأغلب الأعم فإن الغالبية العظمى من المصريين لم تكن تعرف شيئاً عن الـ ٩٧٪ الباقية، وحتى عندما إرتفعت هذه النسبة إلى ما بين ٥٪ و٦٪ خلال العقود الثلاثة الأخيرة فإن الحقيقة الجوهرية لم تتغير كثيراً.. ولا يمكن الادعاء بأن المصرى سيد على أرضه بينما تمتد يده إلى آخرين طلباً للمعونات والمنح، أو يجلس واضعاً يده على خده فى انتظار عقد عمل فى دولة من دول الخليج، أو قارب تعيس يأخذه إلى واحد من الشواطئ الأوربية.. أهـ**

ولقد سادت واقع العمل فى مصر حالة من البطالة إزدادت حدتها فى ظل الفرعون الحالى، وأصبح العامل والحرفى وخريج الجامعة سواء كلهم يقف فى الطريق ينتظر من يأخذه ليعمل فى أى شئ أو يتسكع فى الطرقات بحثاً عن عمل..

وأصبح حال هؤلاء كحال عمال التراحيل فى الماضى والذين كانوا يتهافتون على عمل فى الفلاحة يتقاضون من ورائه خمسة قروش فى اليوم ولم يكن هذا العمل دائماً..

وظاهرة عمال التراحيل تم تشخيصها بصورة دقيقة فى فيلم: (الحرام)..

وأرى أن المسئولية عن هذا الواقع تقع على الشعب الذى لا يحب المغامرة فى الرزق، ويميل إلى الفلاحة من قديم بجوار الماء عن السياحة فى الأرض من أجل التعمير والبناء..

وميل المصريين إلى الفلاحة كان السبب الرئيس فى احتقار الغزاة لهم، فالفلاحة مهنة الكسالى ومن لا حيلة لهم..

أما البناء والتعمير فهو عنوان الشعوب وأساس الحضارات وكلما ازداد وارتفع ارتفعت معه قيمة شعبه وحضارته بين الشعوب ..

وتظهر لنا تركيبة العقل الاقتصادى المصرى من خلال فترة الانفتاح فى عصر السادات حيث اندفع المصريون اندفاعاً عشوائياً نحو الترفيات التى تم إغراق السوق المصرى بها دون حساب لقدراتهم الاقتصادية ..

ويعود السبب فى هذا إلى فترة الحرمان الطويلة التى عاشوها فى ظل المرحلة الناصرية مما يؤكد لنا مرة أخرى أن عقيدة المصريين فى بطونهم لا فى عقولهم ..

وأدى الاندفاع نحو الترفيات إلى هجرة الكثير من المصريين إلى دول الخليج وليبيا للعمل وتوفير المال اللازم لاقتناء الفيديو والتلفاز الملون وأجهزة التسجيل والتبريد وغيرها من الأشياء التى لم تكن تشغل المصريين فيما سبق ..

ومع تواتر الأموال القادمة من الخارج وازدياد الطلب على المساكن اندفع الفلاح المصرى إلى بيع أرضه أو بيع ترابها لمصانع الطوب التى انتعشت مع انتعاش حركة البناء ..

والمصريون من قديم لم يسخروا ثرواتهم الكبيرة فى البناء والتعمير، وإنما سخروها فى خدمة الفرعون الحاكم فبنوا الأهرامات والمعابد والقصور، لكنهم لم يبنوا مدناً أو مصانع أو حتى حصوناً للدفاع عن البلاد..

وحتى فى العصر الإسلامى استهلك جانباً كبيراً من ثروات مصر فى بناء المساجد والمقابر والقصور ..

وهذا لا يعنى أن مصر لم تنتفع ببعض الأسر الفرعونية ودولة الهكسوس فى زمن يوسف والأسرة الفاطمية ثم أسرة محمد على الذى يعود إليه الفضل فى تأسيس مصر الحديثة..

يروى الجبرتى عن حوادث عام 1815م: **عمل الباشا بمصر أماكن ومصانع لنسج القطانى . القطن . والحرير..**

وفى عام 1817م: **جمع مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى الصناع - الأجانب - ويتعلموا ويأخذوا أجرة يومية..**

ولعل أزمة مصر على المستوى الاقتصادى تكمن عبر التاريخ فى كون الشعب المصرى غير منتج ويفضل دائما المهن السهلة وإن كان مردودها ضئيلا، بل ويفضل أن ينوب عنه الغير فى صناعة وتوفير ما يريد، وقد نتج عن هذا التصور أن المصريين فقدوا الثقة فى أنفسهم وقدرتهم على الصناعة والإنتاج، وهو ما فتح الأبواب على مصارعها لإغراق السوق المصرى بالبضائع والمنتجات المستوردة التى يمكن بكل بساطة إنتاج مثلها بأيدى مصرية، حتى وصل الأمر إلى استيراد المنتجات الزراعية من الخارج مثل الثوم والفول والترمس وغيرها..

ومع تدهور الأوضاع فى مصر أصبح الفلاح المصرى يدفع بزوجته حاملة منتجاته الأساسية التى كان يعتمد عليها فى الماضى كغذاء رئيسى له ولأولاده، مثل الزبد والجبن والبيض، لبيعها لأهل المدينة من أجل سد نفقات معيشته ..

لقد سيطر الفشل والإحباط على كل شئ فى مصر حتى وصل الأمر إلى استجلاب شركات أجنبية لتنظيف الشوارع، وهو ما يشكل إهانة للمصريين وفضيحة لشعب يدعى أنه صاحب حضارة سبعة آلاف عام ..

والغريب أن السوق المصرى اليوم أصبح حقل تجارب لرجال الأعمال والشركات التى تلقى بأشكال وألوان من البضائع والمنتجات الفاسدة دون حسيب أو رقيب حتى أصبح الشعب حقل تجارب..

والغريب أيضاً أن الأجنبى يأتى إلى مصر فقيراً فيصبح فيها من الأثرياء وهو ما يتضح لنا من خلال قصص اليهود والجريج والأرمن الذين احتكروا السوق المصرى لعقود طويلة مثل: صيدناوى وشيكوريل وداود عدس وبنزايون وهانو وغيرهم كثير ممن قرر عبدالناصر تصفيتهم وتأميم شركاتهم، مما أدى إلى هروب العديد من رؤوس الأموال من مصر إلى الخارج..

وهروب الأغنياء من مصر ظاهرة قديمة رصدها الجبرتى حين تحدث عن هروب الأعيان وكبار التجار والأمراء بأموالهم من مصر لما غزاها الفرنسيين، هذا فى الوقت الذى إجتمع فيه المشايخ يقرءون البخارى لدفع الشر..

وفكرة التأميم كانت خاطئة ولم تقم على أساس صحيح إذ كان من المفروض وجود العناصر والعقليات الإقتصادية التى من الممكن أن تسد الفراغ الكبير الذى حدث نتيجة هذه المصادرات، فهذه الشركات التى تم تأميمها سلمت لضباط الجيش والعناصر الموالية للنظام الجديد مع تكون ما سمى بالقطاع العام، وكانت النتيجة أن هذه الشركات تراجعت أرباحها وقدراتها وأصبحت عبئاً على الدولة التى أخذت تدعمها من باب ستر النهج الإشتراكى..

وأصبحت هذه الشركات مرتعاً للكسالى من المصريين الذين يقذف بهم عليها جهاز القوى العاملة المتكفل بتعيين المتخرجين من الجامعات والمعاهد، حيث يجلسون على المكاتب دون عمل..

وأصبحت أيضاً ساحة مفتوحة للنهب والسلب من قبل الضباط وكبار الموظفين الأمر الذى برر للسادات من بعد الإتجاه إلى بيع القطاع العام..

وفى عصر السادات نمت وترعرعت الكثير ممن أطلقت عليهم الصحافة اسم القطط السمان والذين رصدتهم السينما المصرية فى تلك الفترة..

وقد استمرت ظاهرة القطط السمان حتى تحولت إلى النمور السمان فى العصر الحالى الذى أصبحت فيه مصر أكبر دولة تستهلك سيارات المرسيدس فى العالم..

وهذه النمور تعمل فى مصر وعينها على الخارج، فمن ثم هى قد هربت معظم أموالها من مصر استعداداً لساعة الصفر التى طال انتظارها ..

وهى لم تجمع أموالها با لطرق المشروعة فلا يمكن لها ولا لأحد فى مصر أن يثرى ويسمن بالطرق المشروعة فهذه قاعدة تاريخية، فمن ثم فإن هذه النمور لا تنتمى لمصر ولا

تحمل ذرة ولاء لها، ويكفى القول أن العديد من هؤلاء جمع ثروته من تجارة المخدرات ومنهم بعض المسئولين ورجال الأمن ..

والنمور هذه هى التى تغرق مصر ما بين الحين والآخر بالأدوية والأغذية الفاسدة التى أدت إلى إنتشار مرض الفشل الكلوى بين المصريين ..

والحكومة ورجال الأعمال يتعاملون مع المصريين على أساس أنهم يأكلوا الزلط ولا يؤثر فيهم مرض وهو ما يشير إلى الاستخفاف بهذا الشعب ..

من هنا وعلى مستوى الماضى والحاضر أصيبت الشخصية المصرية بالإحباط وباتت تعتقد أن مصر ليست بلدها وأنهم لا تملك فيها شيئاً ..

وأدى هذا إلى فقدان الثقة بنفسها وبغيرها من المصريين حتى فى الأمور ألغير حيوية مثل الرياضة، حيث تختلف النوادى مع بعضها حول الحكام الذين يديرون مبارياتهما من المصريين، مما يضطرهم إلى استدعاء حكم أجنبى من الخارج ..

والجدير بالذكر هنا أن الحكم المصرى يتقاضى ما يوازى مائة دولار عن المباراة الواحدة بينما تصل تكلفة الحكم الأجنبى بمساعديه إلى ثلاثين ألف دولار ..

والمدرب المصرى لا يزيد راتبه الشهرى عن خمسة آلاف دولار، بينما راتب المدرب الأجنبى الذى يدرب النوادى الكبيرة يصل إلى أكثر من أربعين ألف دولار شهرياً غير المكافآت والمميزات الأخرى ..

والعقل الاقتصادى المصرى فشل فى تنشيط السياحة والإرتقاء بها لكونه عقل روتينى جامد، ولم ينتبه إلى أهمية السياحة إلا بعد ظهور الجماعات الإسلامية وتصديها للسياح..

والسياحة فى مصر تخضع للعقل الأمنى الذى تسبب بغبائه فى ضربها ودفعها إلى الوراء ..

ومن باب الراحة قام الأمن بعزل السياح الأجانب عن المصريين فى الأماكن السياحية مثل الهرم وغيره، وأصبح المصرى الزائر يشعر بالغربة والتمييز والخوف أيضاً..

ولا تزال طرق الدعاية السياحية ووسائل جذب السائحين ساذجة فى ظل الغلاء الفاحش الذى جعل القاهرة من أغلى عواصم العالم ..

ومن صور السفاهة تلك الإعلانات والأغانى التى تبث باللغة العربية وغيرها وتصور المصرى أمام السائح بصورة مهينة خانعة، وبدا وكأنه يريد أن يلعق حذاءه ليرغبه فى مصر، ويصور المرأة المصرية كإمرأة لعوب سهلة المنال لهذا السائح ..

والسياحة فى مصر تعد ضعيفة جداً بالقياس إلى حجم آثارها، والسائح الأجنبى لا ينفق فيها كثيراً لكونه لا يجد ما يرغبه فى الإنفاق..

وقد انتشرت فى مصر مؤخراً ظاهرة زواج السائحات العجائز بالشباب فى صعيد مصر، تلك الظاهرة التى كان من نتيجتها انتشار مرض الإيدز بين هؤلاء الشباب..

والعقل الاقتصادى المصرى يرى فى عدد أفراد الشعب المتزايد والذى اقترب من الثمانين مليوناً، يرى فيه عبئاً ثقيلاً وهذا من دلائل إفلاسه وعدم قدرته على استثمارهذه الثروة البشرية فى بلد ٩٠٪ من مساحته على الأقل غير مستثمرة وتعيش النسبة الغالبة منه على حساب النسبة العاملة المنتجة التى لا تزيد على نسبة ٢٠٪، أى أن ٨٠٪ من الشعب المصرى لا ينتج ويعيش عالة على غيره..

والمصرى بطبعة لا يميل إلى الإنتاج بل ميله الأكبر إلى الاستهلاك.. فالشعب المصرى شعب مستهلك لا شعب منتج..

ويميل المصرى أيضاً إلى خطف الرزق لا السعى والكد من أجله، وهذا يفسر لنا ظاهرة أصحاب المؤسسات والشركات الوهمية التى تحتال على الناس وتسرق أموالهم وتفر إلى الخارج، وكذلك هيئات المجتمع المدنى مثل جمعيات «حقوق الإنسان» وغيرها التى انتشرت فى مصر مؤخراً والتى تختطف ما يمكن اختطافه من المعونات الأجنبية المخصصة لهذه الهيئات والجمعيات.

وبدلاً من تحرك الحكومة لاستثمار ثروات مصر والقضاء على البطالة والفقر، قامت بممارسة البلطجة على الشعب تحت مسميات ولافتات مختلفة، منها ضريبة المبيعات وخدمة النظافة ورسوم المرور فى الطرق السريعة ومعونة الشتاء، وغيرها من وسائل الإبتزاز الحكومى، وذلك غير الإتاوات التى يفرضها موظفو الدولة على الشعب من أجل قضاء مصالحه..

كتب الشاعر فاروق جويدة فى صحيفة الأهرام بتاريخ 2008/3/7 تحت عنوان: الحكومة والمفلسون فى الأرض يتسائل عن الموارد الجديدة التى يجب أن تتجه إليها الحكومة

لتمويل ميزانينتها قائلاً: ماهى الموارد التى ينبغى أن تتجه إليها يد الدولة، هل هى الجيوب المفلسة التى لا تملك نفقات يومها..؟

ام هى الخزائن التى تكدست بأموال الشعب ولم تدفع ما عليها من ضرائب ومستحقات..؟

إن الحكومة فى أحيان كثيرة تخطئ الطريق، وبدلاً من أن يتحمل القادرون نصيبهم فى هذه الموارد فإنها تتجه فى احيان كثيرة إلى الملايين من الموظفين والحرفيين والمهنيين، وكلهم تجوز فيهم زكاة المال، والغريب فى الأمر أن الحكومة دائمة التفتيش فى جيوب غير القادرين، وقليلاً جداً ما اقتربت من أصحاب الحسابات الضخمة سواء كانوا مقيمين بيننا، أو هربوا بما أخذوا، وتركوا لنا الحيرة والدهشة وقلة الحيلة ..

وقد نشر فى بريد الأهرام بتاريخ 2007/10/1 رسالة تقول: كشف بحث لوزارة التنمية الإدارية فى ستة محافظات أن نسبة ٥٥٪ من المبحوثين يدفعون رشوة للموظف لإنهاء خدماتهم وعدم تعطيلها، ويكشف تقرير الجهاز المركزى للمحاسبات عن المحليات أن ٥٢ ألف موظف بالمحليات متورطون فى قضايا فساد، وأنه توجد مخالفات فى وحدات الإدارة المحلية وصلت قيمتها إلى ٢٠٠ مليون جنيه عام ١٩٩٦ فقط، وأن مسئولين بصناديق الخدمات بالمحافظات أهدروا أكثر من أربعين مليوناً و٧٥٠ ألف جنيه من حصيلة هذه الصناديق على الإعلانات والتهانى والرحلات..

ومثل هذا قليل من كثير مما يجرى على أيدى موظفى الدولة الذين يطبقون قاعدة حاميها حراميها، ومادام الموظف يرى من فوقه يسرق بلا حساب فقد برر لنفسه السرقة والرشوة أيضاً..

وهكذا تهدر الملايين من أموال الشعب على أيدى الحكومة ورجالها دون حسيب أو رقيب، فى الوقت الذى تئن فيه مصر تحت وطأة الأزمات والديون التى خلقتها بسياساتها المعوجة الفاسدة..

ويظل الشعب المصرى رغم ما يملك من ثروات يرفع شعار العيش والملح ويتغنى به ليؤكد للفراعنة اللصوص الناهبين لثرواته قناعته أو سفاهته ولا مبالاته وقبوله بالفتات..

وهذا الفتات من خشية أن يفقده أحاطه بسياج من النصوص الشعبية الموروثة التى صور له عقله الساذج قدرتها على حفظ هذا الفتات..

ومن هذه النصوص: عين الحسود فيها دود..

ما تبصليش بعين رديه بص للى اندفع فيه..

هذا بالإضافة إلى تعليق كف معدنى أو خشبى على أبواب البيوت والمحلات وفى مؤخرة السيارات ..

ونتيجة للضغوط المعيشية الدائمة والبؤس والحرمان الذى يظلل المصريين من قديم، سيطرت على العقل المصرى فكرة لقمة العيش التى تحولت إلى معتقد ثابت لا يتغير، هيمنت على تصوراته، وأخضع لها جميع مواقفه وممارساته..

وهذا ما يفسر لنا تكالب المصريون على الوظائف المضمونة ذات الدخول العالية مثل العمل فى جهاز الأمن ..

ومثل التكالب على العمل فى مجال الرقص والغناء والتمثيل الذى يرفع بصاحبه سريعاً إلى عالم الأثرياء، أو ينقله بسرعة من الذل إلى العز حسب المعتقد المصرى ..

ومثل اتجاه العديد من العاملين فى دار الكتب وهيئة الكتاب الحكوميتين إلى سرقة المخطوطات والكتب القديمة وبيعها، أو نشرها من جديد بعد أن ينسبونها لأنفسهم ..

ومثل اتجاه الكثير من الناشرين إلى إصدار وطبع الكتب الخفيفة التافهة التى لا تحوى فكرًا أو ثقافة من أجل الربح السريع..

ومثل اتجاه المصريين إلى الالتحاء وارتداء الجلباب القصير والإتجار فى الكتب السلفية التى تفتح لهم أبواباً واسعة للرزق على مستوى الداخل والخارج ..

ومثل اللاهثين وراء الحزب الوطنى الحاكم طلباً لمنفعة، والمؤسسين لأحزاب بغرض الإتجار بها أمام الحكومة والجهات الخارجية ..

ومثل لاعبى الكرة الساعين وراء الأندية الكبيرة طلباً للرواتب الضخمة والمكفآت المجزية..

ومثل الصحفيين الباحثين عن أكبر لقمة يختطفونها..

ومثل رجال الدين العاملين فى المؤسسات الدينية التابعة للدولة أو الكنائس..

ومن هنا يمكن القول أن الأمن فى مصر هو أكل عيش ..

والرقص والغناء والتمثيل هو أكل عيش ..

والنشر والكتابة هو أكل عيش ..

والسياسة أكل عيش..

والكرة أكل عيش ..

والقضاء أكل عيش ..

والصحافة أكل عيش

وحتى الدين هو أكل عيش ..



الـدين فى مـصـر

6 اتخذوا دينهم لهواً ولعباً



يشاع أن الشعب المصرى من أكثر الشعوب تديناً وهذا غير صحيح، إذ أن التدين المصرى تدين أجوف فارغ بلا محتوى، وهو يتميز بالسطحية والقشرية والبساطة المخلة، فتجد المحلات التجارية مزينة بالآيات القرآنية فتنبهر بهذه الصورة، إلا أنك حين تتعامل مع أصحابها يتبين لك أن الأمر غير ذلك..

تجد صاحب محل العصائر كتب على محله الآية القرآنية: **وسقاهم ربهم شراباً طهورا**..

وصاحب المطعم كتب على محله: **وكلوا من طيبات ما رزقناكم**..

وصاحب محل الطيور كتب على محله: **ولحم طير مما يشتهون** ..

أما المسيحى فيكتب على دكانه آية من الإنجيل تقول: **الرب يرعانى فلا يعوزنى شئ**..

المصــرى والديــن

ويميل التدين المصرى إلى صكوك الغفران التى يعتبرها المصرى وسيلة من وسائل التخفيف والتسكين لآلامه وبؤسه وشقائه الدائم، فهو يتمسك بقوة بمسألة شفاعة الرسول للمسلمين يوم القيامة، ويحلم بزيارة قبر الرسول من أجل هذا الغرض..

ويميل المصرى أيضاً إلى الحكايات والأمثال والإغراق فى مثاليات الماضى كوسيلة للهروب من الواقع، كما يميل إلى التغييب وهو ما يفسر اهتمامه البالغ بالرؤى والأحلام وتفسيرها..

وتظهر فكرة صكوك الغفران بقوة فى شهر رمضان، حيث يستنفر رجال الدين لإلقاء المواعظ التى تحض الجمهور المصرى على اغتنام فرصة هذا الشهر فى الحصول على أكبر قدر ممكن من الحسنات، واغتنام صلاة التراويح جماعة قبل أن تغلق السماء أبوابها..

ونرى الشارع المصرى يكتظ بالملصقات التى تطالب بصوم النهار وقيام الليل معلنة حديث منسوب للرسول يقول: **من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ..**

ويعد شهر رمضان المناسبة السنوية لممارسة النفاق باسم الدين، حيث نرى الراقصات تتوقف عن الرقص فى هذا الشهر الكريم، ومن قررت الرقص منهن فإنها ترتدى لباساً يستر عورتها..

وترى الصحف التى تملأ صفحاتها طوال العام بالصور العارية والأخبار التافهة، تفرد صفحات واسعة تكتظ بالحكايات والروايات الدينية، مستنجدة بكهان الأزهر وغيرهم كى يقوموا بدورهم فى شرح فريضة الصوم ونواقضها..

وترى الممثلين ومعهم الراقصات والمطربين يتسابقون على إقامة موائد الرحمن فى الطرقات لإطعام الصائمين، وهو ما دفع بالتيارات الإسلامية المتطرفة إلى إصدار فتوى بحرمة الأكل من موائد الراقصات، إلا أن الأزهر رفض هذه الفتوى وتصدى شيخ الأزهر لهؤلاء مصدراً فتواه بإباحة هذه الموائد..

وموائد الرحمن فى مصر أشكال وألوان، فمائدة الراقصات والممثلين عامرة دائماً بالطعام الإفرنجى الذى يأتى جاهزاً من (ومبى) أو (كنتاكى) أما الموائد الأخرى التى تقام فى الأحياء الشعبية، كحى الحسين أو السيدة زينب، خاصة الموائد التى يقيمها الحزب الوطنى الحاكم، فهى تحوى أطعمة أدنى من ذلك وقد تكون خالية من اللحوم..

وموسم موائد الرحمن هو موسم السرقات من قبل العديد من القائمين عليها الذين يختلسون ما يمكن اختلاسه من ميزانيتها، وهو أيضاً موسم ينتعش فيه الفقراء والمحتاجين من شتى الطبقات التى دار بها الزمان وعانت من الحرمان واشتاقت إلى أكل لحم الخرفان، خاصة من طبقة الموظفين أصحاب الدخل المحدود الذين يهجرون بيوتهم قبل الإفطار بوقت طويل من أجل حجز مكان لهم فى الموائد العامرة التى يتزاحم عليها الجميع..

وهناك نساء من الطبقات الفقيرة تطوف بين الموائد وهى تحمل آنية كبيرة تجمع فيها أكبر كمية من الأرز واللحم والخضروات والفاكهة لتبيعها فى أماكن أخرى ..

ومن الطريف أن سائقى المواصلات العامة إذا ما ضرب مدفع الإفطار عليهم وهم فى الطريق فإنهم يحولون وجهة المواصلة إلى أقرب مائدة من موائد الرحمن بما فيها من ركاب، ومن اعترض طرد، وبحكم خبرتهم فى الطرقات فإنهم يعرفون طريق الموائد العامرة..

والجدير بالذكر هنا أن إجمالى نفقات شهر رمضان فى أحد السنوات بلغ مائة مليون جنيه كما جاء على لسان خبراء الاقتصاد ..

ويبدو التلون فى التدين المصرى حيث يُقلب الدين طوال العام حسب المزاج والمناسبات، وهو ما يظهر فى صلاة العيدين، وصلاة الجمعة الإسبوعية والعمرة الرجبية، حتى أن بعض الراقصات تحرص على آداء العمرة وزيارة قبر الرسول ثم تعود إلى مصر لتمارس الرقص مرة أخرى متسلحة بشعار: **ربنا رب قلوب..**

وترى الواحدة من هؤلاء الراقصات فى حوار صحفى أو تلفزيونى معها تقول: **إن شاء الله ربنا يوفقنا والرقصة تعجب الناس..**

وترى المصرى يكثر من قوله: **إن شاء الله، وربنا يسهل، وخليها على الله..**

وسلوك المصرى يتغير تغيراً جذرياً فى رمضان فترى العمل فيه شبه متوقف فى المصالح الحكومية وفى الأسواق، ويتسلح الجميع بالنوم فى مواجهة الجوع، حيث ترى الناس نيام فى الطرقات والمساجد والحدائق العامة لا يستيقظون إلا على صوت مدفع الإفطار، وتراهم بالليل ساهرين حتى الصباح فى الأسواق والمقاهى والملاهى ..

ويعلن التلفاز المصرى حالة الطوارئ قبل رمضان بشهور حتى يتمكن من إعداد البرامج والمسلسلات والفوازير التى ترفه عن الصائمين وتسليهم فى هذا الشهر الكريم، ثم يتم تسويقها خارج مصر للدول العربية الأخرى التى انتقلت إليها هذه العدوى حتى الداعرات يتوقف قسم كبير منهن عن ممارسة الدعارة فى رمضان..

وترى للمصرى شخصية أخرى بعد أن يتمكن من الحج ويحصل على هذا اللقب الهام وهو ينزعج كثيراً إذا ما جردته منه ولم تناده به..

والحج فى المفهوم المصرى وسيلة غسل الذنوب والتطهر منها فالحاج يعتقد أنه يعود بعد إتمام حجه كيوم ولدته أمه، من هنا نشأ المفهوم السائد عند العوام عن الذاهب إلى الحج أنه: **رايح يغسل ..**

من هنا يعد الصوم والحج فى معتقد المصريين صورة من صور صكوك الغفران التى يجب التمسك بها والحرص عليها..

ويعتبر المصرى الصلاة والصيام والحج هى مقياس الدين والحكم على الفرد بالصلاح والتقوى، وهذا التصور أوقعه فى حبائل الكثير من المحتالين، والمتاجرين باسم الدين الذين تقمصوا شخصية المصلى والحاج، وأيديهم قابضة على المسبحة، ولسانهم رطب بذكر الله..

وترى الإذاعة أو التلفاز يقطع الفيلم أو الأغنية أو الرقصة ليرفع الأذان ثم يتبعه بدعاء على لسان الشيخ الشعراوى أو أحد الممثلين، ثم بعد ذلك يواصل الفيلم أو الغناء أو الرقص، وإذا كان يذيع مباراة لكرة القدم، أو خطاب للفرعون وحان وقت الصلاة فإنه لا يقطع المباراة أو الخطاب، وأحياناً يضع إشارة تعرف بحلول ميقات الصلاة ..

وكل هذا يسير حسب المثل السائد: **ساعة لقلبك وساعة لربك**..

وترى المصرى يغلق متجره من أجل الصلاة لمدة طويلة معطلاً أعماله ومصالح الناس، ويستغرب اعتراضك على هذا السلوك، بل يعده عدواناً على الدين..

والوقت ليس له قيمة أو احترام فى عرف المصريين، فمن الممكن أن يعدك أحدهم محدداً ساعة اللقاء، ثم يأتى بعد ساعات، أو لا يأتى أصلاً، وإذا ما استعجلت أحد منهم فى أمر يقضيه فإنه يبسطه لك بقوله: **إن الله مع الصابرين**، أو يقول لك: **دقيقة واحدة**، بينما يستغرق فى الأمر ساعة وأكثر..

والمصرى لا يميل إلى الخمر كثيراً بينما نرى الانتشار الواسع للمخدرات بين المصريين، وسبب ذلك يعود لاعتقاده بحرمة الخمر أما المخدرات فهناك شك فى حرمتها..

وهناك تصادم بين الدين والرزق فى مصر ذلك التصادم الذى دفع بالمصريين إلى التضحية بالدين أو الإتجار به من أجل الرزق إذا لزم الأمر، وهو ما نلمسه من خلال ظاهرة تحول بعض المصريين من المسلمين نحو المسيحية، فهذا التحول يعود سببه الرئيس إلى ضيق العيش والإغراء المادى والرزق الواسع الذى سوف تكفله الكنيسة للمتنصر..

وما نلمسه من خلال تمسك العديد منهم بمهن محرمة شرعاً، كالعمل فى الخمارات ونوادى القمار والنوادى الليلية، والإتجار فى الممنوعات، والغش فى المواد الغذائية ومواد البناء وفى العقود وغير ذلك..

وما نلمسه أيضاً من خلال الأمور التالية:

- **الإتجار بالقرآن:** حيث نرى المقرئ المصرى يتكسب من وراء القرآن وتلاوته فى المآتم والقبور وأجهزة الإعلام، وكبار المقرئين أثروا ثراءاً فاحشاً من وراء القرآن، وامتلكوا العقارات والسيارات والأراضى والأرصدة فى المصارف..

وكل مقرئ فى مصر له سعر حسب شهرته، تماما كما هو حال المطربين والراقصات، وقراءة ربع غير قراءة حزب، فالحزب له سعر والربع له سعر وهكذا..

ـ **الحج السياحى**: وهو وسيلة لتأدية فريضة الحج دون الدخول فى القرعة عن طريق الحكومة، وهذا النوع من الحج باهظ التكاليف فهناك حج خمس نجوم وهناك حج ثلاثة نجوم ويتم عن طريق الشركات السياحية والجمعيات الأهلية والأحزاب السياسية أيضاً..

أما كيف دخلت الشركات السياحية والجمعيات الأهلية والأحزاب السياسية هذا المجال، فالجواب ببساطة هو أن السفارة السعودية فى مصر تقدم كل عام كمية كبيرة من التأشيرات كهدية (رشوة) للأحزاب والجمعيات، والتى تقوم بدورها ببيع بعض هذه التأشيرات للشركات السياحية والإتجار ببعضها مع أعضائها، والشركات السياحية تقوم ببيع هذه التأشيرات للكبراء محاطة بالخدمات الفندقية وشتى صور الرعاية التى ترفع عن الحاج المشقة والتعب وتشعره بالراحة والإنسجام..

ومع انتشار ظاهرة الحج السياحى وسط الطبقات العليا انتشرت ظاهرة العمرة بين جميع الطبقات مما أنعش شركات السياحة ودفع بها إلى التفرغ للإتجار بالعمرة أيضاً لاستمرارها وشيوعها، ودفع بها أيضاً إلى التلحف بالدين وتبنى الشعار الإسلامى كوسيلة جذب للمعتمرين..

وانتشار هذه الظاهرة له أسباب اقتصادية إذ أن تأدية العمرة يسهل على المصريين دخول السعودية والعمل فيها لمدة أو لفترة طويلة إذا وجدوا لهم أعواناً فى الداخل، ومن جانب آخر هى وسيلة إتجار الهدف منها جلب بضائع وبيعها فى مصر ..

إلا أن المستفيد الأكبر من وراء هذا كله هى شركات السياحة والنقل وكذلك السوق السعودى ..

ـ **الكتاب السلفى**: وهناك تجارة انفردت بها عناصر من الجماعات الإسلامية التى برزت مع الحقبة النفطية فى عصر السادات كما سوف نبين، وهى تجارة الكتب السلفية والوهابية، والذين مارسوا هذه التجارة هم من السوقة والعامة الذين وجدوا فيها رزقاً واسعاً من خزائن السعودية والوهابيين التى فتحت أمام المصريين من أجل استدراجهم للمذهب الوهابى..

ولم يحسب هؤلاء الباعة والناشرين لهذه الكتب مدى الضرر الذى من الممكن أن تلحقه بالعقل المصرى والمصريين، فهم لا يملكون القدرة على تقويم الأمور لكونهم أميون ولا يعنيهم هذا الأمر، إنما يعنيهم تلك الريالات والدولارات التى تتساقط عليهم من كل صوب لنشر وترويج هذه السموم بين البسطاء المستغفلين..

وأعرف العديد من هؤلاء الذين كانوا من باعة الأرصفة يتوق الواحد منهم للحصول على جنيه فى اليوم يستر به نفسه وأهله، فإذا هو اليوم من وراء الإتجار بهذه الكتب المضللة المغيبة أصبح من الكبراء أصحاب الملايين وقفز من الطبقة الدنيا إلى الطبقة العليا..

واليوم تكاثرت فى مصر بصورة ملفتة دور النشر السلفية الوهابية، وتبدو هذه الظاهرة بوضوح من خلال معرض القاهرة الدولى للكتاب، حيث يظهر للمشاهد مدى كثافة هذه الدور التى تكاد تصبغ المعرض بصبغتها .. ولقد تسببت هذه الكتب فى نشر الإرهاب والتطرف والاعوجاج الفكرى وشتى صور التخلف باسم الدين فى مصر..

ولم يكتف هؤلاء بنشر هذه الكتب بين المصريين بل قاموا بتهريبها لدول المغرب العربى التى تحظر تداولها مثل المغرب وليبيا، وذلك من أجل المزيد من المال دون حساب للنتائج المترتبة على هذا العمل ..

- **شركات توظيف الأموال:** وهى صورة أخرى من صور الإتجار بالدين تتركز فى شركات توظيف الأموال الإسلامية التى رفعت شعار: **طهر مالك بالتجارةالحلال**، ووقفت على رأس هذه الشركات عناصر تتقمص الهيئة الإسلامية، فاندفع نحوها المصريون وسلموها أموالهم ومدخراتهم، ثم حدث أن فقدوا كل شىء بعد أن قررت الحكومة ضرب هذه الشركات التى هددت البنوك والشركات الأخرى بالإفلاس، بالإضافة إلى كونها شكلت دعماً قوياً للتيار الإسلامى، فكان ضربها له أهدافه الإقتصادية والأمنية..

ولا يعد السبب المباشر لانجذاب المصريين نحو هذه الشركات كونها إسلامية فقط، بل لكونها تقدم أرباحاً كبيرة وفى فترة قصيرة..

وظاهرة شركات توظيف الأموال الإسلامية هذه إنما تكشف لنا مدى سطحية التدين المصرى وسذاجته كما تؤكد لنا أيضاً أن عقيدة المصريين فى بطونهم كما ذكرنا، فالطمع هو السبب المباشر فى اندفاعهم نحو هذه الشركات، وقد انطبق على هؤلاء المثل المصرى القائل: **الطمع يقل ما جمع**، وهو هنا أضاع ما جمع..

التديـــن الهـــش

وتبدو لنا صورة التدين الهش عند المصريين من خلال ذلك التبدل والتلون الغريب الذى طرأ على المصريين الذين سافروا إلى دويلات الخليج أو السعودية، إذ سرعان ما تقمص المصريون شخصية أصحاب البلاد ونموذج تدينهم السلفى، بل قاموا فوق ذلك بنقل هذه الصورة من التدين إلى مصر..

وظاهرة انتشار الحجاب والنقاب فى مصر ظاهرة اجتماعية أكثر من كونها ظاهرة دينية، فقد أصبحت وسيلة المرأة الوحيدة لجذب الرجل وكسب احترامه..

وهكذا أصبحنا نرى فى مصر الكثير من المتدينين- إن لم نقل معظمهم يرتدون الزى الخليجى ويتقمصون الشخصية الخليجية ..

وهؤلاء إما كانوا من المسافرين لهذه البلاد أو من الذين تأثروا بهم، ولعامل الرزق دور كبير فى هذه الظاهرة، إذ لولا أن المصريين وجدوا رزقاً واسعاً هناك دفعهم إلى التسليم بهذا النمط من التدين تحت وطأة الحاجة لأصحاب هذا النمط، ما كانوا قد تقمصوه وصدروه إلى مصر، فهو سبب رزقهم وغناهم بغض النظر عن صلاحيته لمصر أو ملائمته لواقعها..

حتى أنه تم الترويج لأشرطة قرآنية بأصوات بدوية منفرة قادمة من صحراء الجزيرة العربية تم إشاعتها بين المصريين الذين تناولوها كلون جديد من باب التغيير..

ولقد عمل الكثير من المصريين فى العراق وليبيا والأردن لكنهم لم يتأثروا بنمط التدين فى هذه البلاد، لكون الرزق فيها كان محدوداً ولكون هذه البلاد لا تلعب دوراً من الأصل فى المحيط الدينى كذلك الدور الذى تلعبه المؤسسات الخليجية والسعودية فى نشر النهج السلفى الوهابى..

كذلك انتشرت بين نساء الجماعات ظاهرة النقاب وهو غطاء الوجه حيث تبنت الجماعات القول بحرمة كشف المرأة لوجهها وأنه عورة، وهو قول وافد روج له بدعم من فقهاء الوهابية ..

والنقاب له صور متعددة تعكس مدى تشدد التيار الذى تنتمى المرأة إليه، أو بصورة أدق التيار الذى فرض عليها هذا اللون من النقاب، ومعظم النسوة المنتقبات هن منتقبات تحت ضغوط عائلية..

وصور النقاب السائدة منها ما يكشف عين المرأة وجزء من وجهها، ومنها ما يستر الوجه بالكامل ..

ومنها النقاب الملون وهو الذى يظهر جزء من الوجه والعينين، ومنها النقاب الأسود الذى لا يظهر من الوجه شيئاً والذى يصاحبه الجلباب الطويل من نفس اللون ..

والطريف هنا هو أن كثير من النسوة العاملات فى حقل الدعارة قد أرتدين النقاب والزى الأسود وذلك من أجل التخفى وتأمين أنفسهن، كما أن العديد من المرشدات العاملات مع جهاز الأمن يرتدين النقاب ليتمكن بواسطته من التجسس على الجماعات ..

وكما أن اللحية الطويلة والجلباب القصير لا تعنى أن صاحبها من أهل العلم والتقوى فقد يكون من السوقة والسفهاء وهو الغالب، كذلك الأمر بالنسبة إلى المنتقبات، فلا يدل نقابهن على شئ من العلم أو التقوى..

وفى الشارع المصرى يمكنك أن ترى العديد من تلكم المنتقبات وهن يتعاركن فى الطرقات ويخرجن من أفواههن أقبح الألفاظ، كما يمكنك أن تراهن فى خلوة غير شرعية مع حبيب بحديقة عامة أو فى النوادى ..

من هنا يمكن القول أن انتشار التيار السلفى الوهابى فى مصر كانت دوافعه اقتصادية، فقد استفاد الكثير من المصريين من وراء هذا النهج ولازالوا يستفيدون..

والكثير من رموز هذا التيار اليوم على المستوى العربى والدولى هم من المصريين..

ومن الطرائف أن البعض ممن لم يجد له مكاناً وسط هذا التيار، ولم يتمكن من الحصول على نصيب من الكعكة الوهابية، اتجه بسرعة نحو التيار الشيعى الذى أخذ يبرز بقوة فى مصر منذ ظهور الثورة الإسلامية فى إيران ليحصل على نصيبه من الكعكة الشيعية..

وهكذا امتلئ الواقع السنى والشيعى فى مصر بالعديد من المحتالين المتاجرين بالدين..

وظاهرة الاحتيال باسم الدين والإتجار به فى مصر ليست وليدة العصر وإنما هى قديمة قدم الدين فيها ..

وكان الفقيه الشافعى المسمى بالخبوشانى من العناصر التى اعتمد عليها صلاح الدين لتصفية التشيع من مصر، وكان من المقربين إليه، ولما مات وجدوا فى بيته كميات كبيرة من الذهب والفضة، فتأسف عليه صلاح الدين..

وروى فى النجوم الزاهرة حوادث عام 859هـ قصة محمد المغربى الذى كان يجلس داخل باب النصر على مكان عال وتحته حجارة وتحيط به النجاسات وتأتيه الناس بالمأكل والمشرب، ولهم فيه اعتقاد حسن، ووجدوا بعد موته فى المكان الذى كان يجلس فيه جملة كبيرة من الذهب والفضة ..

ومثل هذه النماذج توجد بكثرة بين مدعى التصوف والولاية، كما توجد بين العديد من الدعاة الجدد الذين برزوا فجأة فى وسط المسلمين وجمعوا الملايين من وراء خطبهم وأحاديثهم ..

ومن هؤلاء أيضاً الشيخ الشعراوى و شيخ الأزهر الحالى الذى دخل عالم الأثرياء ببركات وعطايا الفرعون الحالى ..

وكما امتلئ هذا الواقع بهذه النماذج امتلئ أيضاً بالكثير من المجانين، وأصحاب الشطحات الباحثين عن دور، والعائشين فى وهم الزعامة والإمامة وإخراج الأمة من أزمتها وإعادتها إلى مكانتها ..

وقد عاصرت الكثير من هذه النماذج أثناء رحلتى الطويلة فى الحقل الإسلامى بمصر وأكثر هذه النماذج تتعلق بالمهدى وظهوره، حيث يدعى بعضها أنه المهدى المنتظر، وهذا على مستوى السنة، أو أنه رآه فى المنام، أو رآه حقيقة وعلى تواصل معه وهذا على مستوى الشيعةالذين يعتقدون بوجوده منذ قرون ..

وظاهرة المجانين فى الوسط الإسلامى بمصر قديمة وليست وليدة العصر..

يروى الجبرتى فى حوادث عام 1733م: ظهر بالجامع الأزهر رجل تكرورى إدعى النبوة وقرر أمام الشيخ أحمد العماوى أن الوحى قد هبط عليه، وأنه قد صعد إلى السماء ليلة سبع وعشرين من رجب، كما صلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل، ولما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له: انت نبى مرسل فانزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات..

وكان موقف العماوى أن اتهمه بالجنون وأمر بضربه وطرده من الجامع، ولما اجتمع حوله العامة من الرجال والنساء وصل أمره إلى الباشا الوالى الذى أمر بحبسه بعد أن استمع إلى قوله، ثم تقرر إعدامه بعد أن رفض التوبة التى عرضها عليه العلماء، وعند تنفيذ الحكم فيه كان يردد النص القرآنى الذى يقول: فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل..

الحالـــة التاريخيـــة:

ولابد لنا قبل الخوض فى تشريح الحالة الدينية بمصر من رصد تاريخ هذه الحالة من بداية ظهور الإسلام فيها وحتى الفترة الجمهورية..

وفيما يتعلق بالمسيحية فقد كان القبط المصريون يتمذهبون بالمذهب الأرثوذكسى الذى جلب عليهم بطش الرومان البيزنطيين المعادين لهذا المذهب..

ومع دخول العرب إلى مصر غزاة وطرد الرومان منها استرد المصريون حريتهم لتصبح الأرثوذكسية بلا منافس..

ثم بدأت القبائل العربية فى التوافد على مصر ومنذ ذلك الحين تكاثر المسلمون فيها حتى أصبحوا هم الأغلبية ليتحول القبط إلى أقلية، ويتجه البعض منهم إلى الإسلام فيما بعد، ثم توافدت الهجرات بعد ذلك من شعوب عديدة..

وفى البداية كانت مصر خاضعة لحكم الخلفاء الثلاثة وكانت الساحة الإسلامية مستقرة إلى حد كبير، إلا أنه مع مجئ الإمام على للحكم بدأ نمط التدين يتغير فيها ويتحول نحو الولاء لأهل البيت..

لكن معاوية بعد أن استرد مصر من الإمام على قلب نمط التدين فيها إلى النمط الذى كانت عليه أيام الخلفاء الثلاثة، واستمر هذا النمط سائداً وغالباً فيها إلى أن جاء الفاطميون فقلبوا نمط التدين مرة أخرى وحولوه ناحية أهل البيت..

وجاء الكرد الأيوبيون من بعدهم فقلبوا نمط التدين وحولوه ناحية أهل السنة فارضين المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى على المصريين، واستخدموا فى ذلك شتى صور الإرهاب والتخويف، إلا أنهم لم يستطيعوا القضاء على حالة الحب والولاء الكامنة فى نفوس المصريين تجاه أهل البيت، كذلك الآثار المادية التى تركها الفاطميون فى مصر..

من هنا اتجه الأيوبيون إلى نشر التصوف بمصر كبديل عن التشيع لأهل البيت، واتبع المماليك من بعدهم هذه السياسة حيث انتعشت الصوفية والمذاهب الأربعة فى عهدهم..

ومن بعد المماليك جاء العثمانيون الأتراك ففرضوا المذهب الحنفى على مصر وابتدعوا منصب شيخ الإسلام ووضعوا البذرة لنشوء المؤسسة الدينية الحكومية التى تمثلت فى الأزهر بعد ذلك..

ونتج عن هذا كله أن برزت فى الساحة المصرية شريحتان تمثلان النمط الدينى الإسلامى فى مصر وهما:

الطرق الصوفية والأزهر..

وورث المصريون من المرحلة الشيعية الكثير من العادات والأمثال..

ومن العادات والأمثال الشيعية ما يلى:

ـ الاحتفال بعيد رأس السنة الهجرية..

ـ الاحتفال بليلة النصف من شعبان..

ـ الاحتفال بذكرى مولد السيدة زينب والحسين..

وهناك أمثال تهكمية على عمر وعائشة ووقعة الجمل التى قادتها ضد الإمام على لا تزال تتداول على ألسنة المصريين حتى اليوم منها:

ـ الله الله يا عمر..

ـ سى عمر..

ـ خيبة الأمل راكبه جمل ..

وإذا ما تعارك المصريون فإن أحدهم يتوعد الآخر بقوله: **انا حاخليك تعمل عيشة** ..

ومن العادات والأمثال السنية ما يلى:

ـ عادة صنع حلوى تسمى **عاشوراء** فى ذكرى مذبحة كربلاء..

ـ ومسبة: ابن الرفضى المتداولة على الألسنة حتى اليوم خاصة فى الريف ..

وشيوع لقب (السيد) كاسم متداول بين المصريين، وقد كان هذا لقباً خاصاً بالأشراف وليس اسماً متداولاً، إلا أن الأيوبيين أشاعوا هذه التسمية بين العامة من أجل ضرب رموز الشيعة وتشويههم والتقليل من قيمتهم..

وهذه العادات السنية هى من موروثات العصر الأيوبى..

وغير ذلك مما فصلناه فى كتابنا: **الشيعة فى مصر** ..

وعلى المستوى المسيحى استمر المذهب الأرثوذكسى هو السائد إلى أن جاء العصر الحديث حيث توافدت على مصر العديد من الهجرات من الإنجليز واليونان والطليان

والفرنسيين والأرمن والشوام الذين نقلوا معهم نمط التدين الكاثوليكى والإنجيلى إلى مصر لكن هؤلاء لا يمثلون سوى أقلية فى مواجهة الأرثوذكس ..

ولم يكن المسيحيون يعيشون فى عزلة عن الواقع وما يجرى حولهم، فقد كانت لهم مشاركات عديدة فى الحياة الاجتماعية بالإضافة إلى مشاركتهم الفعالة فى الحياة الاقتصادية ..

روى الجبرتى فى حوادث عام 1810م أن النيل توقف عن الزيادة ولم يتحرك إلا قليل من المسلمين لطلب الاستسقاء، فخرج النصارى يستسقون واجتمعوا بالروضة وصحبتهم القساوسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير فى تجمل زائد ..

أما اليهود فقد استمر وجودهم الضعيف بمصر بجناحيهم: الربانيين والقرآئين حتى برزت إسرائيل حيث بدأت السياسة تلقى بظلالها عليهم لينتهى الأمر بخروجهم من مصر مع بداية حكم عبد الناصر وعودة القليل منهم إليها بداية من عصر السادات..

وقد كان لليهود العديد من الأنشطة الاقتصادية والإعلامية من صحف ومتاجر ومعابد وخلافه..

وفى العصور الإسلامية المتأخرة برز دور الأشراف فى المحيط الصوفى والسياسى، واستمر هذا الدور بارزاً حتى العصر الجمهورى حيث أصدر عبد الناصر قراره بحل نقابة الأشراف..

برز دور محمد كريم حاكم الإسكندرية فى مقاومة الفرنسيين الغزاة..

وبرز دور السيد عمر مكرم الذى أوصل محمد على إلى حكم مصر..

وبرز دور جمال الدين الأفغانى ثم الضابط أحمد عرابى والأديب عبد الله النديم ورفاعة الطهطاوى وسعد زغلول وغيرهم..

وعلى المستوى الصوفى كانت أقوى الطرق الصوفية وأكثرها انتشاراً هى الطرق التى يتزعمها الأشراف..

إلا أن هذا لا ينفى أن الأشراف فى مصر اندس وسطهم العديد من المزورين المحتالين الذين انتسبوا إلى الشجرة النبوية زوراً وبهتاناً من قديم..

ولقد دفع الشعور بالدونية والنقص لدى الكثير من المصريين إلى محاولة البحث عن قيمة معنوية وشرفية ترفع مقامهم أمام الطبقات العليا من الباشوات والبهوات والأمراء والإقطاعيين، فكانت فكرة الالتصاق بالشجرة النبوية التى لم تكن صعبة والحكومة لا تعبأ بها..

ولعل هذا ما دفع بالسلطان برقوق أحد سلاطين الدولة المملوكية الجركسية الثانية إلى إلزام الأشراف بارتداء العمامة الخضراء حتى يمكن تمييزهم عن المدعين، كذلك اهتم برقوق بالصوفية ودعمهم وأنشأ لهم تكية كبيرة أقاموا بها ودفن بعضهم فيها..

ولقد قدر لى أن أحتك بقطاعات من الأشراف المعاصرين فوجدت صورة مفزعة جعلتنى أعذر عبد الناصر فى قراره بحل نقابتهم وتجميد نشاطهم، إذ أنى وجدت الكثير منهم يتباهى بنسبه ويتفاخر به بل ويتعالى على الناس بإسمه، والأسوأ من ذلك هو استغلال هذا النسب فى النصب والاحتيال باسم الدين..

والأدهى والأمر هو أن البعض منهم اعتقد أن هذا النسب حصانة له من الحساب، وصك غفران دائم له من الله سبحانه دفع به إلى ترك الصلاة وشتى الفرائض والتكاليف الشرعية..

وقد تحولت نقابة الأشراف بعد عودتها اليوم إلى آداة من الأدوات الداعمة للحكم حتى أنها ضمت إليها العديد من رجال الحكم وعلى رأسهم الفرعون الحاكم، وهى من قبل عملت على إدخال الملك فاروق ضمن الأشراف ..

واليوم نرى تهافتاً كبيراً من المصريين الذين اكتشفوا أنهم ينتسبون إلى الشجرة النبوية على الانضمام لهذه النقابة رغم أن رسوم العضوية بلغت آلاف الجنيهات..

ويمكن القول أن الساحة الإسلامية كانت هادئة ومنتعشة فى العصر الملكى، إذ كانت جميع الأنشطة مباحة وتمارس الجماعات دعوتها بحرية دون ضغوط وعلى رأسها جماعة الإخوان والشيعة والصوفية والسلفية وإن كانت الأخيرة هى الأقل انتشاراً ..

ومع وصول عبد الناصر إلى الحكم وضرب الإخوان والأشراف والسلفية وتطوير الأزهر وحل هيئة كبار العلماء سكنت الساحة، وخلت من صور الحركة والنشاط باستثناء الأنشطة التقليدية البعيدة عن السياسة والفكر كالجمعيات الأهلية والطرق الصوفية وسوف نتحدث عنهما فيما بعد..

وعند مجئ السادات عمل على قلب الساحة وإعادتها إلى صورتها القديمة فرفع شعار دولة العلم والإيمان، وأخرج الإخوان من المعتقلات، وأعاد النشاط السلفى الوهابى فاكتظت الساحة بالجماعات الإسلامية وراح هو ضحيتها فى النهاية..

وفى المرحلة الحالية اتجه الحكم إلى ضرب الإخوان والجماعات وتصفية أنشطتها، إلا أنه لم ينجح فى ذلك نجاحاً كلياً بعد أن تمكنت هذه الجماعات من التغلغل فى الواقع المصرى ومؤسساته..

والحق أنه لولا إمكانيات هذه الجماعات المادية التى توفرت لها من الخارج ما كان قد أمكن لها تحقيق هذا النجاح والصمود فى مواجهة ضربات الحكومة..

وأقصد بالجماعات هنا الجماعات السلفية الوهابية والإخوان التى تفرخت منهما شتى الجماعات الأخرى المتطرفة، فهذه الجماعات هى التى تملك المال والمؤسسات فى مصر..

وكان ظهور التيار الشيعى مؤخراً بعد غيبة طويلة عن الساحة المصرية، بالإضافة إلى إخفاق المؤسسة الأزهرية الحكومية فى دورها وفقدان الثقة فيها، وازدياد التطرف الإسلامى قد دفع بالحكومة إلى صنع دعاة جدد لسد هذا الفراغ وكسب ثقة الجمهور المصرى من جديد، فكان أن ظهر على الساحة نماذج من الدعاة الجدد فتحت أمامهم الأبواب على مصارعها، وسلطت عليهم الأضواء بقوة من أجل تفريغ الساحة من الأفكار المتطرفة والرؤى المخالفة لنموذج الإسلام السائد، فكان تركيز هؤلاء الدعاة على تسطيح الإسلام وتبسيطه إلى الدرجة التى تحول فيها إلى صك غفران مفتوح..

ولقد نجح هؤلاء الدعاة فى هذا الدور رغم كونهم لا يملكون أية أدوات دعوية أو فكرية، وذلك لكون المصريين يتعلقون سريعاً بأية فكرة تطمئنهم عن مستقبلهم فى محيط الدين والآخرة..

ومع ظهور هؤلاء انتشرت الأشرطة السمعية الخاصة بهم لتسود البيوت والمواصلات والأسواق والشارع المصرى عامة، تلك الأشرطة التى لم تقتصر على أمور الدين، بل تعدتها إلى القرآن لتبرز على الساحة أصوات جديدة لا توزن بشئ أمام القراء القدامى، لكنه المزاج المصرى المتغير والذى يتعامل مع القرآن كما يتعامل مع الأغانى ..

ونتيجة للصدام بين المسلمين والمسيحيين والذى برز بقوة مع ظهور الجماعات، برزت العديد من الشعارات التى رفعها كلا الطرفين كمحاولة لإثبات وجوده فى مواجهة الطرف الآخر..

رفع المسلمون شعار: **تطبيق الشريعة الإسلامية**..

وكتب المسلمون على متاجرهم الآيات القرآنية والشهادتين..

وبرزت الأنشطة الاقتصادية للجماعات تحت مسميات مختلفة منها:

التوحيد والإيمان والنور وعباد الرحمن والتوحيد والنور ..

وكتب المسيحيون: الرب يرعانى فلا يعوزنى شئ، ووضعوا صورة العذراء والمسيح فى متاجرهم وبيوتهم وعلى سياراتهم، وأظهروا الصلبان الذهبية والفضية وعلقوها على صدورهم فى الطرقات..

ومن العادات المسيحية القديمة عادة دق الصلبان على أيدى الأطفال حين ولادتهم كنوع من التميز وسط المسلمين، إلا أن هذه العادة انقرضت تقريباً عند الأجيال الجديدة منهم ..

التيــارات والشرائــح

وينبغى بعد هذا العرض الموجز أن نعرض للشرائح والتيارات السائدة فى الساحة الدينية على المستوى الإسلامى والمسيحى..

وفيما يتعلق بالمسيحيين فهم ثلاث شرائح هى:

الأرثوذكس وهم الأغلبية كما ذكرنا الذين يتبعون البابا شنودة ونسبتهم لا تزيد عن خمسة عشر بالمائة..

الكاثوليك وهم أقلية ضئيلة لا يزيد عددها على ثلاثمائة ألف فرد من أصول يونانية وإيطالية وأرمنية وهم يتبعون الفاتيكان..

الإنجيليين وهم خليط من المصريين والأجانب وقد يزيد أو يقل عددهم على الكاثوليك..

ولا توجد صدامات أو تنافرات تذكر بين هذه الشرائح الثلاث ..

أما الصدامات التى تقع بين المسلمين والمسيحيين فتتركز فى دائرة الأرثوذكس وحدهم لكونهم الأغلبية المنتشرة بمصر، والتى تظهر على الدوام محاولات جادة لإثبات وجودها وسطهم بالإكثار من بناء الكنائس - خاصة فى الأماكن البارزة والشوارع الرئيسية - التى تعد شرارة إشعال الفتنة ومبرر الصدامات بينهما..

ويعمل الأرثوذكس على ترويج فكرة بين المسيحيين تقول: **انهم القبط أصحاب البلاد الأصليين وأن المسلمين اغتصبوا مصر منهم**، وهو كلام لا يوجد ما يؤكده..

والحقيقة أن المسلمين والمسيحيين المعاصرين كلاهما وافد على مصر ولا تربطهما جذور تاريخية عميقة بها، والقبط حالهم كحال الفراعنة لم تعد لهم جذور فى مصر..

وقد برز ت مؤخراً اتجاهات مسيحية تعتبر إسرائيل الدولة التى بشر بها الرب..

ويقوم الأرثوذكس ما بين الحين والآخر بصنع العديد من الفرقعات التى يهدفون من ورائها إلى الترويج لأنفسهم ودعم معتقداتهم..

ومن تلك الفرقعات ما أعلنوه عام 1968م من ظهور السيدة العذراء فوق كنيسة تقع بحى الزيتون فى شرق القاهرة، مما أدى إلى تدافع الناس مسلمين ومسيحيين نحو هذه الكنيسة واعتكافهم من حولها انتظاراً لرؤية العذراء..

وما أعلنوه منذ فترة قريبة عن ظهورها فى مدينة أسيوط بصعيد مصر..

وفيما يتعلق بالمسلمين فشرائحهم وتياراتهم كثيرة ومتصادمة على الدوام إلا أننا سوف نعرض لها مجملة فيما يلى:

- الأزهر: وهو التيار الذى يمثل الإسلام الرسمى المدعوم من قبل الحكم ويمثله شيخ الأزهر الذى يتم اختياره مع المفتى من قبل الفرعون بالتعيين ..

ومنذ تسييس الأزهر وهو يقوم بدوره فى مباركة الفراعنة الحاكمين من عصور الخديويات إلى العصر الملكى حتى العصر الجمهورى..

وقد وقف الأزهر بجوار عبد الناصر فى حربه ضد جماعة الإخوان الذين اعتبرهم خوارج وبارك حروبه الأخرى، كما وقف بجوار السادات فى حربه ضد اليساريين والصلح مع إسرائيل..

ووقف بجوار الفرعون الحالى وبارك خطواته الأمنية والسياسية والإقتصادية..

وما يمكن قوله هو أن الأزهر بدأ دوره فى التراجع منذ عقود، وبدأ الجمهور المصرى يتجه ببصره نحو الدعاة الجدد، ودعاة الجمعيات الأهلية والأزهريون المتمردون مثل الشيخ عبد الحميد كشك والشيخ محمد الغزالى..

ولقد اكتسب الشيخ الشعراوى شعبية كبيرة وسط المصريين لكونه يملك أسلوباً جديداً فى الكلام وطريقة جاذبة فى الآداء مع تبسيطه لحقائق الدين، لكن ما كان يطرحه عموماً لا

يمثل عمقاً أو فاعلية، فمن ثم فإن طرحه كان يرح العامة ويلهب مشاعرهم ولا يجذب المثقفين..

ومن الغريب أن الفرعون الحالى كان من المداومين على مجالسه عندما كان نائباً لكنه لم يحرك فيه شيئاً، ولا ندرى هل كان العيب فى الشعراوى أم فيه..؟

ومثّل ظهور القنوات الفضائية نكبة كبيرة على رجال الأزهر، إذ فتحت هذه القنوات الأبواب على مصارعها للدعاة الجدد، وانجذب نحوهم العامة كوسيلة للهروب من الرتابة والملل والقضايا السطحية، والأمور الهامشية التى شغلوا الناس بها طوال العقود الماضية..

وهذا لا يعنى أن الدعاة الجدد يقدمون صورة نافعة للدين فهم فى الحقيقة يقدمون صورة هى أضل وأنكى من الصورة التى يقدمها رجال الأزهر..

والغريب أن وجوه هؤلاء الدعاة لا تبشر بخير أو تسامح، فهى وجوه بدوية منفرة غير جاذبة وهى أقرب إلى وجوه العتاة الأشرار منها لوجوه أهل الخير، والوجوه التى تخلو من ملامح الشر منهم تجدها أقرب إلى السفاهة والبلاهة..

وفى مواجهة هذه القنوات التى دارت فى محيط التيار السلفى الوهابى برزت القنوات الشيعية لمنافستها على كسب الجمهور المسلم..

وبرزت القنوات المسيحية أيضاً لتثبت وجودها أمام المسلمين..

وهذه القنوات ـ الإسلامية والمسيحية ـ فى الغالب تعتمد على عناصر من الأزهر وعناصر الجماعات والقساوسة المصريين..

ولازال الأزهر يعتمد فى مدارسه وجامعاته مناهج متخلفة محشوة بالخرافات والأباطيل وقضايا الماضى التى لا صلة لها بالواقع المعاصر، ويبدو التعمد فى تبنيه هذه المناهج التى تعينه على آداء دوره فى تسخير الإسلام للفرعون الحاكم..

وهناك كتاب يدرس فى المرحلة الإعدادية بالأزهر يحمل عنوان تقريب فتح القريب يحوى نصاً يقول: **واقل زمن الحمل ستة أشهر ولحظتان، وأكثره أربع سنين، وغالبه تسعة اشهر ..**

ومن الأمور الطريفة أن جهاز مباحث أمن الدولة قد اضطر مؤخراً للاستعانة برجال الأزهر لمواجهة الجماعات المتطرفة فأصبح العديد من رجال الأزهر أعضاء فى هذا الجهاز..

وهذا يفسر لنا تلك الفتوى الأزهرية التى صدرت مؤخراً والتى تبيح استخدام وسائل التعذيب من اجل انتزاع الاعتراف من المشتبه فيهم ..

والتمرد على الأزهر من قبل رجاله - إن حدث - لا يلقى بالرجل إلى خارجه فحسب ليصبح شريداً بلا وسيلة إعاشة، بل يلقى به أيضاً فى أيدى رجال أمن الدولة الذين يقومون بتوديعه الوداع الأخير..

وقديماً قرر العديد من رجال الأزهر الاستراحة منه بالاتجاه نحو الغناء والموسيقى والتمثيل أمثال الشيخ أبو العلا مربى أم كلثوم، والشيخ سلامه حجازى، والشيخ على طه، والشيخ سيد درويش، والشيخ زكريا احمد، والشيخ سيد مكاوى، والشيخ ابراهيم سعفان الممثل المعروف وغيرهم..

ولم يسلم رجال الأزهر ولا القساوسة من النكات التى يطلقها المصريون كوسيلة تنفيس وتعبير عن غضبهم مما يجرى حولهم، فهناك العديد من النكات المتداولة عنهما هى فى أغلبها نكات جنسية..

ومن بين تلك النكات نكتة تقول: ان الفرعون الحالى خرج للصيد ومعه وزير الدفاع واخذ معه شيخ الأزهر، وكان وزير الدفاع كلما صوب بندقيته على طائر أصابه، بينما الفرعون كلما أطلق طلقة خابت فنظر إلى شيخ الأزهر الذى شعر بالارتباك، ثم قال فى حماسة: أضرب ياريس وسوف تصيب بإذن الله، فأطلق طلقة خابت ايضاً، فصاح شيخ الأزهر انظروا المعجزة الطائر يطير وهو مقتول ..

ونكتة تتعلق بالمسيحيين تقول: ان مسيحياً سأل القسيس عن جنة الخلد، فأجابه بقوله: الجنة سوف يكون المسيحيون فيها على اليمين، واليهود على اليسار..

وعندما سأله واين المسلمون ؟

اجابه قائلاً: إنها جنة وليست زريبة..

ولقد دفعت الحالة المعيشية السيئة التى يعيشها المصريون اليوم إلى الزج بأبنائهم فى أحضان الأزهر، والتضحية بعقولهم من أجل ضمان الوظيفة التى يوفرها الأزهر لخريجيه فى محيط الدعوة والإرشاد، أو بصورة أدق فى محيط دعم الإسلام الحكومى..

ورجل الأزهر فى النهاية لا يخرج عن كونه موظفاً حكومياً يتعامل مع الدين على كونه وسيلة لكسب العيش، ويعد فرصة السفر للعمل فى الخارج باسم الأزهر فتحاً وكرامة، ومن النادر أن تجد أسرة أزهرية ملتزمة بالدين، الأمر الذى تأخذه الجماعات الإسلامية على رجاله وتعده دليلاً على انحراف الأزهر وعدم جدواه..

وقد أسهم الأزهر فى إفساد الدين وتخريبه ليس على مستوى مصر وحدها بل على مستوى الخارج أيضاً، ولازال رجاله يلعبون هذا الدور إلى اليوم على مستوى العالم، والطلاب الذين يفدون لتلقى العلم منه، خاصة من دول إفريقيا إنما تفسد عقولهم وفطرهم فيه بسبب مناهجه العقيمة وتخلف مدرسيه بالإضافة إلى صور الفساد والانحطاط التى تشكل طابع الواقع المصرى ..

ومن أبرز الأمثلة على ذلك الدور الذى يلعبونه فى دائرة القنوات الفضائية، والدور الذى يلعبه يوسف القرضاوى بين الجاليات المسلمة فى أوربا بحكم كونه من رجال الأزهر..

والأزهر كما هو الحال فى الماضى يقف فى مواجهة أصحاب الرأى ويرفض النقد ويحتمى بالحكم فى مواجهة خصومه ومن يحاول النيل منه، وتدور داخله العديد من الصراعات بين أصحاب العمائم والبذات، وتعود هذه الصراعات إلى أسباب مذهبية ومادية تتعلق بالترقيات والهبات ..

يروى ابن إياس فى بدائع الزهور حوادث عام 913هـ قصة الشاعر جمال الدين **السلمونى الذى هجا معين الدين بن شمس وكيل بيت المال بسبب سوء إدارته وفساده، فشكاه معين الدين إلى القاضى عبد البر الذى أمر بالقبض على السلمونى وضربه وعزره واشهره فى القاهرة وهو عريان مكشوف الرأس، فلما بلغ السلطان الغورى ذلك أرسل من خلصه من القاضى عبد البر، فلما خلص هجا عبد البر بهذه القصيدة الفاحشة، وقد دارت بين الناس، فشكا عبد البر السلمونى إلى السلطان، فقبض عليه مرة ثانية وضرب من القضاة الذين تعصبوا لعبد البر بالسياط وشهر به فى القاهرة ..**

والقضاة هنا هم من رجل الأزهر بالطبع وقد تحالفوا مع ابن عبد البر الفاسد الذى يغطى على رجال السلطة الفاسدين ..

والقصيدة التى ذكرها ابن إياس طويلة وتحوى حسب تعبيره " ألفاظ فاحشة إلى الغاية وإساءة مفرطة " ..

ومن أبيات هذه القصيدة:

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها

أينكر فى الأحكام زورُ وباطلُ واحكامه فيها بمختلفاتها

إذا جاءه الدينار من وجه رشوة يرى انه حِلُ على شبهاتها

فإسلام عبد لبر ليس يرى سوى بعمته والكفر فى سنماتها

وقد كان ذئباً لابن سبع وقومه يطالع بالأخبار قبل رواتها

ولو يعط ديناراً وطاوعه الورى لأسقط عنها صومها وصلاتها

شكت ملة الإسلام مما ينالها بأفعاله يا هل ترى تزيل شكاتها

فلا تخشى إثماً ان تخوض بعرضه فغيبته للناس خير لغاتها

وثار رجال الأزهر عام 1192هـ على الشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية الذى سعى لتولى منصب شيخ الأزهر بدعم من الأمير المملوكى إبراهيم بك، وتزعم مشايخ الأزهر الشافعية الثورة على الشيخ العريشى ورفضوا توليه مشيخة الأزهر، وشكوا إلى إبراهيم بك ومراد بك وذكروا أن العريشى حنفى المذهب وهذا المنصب من مناصب الشافعية، وليس للحنفية فيه قديم عهد، وقدموا دليلاً آخر وهو أن العريشى ليس من أهل مصر وإنما هو من أهل الشام ..

ورفض أمراء المماليك إجابة طلب الشافعية وقالوا إن مذهب النعمان – أى أبى حنيفة ـ مذهبهم والأمراء حنفية، والقاضى حنفى، والوزير حنفى، والسلطان حنفى، فزادت ثورة الشافعية وتجمعوا فى ضريح الشافعى، فذهب إليهم مراد بك مع أمراء المماليك، فقال له ابن الجوهرى كبير الشافعية: لابد من فروة تلبسها للشيخ العروسى وهو يكون شيخاً للشافعية وذاك شيخاً على الحنفية، كما أن الشيخ الدردير شيخ المالكية ة والبلد بلد الإمام الشافعى وقد جئنا إليه، وهو يأمر بذلك، وإن خالفت يخشى عليك، فأحضر مراد بك فروة وألبسها الشيخ العروسى، ثم ركب الجميع إلى إبراهيم بك، وغضب الشيخ العريشى لما حصل وذهب إلى الشيخ أبى الأنوار السادات والأمراء المشايعين له، فألبسوه فروة أيضاً، وتفاقم الأمر بين شيوخ الأزهر، وصاروا حزبين، حزب مع العريشى، وحزب مع العروسى، وثار طلاب الأزهر من الشوام والمغاربة الذين تعصبوا للعريشى ومنعوا العروسى من دخول الأزهر،

واقتتل طلاب الشام مع الأتراك وقتلوا واحداً من الترك وجرحوا جماعة، وغضب إبراهيم بك وطلب من العريشى أسماء الطلبة الشوام فأرسل إليه أسماء جماعة لا وجود لهم ولما لم يجدوهم غضب إبراهيم ومراد وبقية الأمراء لكونهم من الترك وقرروا الإطاحة بالعريشى وتعيين العروسى مكانه، وهكذا انتهت هذه الرواية المضحكة بانتصار الشافعية على الحنفية بمعونة الغز، وهى إن دلت على شئ فإنما تدل على مدى تخلف رجال الأزهر وارتباطهم الدائم بالحكام وهو حالهم فى كل زمان..

وإذا كانت السينما فى مصر قد أسهمت فى تشويه الدين فإن الفضل فى ذلك يعود إلى الأزهر الذى يملك صلاحية الرفض والموافقة على النصوص الدينية سواء كانت أفلاماً أو مسلسلات، فهو لا يصرح لأى نص إلا بعد أن يطلع عليه رجاله الذين تحكمهم النظرة المذهبية الضيقة التى لا تسمح بظهور أى عمل فى المجال الدينى يبدى وجهة نظر جديدة، أو مخالفة لرؤيتهم المتخلفة لقضايا الدين والتاريخ..

من هنا نرى الأعمال الدينية المصرية باهتة ومملة ومشوهة للإسلام ولا صلة لها بالواقع الإسلامى القديم..

والسينما المصرية لم ترحم رجال الأزهر وتوقرهم، بل سخرت منهم وتهكمت عليهم، هذا فى الوقت الذى لم تمارس فيه هذا الأسلوب مع رجال الدين المسيحى..

الطرق الصوفية: وهى كثيرة فى مصر وتزيد على السبعين طريقة ويضم جميعها كيان يسمى مشيخة الطرق الصوفية على رأسه شيخ مشايخ الطرق الصوفية، وهذا الكيان معترف به من قبل الحكومة والطرق التى تعمل من خارج دائرته تعتبر غير مشروعة..

وشعبية الطرق الصوفية تفوق شعبية التيارات الإسلامية الأخرى، حيث تظهر هذه الشعبية أثناء فترة الاحتفالات الخاصة بذكرى الرموز الدينية الكبرى فى مصر، مثل ذكرى السيدة زينب أو الحسين أو السيد البدوى..

ويكمن سر شعبية هذه الطرق فى رفعها شعار (اهل البيت) وتبنيها الزيارات والتوسل وإحياء المناسبات الخاصة برموز أهل البيت فى مصر، وهى الحالة الدينية التى يعشقها المصريون وفشل التيار السلفى الوهابى بإمكانياته وإعلامه فى صرفهم عنها..

إلا أن هناك العديد من هذه الطرق مشبوهة، ولا صلة لها بالدين من الأصل وتمارس الشعوذة والدجل، ويرتكب أفرادها المنكرات مثل الزنى واللواط..

وتزعم هذه الطرق يكون بالوراثة مما فتح الأبواب ليرث هذه الطرق عناصر غير مؤهلين دينياً وخلقياً من أبناء الشيخ الراحل أو أقاربه، مما يؤدى إلى حدوث صراعات داخلية تنتهى بانشقاقات وظهور طرق جديدة، الأمر الذى أدى إلى ظهور الفساد فى العديد من هذه الطرق..

وتشكل المراقد والأضرحة المنتشرة بمدن وربوع مصر دعماً كبيراً للطرق الصوفية، وحرجاً كبيراً للتيار السلفى الوهابى فى نفس الوقت، فالطرق الصوفية تستغل هذه المراقد- التى تحظى بمكانة كبيرة فى نفوس المصريين ومعظمها لرموز من الأشراف- فى دعم نفوذها وكسب ولاء العامة بالاهتمام بهذه المراقد، والاحتفاء بأصحابها، فى الوقت الذى أعلن التيار السلفى الوهابى الحرب عليها وعلى أصحابها دون جدوى..

وأدى هذا الأمر إلى ازدياد شعبية الطرق الصوفية وارتباط الجمهور المصرى بها وخسران شعبية التيار السلفى الوهابى وبغض الجمهور له..

والمصريون يتباهون بالمراقد حيث لا توجد قرية فى الريف المصرى إلا ويوجد بها مرقد أو أكثر، والقرية الخالية من المراقد تعد بلا قيمة ولا تاريخ..

ومن الطريف حول المراقد أن العديد منها يعد فارغاً لا جثمان فيه ويطلق المتصوفة على هذه المراقد الفارغة اسم: **مشاهد الرؤيا**، أى المشاهد التى تم إقامتها على أساس رؤيا رآها أحد الأعيان، أو التجار فى المنام للسيدة سكينة أو السيدة رقية مثلاً تطلب منه أن يقيم لها مرقداً فى مكان ما بمصر فينهض من منامه منفذاً المطلوب..

وهناك مرقدان بالفعل للسيدة سكينة والسيدة رقية بالقرب من مرقد السيدة نفيسة وهما من مشاهد الرؤيا وتقام لهما الاحتفالات فى كل عام ..

وهناك بعض المراقد أقيمت للصوص وقطاع طرق تابوا وأنابوا - حسبما روى - ويحتفل بها حتى اليوم منها مرقد الشيخ ابن عروس الذى كان زعيماً لأخطر عصابات اللصوص ثم أقلع عن الإجرام وهام على وجهه فى البلاد يقول أزجالاً منها:

كسرة من الزاد تكفيك وتبقى نفسك عفيفة

والعمر بكره يطويك وتنام فى جنب الخليفة

لابـد من يـوم مـعـلـوم تـرتـد فـيه المـظـالم

ابـيض عـلى كل مـظـلوم أسـود عـلى كل ظـالم

ومرقـد الشيخ صالح أبو حديد الذى أنشأ له الخديوى إسماعيل مسجداً بداخله قبره عام(1280هـ)..

وكان أبو حديد من عتاة المجرمين وقد احتمى بامرأة مغنية بعد أن كُشف أمره وادعى الجنون وتوقف عن الكلام، وشاع بين الناس أن له كرامات فتكاثروا من حوله وأغرقوه بالهدايا والنذور فصار من الأثرياء، وظل على حاله هذا إلى أن توفى وصنع معه الخديوى ما صنع ..

وللشيخ صالح صاحب كان ملازماً له فى اللصوصية له مرقد بالقرب من القصر العينى بالقاهرة ..

والأغرب أن البعض أقام مراقد وهمية بقبة صغيرة بجوار باب أو نافذة بيته من أجل أن يمنع المارة من التبول فى هذا المكان، ولا تزال هذه المراقد الوهمية لها وجود حتى اليوم ..

وعادة التبول فى الطرقات ـ وحتى التبرز ـ من العادات السيئة عند المصريين من قديم، وهى لا تزال مستمرة حتى اليوم، على الرغم من وجود دورات المياه فى الشوارع..

وقد نشرت صحيفة مصرية حكاية لمسئول مصرى كبير كان فى زيارة لإنجلترا وضبط وهو يتبول فى الطريق هناك..

والمراقد فى مصر لا تقتصر على المشايخ فقط بل طالت الزعماء والحكام أيضاً، ومن أشهر مراقد الزعماء والباشوات وأكبرها مرقد سعد زغلول الذى يسمونه بضريح سعد ويقع بجوار بيته أو بيت الأمة كما أطلق عليه..

والجدير بالذكر هنا أن مرقد سعد هذا قد تم بناءه عن طريق التبرعات من أبناء الشعب..

ولعل حال المراقد هذا هو ما أدى بالمصريين إلى اختراع المثل التهكمى القائل: **تحت القبة شيخ..**

والمثل الآخر المتعلق بتحول اللص إلى واعظ الذى يقول: **صار نقاب الغراير– الحائط – واعظ..**

وهناك مثل شائع بين المصريين حول المراقد يقول: إحنا دفنينه سوا ..

ولهذا المثل قصة تقول: أن اثنين من المحتالين ضاقت بهم السبل فأتوا بكلب ميت ودفنوه وبنوا فوقه قبة، وكلما مر عليهم أحد أخبروه هذا مرقد الشيخ كليب إبن فلان له كرامات كذا وكذا، حتى اشتهر أمره وهرع نحوه الزوار بالأموال والهدايا، ولما كثر المال فى أيدى المحتالين اختلفا فى القسمة فصاح أحدهما حالفاً بالشيخ كليب فسخر منه الآخر قائلاً: ده احنا دفنينه سوا ..

وتعامل المصريين مع المراقد فيه قدر من الغفلة والسذاجة، وهو ما يبدو بوضوح من خلال قيام البعض بإرسال رسائل إلى الشافعى يعرضون فيها مشاكلهم ويطلبون الحلول لها، والغريب أن هذه الرسائل كانت تصل لمرقد الشافعى (ت 204هـ) إلا أن المتسلم لها كان خادم المرقد بالطبع..

وقد جمع هذا الرسائل الباحث الاجتماعى الراحل الدكتور سيد عويس ونشرها فى كتاب تحت عنوان: **رسائل للإمام الشافعى**..

كذلك فإن طريقة الموالد والاحتفال بأصحاب هذه المراقد والشرائح التى تتوافد على الاحتفال لم تتغيرمنذ قرون طويلة..

يروى الجبرتى عن حوادث عام(1758م) **أنه لما توفى الشيخ عبد الوهاب بن عبد السلام اقاموا له قبراً بمقصورة، وأصبح مزاراً يختلط به الرجال بالنساء، وعند الاحتفال به ينصبون خياماً كثيرة ومطابخ وقهاوى ويجتمع أخلاط الناس خواصهم وعوامهم، وفلاحين وأرباب الملاهى والملاعيب، والغوازى والبغايا والقوادين والحواة، ويوقدون النيران ويطئون القبور ويصبون عليها القاذورات، ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر، ويجتمع لذلك الفقهاء وينصبون لهم خياماً أيضاً، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ويعتقدون أن ذلك قربى وعبادة ..**

وهذه الصورة التى رصدها الجبرتى فى القرن الثامن عشر للموالد بمصر هى نفس الصورة السائدة اليوم لم تتغير ولم تتبدل نراها فى مولد السيدة زينب أو السيدة نفيسة أو الحسين فى القاهرة، أو البدوى فى مدينة طنطا أو الدسوقى فى مدينة كفر الشيخ أو القناوى بصعيد مصر..

ولعل هذا ما أنتج المثل المصرى السائد: **مولد وصاحبه غايب** ..

والمثل الآخر الذى يقول: **ركب الخليفة وانفض المولد**..

ويشير هذا المثل إلى السنة الدائمة فى موالد مصر وهى حضور الحكام ومباركتهم ودعمهم لها، وهى السنة المستمرة حتى اليوم، إلا أن الجديد فى الأمر هو أن الموالد المعاصرة لا تنفض برحيل الحاكم منها..

وقد رصد لنا الجبرتى العديد من الجماعات التى اتخذت التصوف وسيلة للهو واللعب والرقص بإسم الدين، وخلطوا ذلك بالعبادة وراحوا يدورون ويحركون أذرعهم إلى الوراء ورؤوسهم الى اليمين واليسار فى حلقات الذكر..

ومثل هذه الظاهرة لاتزال قائمة حتى اليوم بين الطرق الصوفية وتبرز بقوة أثناء الموالد وتسمى عند المصريين: **التفقير**..

ولا يزال العقل المصرى تسيطر عليه الخرافات والاعتقاد فى المشايخ، وقد ساعد هذا الإعتقاد على بروز العديد من المحتالين من أهل الدجل والشعوذة..

وكثراً ما تنشر الصحف المصرية أخبار القبض على هؤلاء الدجالين والمحتالين الذين يستغلون السذج والمغفلين ..

ولعل هذا العقل هو الذى دفع بنابليون إلى إطلاق شائعة إسلامه حين دخل مصر، وهو ما دفع بمينو خليفة كليبر إلى إشهار إسلامه وزواجه بمصرية مسلمة، وهو ما دفع بهتلر أيضاً إلى إطلاق شائعة إسلامه حين دخلت قواته أرض مصر أثناء الحرب العالمية الثانية ..

ومن الطريف أن هناك ضريح فى منطقة مصر القديمة يطلق عليه ضريح سليمان باشا الفرنساوى أو الشيخ الفرنساوى كما يسميه العامة، وصاحبه هو واحد من الضباط الفرنسيين الذين استوطنوا مصر فى عهد محمد على وأوكل إليه تدريب قواته، وأسلم بعد ذلك وتسمى بسليمان وتزوج من مصرية مسلمة وحصل على رتبة الباشوية وبنى مسجداً ودفن بعد موته بالقرب منه، ودفنت إلى جواره زوجته ..

وهناك مرقد فى نفس المنطقة للشيخ أبى السعود أشيع عنه أن بركاته تطول النساء العاقرات، ولذا كان معظم زواره من النساء، وتحدث إلى جواره كثير من الموبقات والمنكرات..

ويحدثنا الجبرتى عن مرقد يقع فى سوق القاهرة الرئيس المسمى بالعتبة الآن لشخص يدعى محمد البكرى، وقصته تتلخص فى أن محمداً هذا كان مخبولاً ذاهب العقل أو مجذوباً حسب تعبيرات العامة، وكان له شقيق يرعاه، وانتبه شقيقه لمواقف العامة من محمد وتبركهم به وهداياهم له فقرر حجبه عنهم واستثماره والتربح من خلاله، فوضع حدوداً لزيارته والتبرك به، وأصبح هو المتلقى للهدايا والعطايا واستمر على هذا الحال حتى توفى محمد فدفنه فى هذا المكان الذى تحول إلى مزار يتبرك به حتى اليوم ..

وحتى مرقد رأس الحسين الذى يعد من أهم المزارات فى مصر هناك خلاف كبير حوله، فحين يشكك التيار السلفى الوهابى فى وجود الرأس بمصر، يقول الشيعة بأن الرأس ردت وضمت إلى جسد الحسين ..

وكثيراً ما يتم القبض على العديد من الدجالين والمشعوذين الذين يقومون بخداع الناس والاحتيال عليها والطريف أن أحد هؤلاء قرر وصفة علاجية لإمرأة مريضة بأن تستحم بالماء والملح فجراً وأمام مرقد رأس الحسين وفعلت المرأة ذلك..

ولا تزال تنتشر فى مصر ظاهرة استحضار الجن ومعالجة الملبوسين به بعدة وسائل منها استخدام القرآن، كما نشأت العديد من المراكز التى تعالج الأمراض النفسية عن طريق القرآن..

وما يجب ذكره هنا هو أن المسيحيين الأرثوذكس لهم مراقدهم وموالدهم أيضاً التى تتشابه مع مراقد وموالد المسلمين، إلا أنها محدودة بالطبع نظراً لقلتها، كما أنهم يقومون بنفس الدور الذى يقوم به المسلمون فى مطاردة الجن ومعالجة أصحاب الأمراض النفسية والصرع ولكن عن طريق الإنجيل، ويأتيهم العديد من المسلمين الذين ضاقت بهم لسبل فلم يجدوا علاجاً لحالتهم عند مشايخهم ..

ومما يلفت الانتباه أن جميع الرموز الكبرى فى عالم الدين والتصوف بمصر والتى يحتفل بها من قرون طويلة هى رموز وافدة عليها واستقرت فيها فى فترات مختلفة ..

وفى مقدمة هذه الرموز

السيدة زينب بنت الإمام على وشقيقة الحسين ..

والسيدة نفيسة وجدها الحسن بن على ..

والسيدة عائشة التى يقال أن نسبها ينتهى إلى جعفر الصادق ..

والشافعى الشامى الأصل ..

والسيد البدوى المغربى الأصل..

والمرسى أبى العباس الأنصارى الأصل..

والليث بن سعد القرشى..

والعز بن عبد السلام الدمشقى..

وابن حجر العسقلانى شارح البخارى..

وكذلك القنائى والدسوقى والشعرانى والشاذلى والصباغ من أصول مغربية وهؤلاء هم أصحاب المراقد الشهيرة بمصر وكانت لهم بصمة واضحة فى عالم الفقه والتصوف والدين بشكل عام..

الجماعات: وهى كثيرة أيضاً ولكنها ليست بحجم وقوة الطرق الصوفية فهى تستحوز على قطاعات من المتدينين لا تمثل وزناً على الأغلب، وقد برزت هذه الجماعات بقوة مع المرحلة النفطية فى فترة السبعينيات..

وعلى رأس هذه الجماعات جماعة الإخوان وهى الأكثر وزناً من بينها وإن كانت تعد محظورة وغير مشروعة فى نظر الحكومة، إلا أن مؤسساتها وإمكانياتها تبرزها بقوة على ساحة الواقع وتظهرها بمظهر غير مظهرها..

وهناك خيوط وصفقات سرية بين الإخوان والحكومة تجعلها باقية ومستمرة..

والراصد لتحركات هذه الجماعة ومواقفها يظهر له وكأنها جماعة سياسية لا صلة لها بالدين، ويبدو هذا بوضوح من خلال صفقاتها السياسية التى عقدتها مع الأحزاب والحكومة وحتى الأمريكان..

والإخوان شأنهم شأن الحركات الأخرى التى ظهرت على الساحة المصرية وغفلت عن تركيبة الواقع، ويظهر هذا الأمر بوضوح حين دخلت فى صدام مع عبد الناصر، فقد اغترت بقوتها وشعبيتها وغفلت عن وضع عبد الناصر وهو أنه يجلس على كرسى الحكم وإن كان الأضعف فى نظرهم، إلا أنه كان الأقوى فى نظر الشعب لكونه يجلس على الكرسى..

ومن الطريف أن الآلاف من الإخوان قد اختفوا بعد تصفية الجماعة فى منتصف الخمسينيات وذابوا فى قلب الواقع وانسلخوا من الدين كلية ..

وتأتى بعد جماعة الإخوان الجماعات السلفية الوهابية التى تتعبد بنهج السلف وتعيش بعقل الماضى، ومثل هذه الجماعات لا ينتمى إليها إلا أصحاب العقول الضعيفة والسوقة من الطبقات الدنيا الذين يشعرون مع هذا الجماعات بقيمتهم المفقودة فى المجتمع، وقيمتهم الكبيرة فى الآخرة التى يضمنها لهم هذا التيار وفق معتقد الفرقة الناجية من النار التى يدعون تمثيلها، وهو ما يفسر تمركزها وانتشارها فى الأحياء الشعبية الفقيرة..

وعلى الرغم من كون هذا الجماعات تتبنى نهجاً واحداً هو نهج السلف، إلا أنها كثيرة التناحر والخلاف وهو ما يلقى بظلال من الشك على هذا النهج الذى تتبعه..

وتتبنى هذه الجماعات العديد من المواقف العدائية من جميع المخالفين لها من الإخوان والسياسيين والعلمانيين، وتكن عداءاً خاصاً للشيعة والصوفية ونتاجات العصر التى تصطدم بمعتقداتهم والتى تعد فى منظورهم من البدع والضلالات، ويتقمص عناصر هذه الجماعات الشخصية الخليجية حيث يرتدون الجلاليب البيضاء القصيرة، ويضعون الشال على رؤوسهم، بالإضافة إلى لحاهم الطويلة التى تميزهم عن عناصر الجماعات الأخرى..

والفكر السلفى هو الذى تفرخت منه الجماعات الجهادية، كما تفرخت منه بعض الجماعات التكفيرية..

ونظراً لكون هذه الجماعات لا تتعاطى السياسة فإن الحكومة لا تهتم بها كثيراً بل تستخدمها كوسيلة ضغط على الجماعات الأخرى، كما تستخدمها أيضاً وسيلة ضغط على المسيحيين والمثقفين..

أما الجماعات الجهادية والتكفيرية فهى نشأت فى الأصل من خلال طرح سيد قطب المتصادم مع طرح حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان التى برز قطب فى دائرتها قبل أن تتلحف بنهج السلف..

والجهاد والتكفير فكرتان لا يحتملها المصريون ولذلك فإن هذه الجماعات لم تعمر طويلاً فى دائرة المجتمع المصرى منذ ظهورها بفترة السبعينيات، إلا أن هذا لاينفى أنه لا تزال لها بقايا ويدعم وجودها تردى المجتمع وازدياد الهوة بينه وبين الإسلام..

ومن حسن حظ الحكومة المصرية أن تركيبة الواقع المصرى لا تحتمل الصدام المسلح مع الحكم، وهى فكرة غير مرغوبة لدى المصريين وتعد السبب الرئيس فى فشل تيار الجهاد بمصر، كما تعد السبب الرئيس أيضاً فى بقاء الحاكم المصرى فى الحكم حتى يموت ..

واغتيال السادات لم يكن إلا طفرة فى تاريخ مصر قام بها تيار الجهاد بعوامل مساعدة ليس مجال الخوض فيها هنا ..

إلا أن ما نريد الإشارة إليه حول هذا التيار هو أنه يفكر بعقل الماضى، وحين أقدم على اغتيال السادات كان يحمل فتوى شرعية صريحة تجيز قتله ترتكز على فقه السلف..

والطريف أن الذين قاموا بتنفيذ عملية الاغتيال حالت تقواهم دون أن يفرغوا رصاصهم فى غير جسد السادات، لكنهم وجدوا إلى جواره فى ساحة العرض الأنبا صموئيل الذى كان السادات يدعمه ضد بابا المسيحيين الأنبا شنوده، فقتلوه دون حرج لكونه لا يحتاج إلى فتوى فى منظورهم..

وكان الأنبا صموئيل يجلس فى الصفوف الخلفية فطلب أن يجلس إلى جوار السادات ومن سوء حظه وحسن حظ شنوده أن السادات أجابه لطلبه ..

وفكرة توبة عناصر الجهاد التى برزت على الساحة المصرية مؤخراً إنما يعود سببها لطبيعة الشخصية المصرية اللينة ذات النفس القصير والقابلة للإذعان فى الأصل..

والذين يتبنون فكرة التكفير للمجتمع والناس يعيشون فى عزلة عن الواقع هم فرضوها على أنفسهم، مما يدفع ببعضهم فى أحيان كثيرة القيام بمغامرات جنونية مثل السطو على ممتلكات الآخرين الكفار فى منظورهم، وكذلك اختطاف المتبرجات من النساء واغتصابهن..

ومع قيام الثورة الإسلامية فى إيران أخذت الجماعات الشيعية دفعة قوية على مستوى المنطقة ومصر خاصة، وبرزت على الساحة المصرية من بعد غياب طويل..

وقد أزعج هذا البروز الجماعات الأخرى، كما أزعج الحكومة أيضاً مما دفع بها إلى توجيه عدة ضربات لها واتهامها بالعمل لحساب إيران التى يخاصمها الحكم ويرتاب منها..

وأدى هذا البروز أيضاً إلى إشعال حرب إعلامية بين الجماعات الإسلامية والشيعة لا تزال مستمرة حتى اليوم، تلك الحرب التى استخدمت فيها كل وسائل الدعاية من كتب وأشرطة مرئية ومسموعة وحتى منابر المساجد وغير ذلك مما فصلناه فى كتابنا: **الحركة الإسلامية فى مصر**..

والجماعات الإسلامية فى مصر عموماً تتبنى الإسلام الشعارى فمنها من يرفع شعار: **الإسلام هو الحل كالإخوان**..

ومنها من يرفع شعار: **الكتاب والسنة كالسلفيين**..

ومنها من يرفع شعار: **تطبيق الشريعة الإسلامية**..

إلا أن هذه الجماعات عموماً لا تملك برامج أو نظرية واضحة للعمل ومواجهة الازمات والمشكلات القائمة، وقد عاصرت هذه الجماعات فى دائرة المعتقلات طوال فترة اعتقالى معهم فرأيت منهم ما تشيب له الولدان، من الحرقة على النسوان وسب الأديان إلى مجامعة الولدان والاعتداء على السجان، وقد طالتنى منهم صور عديدة من العدوان..

وهذه الجماعات قد أخذت امتداداتها إلى الخارج لتصل لأفغانستان والجزائر واليمن والجزيرة العربية والخليج وحتى أوربا وأمريكا، ولم تكن لتأخذ هذا الامتداد لو أنها نشأت فى بلد آخر غير مصر..

وقد فصلنا ما يتعلق بهذه الجماعات فى كتابنا: **سيرة أصحاب اللحى**..

ولعبة الدين فى مصر لا تقتصر على الأزهر والصوفية والجماعات، بل امتدت إلى الجمعيات الأهلية والمساجد التى تستخدم فى هذه اللعبة من قديم ..

والجمعيات الأهلية فى مصر لها توجهات متعددة قرآنية وصوفية وسلفية وغيرها ..

ولم تحصر هذه الجمعيات نشاطها فى محيط الدين فقط، بل تعدت ذلك إلى المساهمة فى الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية، فأقامت المستشفيات والمدارس والمشاريع الصغيرة وكل ذلك من التبرعات وأموال الزكاة..

وبالطبع لابد أن تعم الفائدة من وراء هذه الأنشطة أعضاء هذه الجمعيات ومجلس الإدارة على وجه الخصوص ..

وعلى رأس هذه الجمعيات **الجمعية الشرعية** لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية، وهذا هو شعارها، وتعد هذه الجمعية من أكبر الجمعيات الدينية وأقدمها فهى منتشرة فى جميع ربوع مصر، والمساجد التابعة لها تفوق مساجد الحكومة، إلا أن هذه الجمعية لا شأن لها بالسياسة ونشاطها يتركز فى محيط العبادات والأمور الأخلاقية، وهذا هو سر بقائها من عام تأسيسها (1912م) حتى اليوم..

وكانت الجمعية الشرعية تصدر مجلة شهرية بإسم: **الإعتصام** ثم توقفت وأصدرت اليوم مجلة أخرى تحمل اسم: **التبيان**..

وفى مواجهة هذه الجمعية برزت جمعية وهابية عام (1926م) مدعومة من قبل السعودية تطلق على نفسها اسم: **جماعة انصار السنة المحمدية**، وتصدر مجلة شهرية تحت اسم: **التوحيد**..

وقد تم إغلاق هذه الجمعية من قبل عبد الناصر ولم تعود لمارسة نشاطها إلا بعد وفاته..

والطريف هنا هو أن هناك عداءاً شديداً وحرباً قائمة بين الجمعية الشرعية وجماعة أنصار السنة بسبب الخلاف فى التوجهات، حيث ترفض الجمعية الشرعية عقيدة أن الله فى السماء وتتبنى عقيدة أن الله فى كل مكان، بالإضافة إلى توجهاتها المذهبية، ونزعتها الصوفية وهى العقائد التى ترفضها بقوة جماعة أنصار السنة المؤمنة بالفوقية أى أن الله فى السماء، وتشاركها هذا الاعتقاد الجماعات الإسلامية والتى تربى العديد من عناصرها فى دائرتها لرفعها شعار السلف وتبنيها معتقداتهم، بينما لم تشكل الجمعية الشرعية عامل جذب لهذه العناصر بسبب ميولها الصوفية والمذهبية حيث أن مؤسسها الشيخ السبكى كان حنفى المذهب ..

من هنا تهكم بعض الإسلاميين على شعار الجمعية الشرعية بقولهم: الجمعية الشركية لتعاون المنتفعين بالكتاب والسنة المحمدية ..

أما المساجد فهى تلعب أخطر دور فى محيط الدين بمصر من قديم، ذلك الدور الذى كان يتولاه الحكام الذين اكتشفوا أهمية المساجد بالنسبة للمصريين ومدى تأثيرها على نفوسهم فاهتموا بتعميرها والإكثار منها..

والقاهرة بلد الألف مئذنة كما يسمونها ورثت هذه المآذن عن العصر الفاطمى والمملوكى والعثمانى والتى شيدها خلفاء وسلاطين تلك الفترات..

وتعود نسبة كبيرة من هذه المساجد إلى المماليك، الذين كانوا يسفكون دماء المصريين، وينهبون أموالهم ثم يبنون بها مساجد يجعلونها مقابر لهم..

ومن قرون طويلة ومنابر هذه المساجد تستخدم فى الدعاية للحاكم، ولعن خصومه، ومهاجمة أعدائه فى كل مكان، وإذا ما كان هناك فراغ لديها اتجهت إلى الحكايات واستعراض أمجاد الغابرين ومآثرهم، وهو الدور الذى تقوم به هذه المنابر اليوم..

وكم أنزلت لعنات من فوق هذه المنابر على الإخوان وآل سعود والقذافى، ثم لما حدثت المصالحات، وتغيرت السياسات، وجاءت التوجيهات، انقلبت هذه المنابر تثنى على آل سعود والقذافى وغيره ممن كانت تلعنهم بالأمس ..

ولما قامت الثورة الإسلامية واشتعلت الحرب العراقية الإيرانية أنزلت هذه المنابر لعناتها على الشيعة وإيران والخمينى وأخذت تمجد فى صدام، ثم لما قام صدام بغزو الكويت انقلبت عليه وأنزلت عليه لعناتها..

وقد تسابق القادرون من المصريين على بناء المساجد كوسيلة للتقرب من الحكومة والناس، والإعفاء من الضرائب أيضاً، إذ أن القانون المصرى يعفى صاحب العقار الذى يبنى فى عقاره مسجداً من الضرائب..

من هنا كثرت المساجد والزوايا بمصر، وكثر معها محترفو النصب والاحتيال باسم الدين، وكثرت معها أيضاً عناصر الجماعات التى عملت على استغلال هذه المساجد والزوايا التى لا تجد من يعمرها من الأئمة والمصلين، فقامت هذه الجماعات بتعميرها ـ على طريقتها طبعاً ـ واستغلال منابرها فى ترويج أفكارها ومعتقداتها بين الجمهور، حتى أن بعض الجماعات الجهادية كانت تستغل هذه الزوايا فى التدريب على السلاح والرياضة العنيفة..

وقد تنبهت الحكومة مؤخراً لخطورة هذه المساجد والزوايا فقامت بمصادرتها وضمها إلى وزارة الأوقاف مما شكل ضربة قوية لهذه الجماعات من الإخوان والسلفيين وغيرهم..

واستخدمت المساجد أيضاً كواجهة للكثير من رجال الأعمال، وتجار المخدرات الذين قاموا ببناء العديد منها، كمحاولة لتطهير أموالهم وإضفاء المشروعية على أنشطتهم المشبوهة، كما استخدمت وسيلة لطلب الصفح والغفران للراقصات والمطربين الذين دخلوا حلبة المنافسة على بنائها..

وبعض الذين يقومون ببناء الزوايا والمساجد يكتبون عليها أسمائهم تخليداً لذكراهم..

ومن الطريف أنه كان هناك كباريه شهير على النيل يسمى «الكيت كات» تم هدمه بعد ذلك وبناء مسجد مكانه اسموه مسجد «خالد بن الوليد»..

وظاهرة المساجد والزوايا المتلاصقة والمواجهة لبعضها والتى تسد الطرقات من الأمور الملفتة فى مصر، إذ تدفع إلى التساؤل ما هى الضرورة التى تبرر ذلك..؟

والملفت أن هذه المساجد والزوايا تقام فيها الجمع والجماعات، وصلاة الجمعة لا يتخلف عنها المصريون مما يستوجب الأمر افتراش الطرقات..

وكثرت نتيجة هذه المساجد مكبرات الصوت التى تنادى للآذان بأصوات مزعجة منفرة جميعها فى وقتٍ واحدٍ..

ثم تسمع الخُطب فى صلاة الجمعة بمكبرات الصوت بموضوعاتها المختلفة أيضاً فى وقتٍ واحدٍ.. وترى المصلين متجاورين ومتداخلين لا تستطيع أن تميز أى خطيب يسمعون وأى إمام يتبعون.

حتى إذا أقيمت الصلاة يمكنك التمييز بينهم فترى البعض يصلى والبعض الآخر جالس فى مكانه ينتظر إقامة الصلاة بالمسجد الخاص به..

وترى العديد من سكان البيوت المجاورة يطل من النافذة، أو يقف أمام باب البيت منتظراً إقامة الصلاة وهو ممسك بسجادة الصلاة، ثم يندفع مسرعاً ومكبراً وراء أول من يقيم الصلاة، وبنفس سرعة دخوله فى الصلاة يخرج منها كالإبل التى أفلتت من عقالها..

وتحضرنى قصة طريفة لأحد الزوايا الصغيرة فى أحد أحياء القاهرة وهى زاوية تتبع الصوفية، وقد بنيت فى البيت الملاصق لها زاوية أخرى تتبع جماعة أنصار السنة المعادية للصوفية..

ونترك للقارئ أن يتصور ما يحدث بين الزاويتين أثناء صلاة الجمعة ..

وهناك العديد من المساجد تبنى فى مصر على أساس رد الفعل تجاه أنشطة المسيحيين، فإذا ما قام المسيحيون ببناء كنيسة فى مكان ما، يهب المسلمون لبناء مسجد أمامها أو إلى جوارها، وكثيراً ما تحدث مصادمات بسبب هذه الأمر ..

والحقيقة أنه لا المسلمين فى حاجة إلى هذه المساجد، ولا المسيحيين فى حاجة إلى هذه الكنائس..

ويبدو أن المصريين قد فقدوا الثقة فى هذه المساجد ورجالها من قديم مما دفع بهم إلى إطلاق الأمثلة التى تكشف انعدام هذه الثقة وشكهم فى جدواها..

ومن هذه الأمثلة:

إللى يعوزه البيت يحرم على الجامع..

بركه يا جامع إللى جت منك ما جت منى..

هاتو من المزابل حطو على المنابر..

قبل ما يبنى الجامع اترصت العميان..

كل لقمه فى بطن جايع أخير من بنا جامع..

وعلى الرغم من كثرة المساجد والزوايا والخطب والموالد والبرامج الدينية والجرعة الدينية الزائدة عن الحد - والتى تعتمد فى أحيان كثيرة على التخويف بعذاب القبر والنار والإرهاب - فإنه لا تزال تنتشر بين المصريين بقوة ظاهرة سب الدين مما دفع ببعض الجماعات الإسلامية إلى وضع ملصقات على الحوائط فى الشوارع تقول: **لا تسب الدين..**

وملصقات الجماعات الإسلامية فى الطرقات أصبحت اليوم ظاهرة ملفتة بالشارع المصرى، تلجأ إليها هذه الجماعات كمحاولة للتحرر من ضغوط الحكومة التى تحول بينها وبين حرية التعبير عن أفكارها..

وأكثر هذه الملصقات يعود إلى جماعة الإخوان المسلمين..

أما ما تحويه هذه الملصقات فمنه ما يتعلق بالصلاة، ومنه ما يتعلق بالحجاب، ومنه ما يتعلق بالهجمة الأوربية على شخص الرسول، ومنه الشعارات الإخوانية ..

فهناك ملصق يقول: **صلى قبل ان يُصلى عليك ..**

وملصق يقول: **الحجاب قبل الحساب ..**

وملصق يقول: **الله أكبر ولله الحمد وهو شعار جماعة الإخوان ..**

وملصق يقول: **إلا رسول الله ..**

وإلا رسول الله هو مطلع أغنية جديدة غناها واحد من المتخصصين فى الغناء الدينى دفاعاً عن الرسول ضد ما نسب إليه فى الصحف الدنماركية ..

والتدين بمصر يأخذ فى أحيان كثيرة الصورة المرضية، فهو يكون عند البعض محاولة لإثبات الوجود، وعند آخرين محاولة لتحقيق التوازن النفسى والهروب من ضغط الواقع وكآبة الحياة المعيشية، وعند البعض يعد التدين محاولة لمداراة العيوب والتجمل أمام الناس..

وقد جعل التدين القشرى الأجوف والمسطح المصريون يفتنون بأصحاب الأداء التمثيلى المتلاعبون بأصواتهم وينجذبون نحوهم رغم تفاهتهم ..

ومثل هؤلاء الذين لديهم هذه الطرق التمثيلية التى تعتمد على رفع الصوت تارة، والتنغم بآيات القرآن تارة، والقيام ببعض الحركات الملفتة، يتشابهون مع المهرجين والحكواتية القدامى الذين هم محل تركيز الشخصية المصرية ..

ولقد تعلق بالدين فى مصر الكثير من الأراذل والأوباش الذين أسهموا فى المتاجرة والتلاعب به واستثماره وتشويهه وتضليل الناس به، ولازال أمثال هؤلاء يلعبون هذا الدور حتى اليوم، وهو ما يظهر لنا بوضوح مع الجماعات الإسلامية التى تعلق بها الكثير من أمثال هؤلاء وحققوا الكثير من المكاسب عن طريقها ..

وهو ما يظهر أيضاً من خلال أولئك السفهاء من المصريين الذين يملئون القنوات الفضائية، ويضع بعضهم على رأسه الشال الأبيض حتى يتشابه مع بدو الوهابية أولياء نعمته، ويحوز على قبولهم وينال رضاهم..

ويبدو أن الدين أصبح مشاعاً لكل من هب ودب بمصر اليوم، حيث يتناوله كهان الأزهر والسوقة من السلفيين الوهابيين، والمراهقين ونساء الصالونات، والراقصات والمطربات والممثلات اللاتى تحجبن وجعلن من أنفسهن داعيات للإسلام، وهو ما يؤكد لنا بحق أن المصريين إتخذوا دينهم لهواً ولعبا..

والطريف أن هؤلاء الذين اعتزلوا التمثيل والغناء والرقص رجالاً ونساءاً منحهم الإعلام لقب تائب، وهو بهذا يؤكد لنا أن أمثال هؤلاء كانوا غارقين فى المعاصى والآثام، وأن ما يسمونه بالوسط الفنى هو وسط الفجور والمحرمات ..

وهذا ما دفع البعض من العاملين فى هذا الوسط إلى الاحتجاج على هذا اللقب، إلا أن ما يجب ذكره هنا هو أن الذين تابوا من هؤلاء وقعوا فى مستنقع آخر من مستنقعات الآثام، وهو المستنقع السلفى الوهابى المتخلف والمعوج، أى هم فروا من إفراط ليقعوا فى تفريط..

وما نخرج به فى النهاية من استعراض الحالة الدينية بمصر هو أنها فتحت الأبواب على مصارعها للتلاعب بالدين، وأسهمت بمشاركة السعودية فى تخريب الإسلام فى العالم المعاصر منذ عقود طويلة..



مصر فى القرآن والروايات

7

القرآن يذم مصر والروايات لم تنصفها..



يتباهى المصريون بأن مصر ذكرت فى القرآن، ويعد هذا دليلاً فى نظرهم على عظمة مصر وقيمتها إلا أن المتأمل فى نصوص القرآن المتعلقة بمصر سوف يجد الأمر على غير ذلك..

وما يتعلق بمصر فى القرآن جاء ضمن قصة يوسف وقصة موسى مما سوف نتبينه من خلال استعراضنا لنصوصهما..

يوسف ومصر

وقصة يوسف حوتها سورة كاملة من سور القرآن ملخصها أن إخوته لما تآمروا علية وألقوه فى البئر التقطه بعض السيارة من التجار الذين أخذوه معهم إلى مصر حيث باعوه هناك لشخصية مصرية كبيرة ..

يقول القرآن: **﴿وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾**.

وتلك هى بداية قصة يوسف بمصر والفصل الأول منها ..

أما الفصل الثانى فيبدأ من خلال بلوغه وافتتان امرأة العزيز به..

يقول القرآن: **﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون﴾**.

وحدث بعد أن رفض يوسف تلبية رغبتها واكتشاف العزيز الأمر، أن مكرت المرأة بيوسف وأدعت أنه أراد بها سوءاً وطالبت بتوقيع أقصى العقوبة عليه، إلا أن شهادة واحد من أهل المرأة أنقذت يوسف وبرأت ساحته..

والظاهر أن هذه المرأة كانت صغيرة بلا أبناء وزوجها كبير قد زهد فيها، فمن ثم هى تعيش حالة من القلق النفسى والحرمان الجنسى، ووجود يوسف أمامها بمقوماته الجمالية المختلفة عن المصريين قد حرك فيها الشوق وبعث فيها الغريزة، ودفع بها إلى مراودته عن نفسها، وهذا يكشف لنا أن هناك خلل فى هذه البيت وعدم تكافؤ بين الزوجين، مما يعطى صورة سلبية عن الأسرة المصرية آنذاك..

ويعطينا أيضاً صورة سلبية عن المرأة المصرية فى هذا العصر، أنها كانت هشة ضعيفة من الممكن أن تقودها شهواتها نحو التهلكة، وهو حال المرأة المصرية اليوم على ما يتضح من كم الجرائم النسائية التى سوف نعرض صورة منها لاحقاً ..

ولما أشيع الأمر بالمدينة وتناولت النسوة من أصحاب هذه المرأة سيرتها تملكها الغيظ وقررت أن تلقنهم درساً..

يقول القرآن: **﴿وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم. قالت فذلكن الذى لمتتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾.**

وهذا الفصل الجديد من قصة يوسف يعطينا صورة أكثر سوءاً عن المرأة المصرية آنذاك، إذ أن المسألة تعدت امرأة العزيز إلى نسوة آخرين، لما رأوا يوسف تهافتوا عليه وانبهروا بجماله حتى غبن عن الوعى فقطعت السكاكين أيديهن، وبدا وكأنهن لم يروا رجالاً من قبل..

وأصبح يوسف فى مواجهة امرأة العزيز المصرة على مراودته وصواحبها أيضاً وكانت النتيجة أن اختار يوسف السجن فدخله ظلماً بكيد النسوة..

والسؤال هنا هو: هل كل تلك النسوة كن يعشن نفس حالة امرأة العزيز ؟

وهل أصيب الرجال بشئ فى تلك الفترة ؟

وهكذا أهدى الله لمصر نبياً طاهراً فأراد نسوة مصر أن ينجسوه ولما أصر على الطهارة سجنوه..

وهذه بالطبع نتيجة ليست فى صالح مصر ..

والنتيجة الأخرى التى نخرج بها من هذا الفصل هى أن السجون كانت سنة من سنن المصريين تكتظ طوال التاريخ بالمظلومين والأحرار، وهى سنة قائمة حتى اليوم حيث لا يمكن إحصاء عدد السجون والمعتقلات التى بنى معظمها فى العصر الجمهورى والعصر الحالى خاصة ..

والنتيجة الأهم التى نخرج بها من قصة يوسف هى أن هذا النبى الذى أدخلة النسوة السجن ظلماً، هو الذى أنقذ مصر من الجوع والضياع بعد أن ظهرت براءته واعترفت امرأة العزيز بجرمها، وقربه ملك مصر إليه حين رأى حكمته بتفسير رؤياه التى عجز عن تفسيرها الكهنة والحاشية، تلك الرؤيا التى تتعلق بحالة من القحط والسنين الشداد سوف تمر بها البلاد..

وتسلم يوسف زمام البلاد ليواجه هذه الأزمة وينقذ مصر من الجوع ويزداد قوة وشعبية بين المصريين ويتمكن بالتالى من نقلهم من الوثنية إلى الوحدانية والدين الخالص..

وتسلم يوسف السلطة يعطى إشارة إلى عدم ثقة الملك فى قدرات من حوله، وعجز المسئولين عن القيام بدور فى مواجهة الأزمة القادمة، وهو ما يعنى عدم كفاءتهم..

وقد أحضر يوسف أبيه يعقوب وإخوته إلى مصر ليقيموا معه فيها..

يقول القرآن: ﴿ **فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين**﴾.

وهنا ملاحظة هامة وهى أن النص القرآنى ربط الأمن بالمشيئة الإلهية، وهذا يعنى أن قضية الأمن فى مصر غير محسومة، وأن الأمن فيها قضية متأرجحة وغير ثابتة ..

وهذا ما يفسر لنا أن الأمن عبر التاريخ إنما يكون للفرعون الحاكم، أما الرعية فهى فى حالة خوف دائم، وهو ما يشهد به الواقع المعاصر على ما سوف نبين ..

والسؤال هنا هو: هل حفظت مصر هذه القيمة الكبيرة التى استمدتها من ذاك النبى القادم من بعيد..؟

والجواب لا فقد انقلبت مصر على يوسف والتوحيد بعد وفاته لتعود مرة أخرى إلى الوثنية بمشيئة الفرعون الجديد، ولترد الجميل لبنى إسرائيل قوم يوسف الذين استوطنوا

مصر معه بأن تستحيى نسائهم وتقتل أبنائهم وتسترق رجالهم، الأمر الذى أدى إلى ظهور موسى ليقوم بدوره فى إنقاذ بنى إسرائيل من استعباد المصريين ..

موسى وفرعون

وتبدأ قصة موسى فى مصر بنبوءة أثارت الرعب فى قلب فرعون، وملخص هذه النبوءة أنه سوف يولد فى بنى إسرائيل طفل سيكون هلاك فرعون على يده..

من هنا أصدر فرعون أمره بقتل كل من يولد من الذكور فى بنى إسرائيل مما دفع بأم موسى أن تقرر إبعاده عن يد فرعون فور ولادته فقامت بوضعه فى صندوق وألقته باليم لتلتقطه امرأة فرعون التى تقرر تبنيه وتربيته فى قصره كما فصل القرآن فى سورة القصص..

والقرآن لم يخبرنا عن مصدر هذه النبوءة التى أرعبت فرعون، والتى يدل صدقها على كونها جاءت من مصدر على علم بالغيب، ولعل هذا المصدر هو يوسف وتوارثها عنه الأتباع من بنى إسرائيل، وعن طريقهم وصلت إلى كهنة فرعون..

إلا أن ما يعنينا من قصة موسى هو الجانب المتعلق بتلقيه الرسالة وصدامه مع فرعون إذ يقص علينا القرآن أن موسى لم يكن متوجهاً برسالته إلى المصريين، وإنما كان هدفه هو تخليص بنى إسرائيل من ظلم فرعون وتحريرهم من عبوديته والخروج بهم من مصر..

يقول القرآن: **﴿فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾**

«طه: 47»

وبالطبع فإن فرعون قد رفض هذا الطلب وتحدى موسى وربه، إذ كان من الصعب عليه التنازل عن بنى إسرائيل الذين يشكلون القوة العاملة التى يعتمد عليها المصريون، والتخلى عنهم يعنى إحداث خلل فى التركيبة الاقتصادية والاجتماعية، وفوق هذا فقد أخذت فرعون العزة بالإثم، واستخف بموسى الضعيف فى نظره والذى يدعى تمثيل قوماً هم مسخرون له ولشعبه، شأن أى حاكم مصرى يواجه بتحد أى معارضة..

يقول القرآن: **﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدين﴾**

«المؤمنون: 45: 47 »

ومن الملاحظ فى قصة موسى أنه توجه بطلبه نحو الفرعون الحاكم لعلمه أنه المتصرف فى شئون الناس بهذا البلد، وهو صاحب القرار الأوحد فيها، بل هو المالك للبلاد وما فيها من الخلق والعباد ولم يتجه موسى بدعوته نحو رعية فرعون من المصريين، لكونه يعلم أنهم لا يملكون القدرة على اتخاذ قرار التحول عن وثنيتهم دون أن يأذن لهم فرعون..

وهذه إشارة واضحة إلى أن تاريخ مصر على الدوام إنما يصيغه الفراعنة الحكام، بينما الشعب يقوم بدور المتفرج المستسلم لأوامر الفرعون وتوجيهاته ..

وهذه هى النتيجة الأولى التى نخرج بها من قصة موسى، أما النتيجة الثانية فهى ما تبرزه نصوص القرآن التالية ..

الاستخفـــاف

يقول القرآن: **﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين. فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين. فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾** «الزخرف: 51: 54»

وما تبرزه هذه النصوص هو أن فرعون كان على ثقة كبيرة من قومه المصريين، وأنهم سوف يطيعوه ولو كانت طاعتهم له سوف تؤدى بهم إلى التهلكة، وهو ما حدث بالفعل عندما أطاعوه فى مطاردة موسى وبنى إسرائيل رغم الآيات الكبرى التى أراها لهم والدالة على صدقه..

وكان من المفروض على فرعون أن يسلم لموسى ويطلق سراح بنى إسرائيل ويحتفظ بملكه..

وكان المفروض على المصريين أن يتصدوا لفرعون وهو يقودهم نحو التهلكة..

إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث..

والسبب فى هذا كما هو واضح من النصوص يعود إلى أمرين:

الأول: **أن فرعون استخف بشعبه ..**

الثانى: **أن شعبه كان فاسقاً ..**

وفسق المصريين هو الذى جعل فرعون يستخف بهم، وهى السنة القائمة فى تاريخ مصر أن كل الحكام يستخفون بالشعب، وسوف نبين هذا الأمر وكونه السنة المعمول بها من قبل الحاكم حتى اليوم..

من هنا فإن أمام هؤلاء الشعوبيون الذين يتغنون بأمجاد الفراعنة أمور ثلاث:

الأول: إذا ما أقروا بأن الفراعنة أجدادهم فهذا يعنى اعترافاً منهم بأنهم سلالة قوم فاسقين مستخف بهم ..

الثانى: التبرؤ من دعوى الشعوبية وبالتالى الخلاص من تهمة الفسق والاستخفاف..

الثالث: أن يكفروا بهذا القرآن ..

ومشهد السحرة مع موسى يؤكد فكرة الاستخفاف من قبل فرعون والفسق من قبل الشعب الذى جاراه وأطاعه، وهو يتحدى رسولاً من قبل الله بمجموعة من السحرة لا يملكون سوى عدة ألاعيب خداعية ..

يقول القرآن: **﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى. قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى. قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى. فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى . فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فاجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى﴾** «طه: 56: 64»

ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن فرعون كذب بآيات الله واعتبرها صورة من صور السحر وأصر على موقفه الاستعلائى المغرور مستخفاً بشعبه وبموسى، لتصبح سنة الاستخفاف سنة الحكام الدائمة فى مصر على مر الزمان..

وحتى تتضح الصورة لابد من عرض نماذج من صور الاستخفاف المعاصرة:

- تمجيد النيل وتقديسه والارتفاع به وكأنه لا يوجد مثله على وجه الأرض، بينما هناك العديد من الأنهار التى تعلوه قيمة وأهمية وتفوقه جمالاً فى بقاع أخرى من العالم ..

- تصريحات المسئولين عن الغلاء والأمن والحريات وحقوق الإنسان التى تتصدر الصحف منذ عقود طويلة دون أن يتحقق منها شئ..

- إنتاج رغيف خبز أطلق عليه الرغيف المحسن، وهذا من قمة صور الاستخفاف إذ يعنى أن الرغيف الذى يأكله الشعب غير صالح للأكل..

- إطلاق تعبيرات وهمية على وسائل المواصلات بهدف رفع أسعارها ككتابة عبارة: خدمة مميزة على الحافلات وهو ما يعنى أن الخدمة فى الأصل غير مميزة..

- تسمية الدرجة الثانية فى القطارات الشعبية: درجة ثانية مطورة ومميزة بينما هى فى الحقيقة لا تصل إلى أدنى الدرجات حيث المقاعد بلاستيكية وحديدية قذرة ومحطمة والعربات مليئة بالقمامة مظلمة وتفوح فيها رائحة القاذورات المنبعثة من دورات المياه الخالية من الماء..

- قيام شرطة الآداب بتحرير مخالفات للراقصات اللاتى يخرجن على حدود الأدب ويأتين بحركات مخلة أثناء ممارستهن الرقص مع كونهن يرقصن عاريات وجميع حركاتهن هى مخلة بالآداب ..

- حظر أنشطة القمار السرية والقبض على لاعبيه والسماح بالأنشطة المعلنة فى النوادى والفنادق..

- استيراد لحوم الكلاب وبيعها للشعب على أنها لحوم محفوظة ..

- جلب النفايات النووية ودفنها فى أرض مصر..

- إذاعة أخبار الانتخابات الحرة فى دول العالم بينما الانتخابات فى مصر لا صلة لها بالحرية والنزاهة..

ولقد تجلت أبرز صور الاستخفاف بالمصريين فى تلك البيانات الوهمية التى كانت تطلقها الإذاعة المصرية أثناء حرب عام 1967م والتى كانت تقول:

أسقطنا ١٦٧ طائرة ..

قواتنا على مشارف تل ابيب..

ولم تكن تلك البيانات سوى أكاذيب فاضحة..

وتجلت أيضاً فى تلك الأغانى الوطنية التى انطلقت لتواكب هذه البيانات منها أغنية تقول:

في البحر حندفنهم ..

هذا فى الوقت الذى ارتفع صوت المذيع وهو يصيح فى قوة: لتأكلك اسماك البحر يا إسرائيل بينما كانت الطائرات الإسرائيلية تدك المطارات المصرية، وتدمر الطائرات التى لم تتحرك من مكانها، بعد أن أبادت القوات المصرية فى سيناء..

ومن صوره أيضاً صاروخ القاهر والظافر الذى كان يهدد به عبد الناصر إسرائيل ثم تبين فى النهاية أنها صواريخ كرتونية..

ومن صوره المضحكة تغطية حى فقير يحوى بيوتاً من صفيح، وتسكنه طائفة القرداتية، الذين يلعبون بالقرود، فى شرق القاهرة بخيمة خضراء كبيرة حتى لا يراه الرئيس الفرنسى جيسكار ديستان، وذلك أثناء زيارته للقاهرة فى عصر السادات، كما تم دهن العديد من المنازل باللون الأبيض..

وسوف يجد القارئ الكثير من صور الاستخفاف الأخرى ضمن الفصول القادمة ..

والحاكم فى مصر على العموم يتعامل على أساس أنه لا يوجد شعب يخافه أو يتوقع منه أى رد فعل يهدد عرشه، ولذلك فإن حكم مصر سهل يسير والاحتفاظ به أكثر يسراً ..

يقول القرآن: ﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين. يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوبسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون . قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءآذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأص ـنكم اجمعين . قالوا إنا إلى ربنا منقلبون . وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين. وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وءالهتك قال سنقتل أبنائهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾ «الأعراف: 111: 127»

وجاء يوم الزينة وحانت ساعة المواجهة بين فرعون وموسى..

ومن خلال هذه المواجهة نخرج بالنتائج التالية:

- إن ما فعله السحرة كان مجرد ألاعيب خداعية ..

- إن السحرة أدركوا أن ما فعله موسى ليس سحراً بل معجزة إلهية فأعلنوا إيمانهم بالله على الفور ..

- إن فرعون صدم بهذه النتيجة وصب غضبه على السحرة ..

- إن فرعون اعتبر نفسه المالك والرب، فمن ثم لم يعترف بإيمان السحرة لأنه لم يكن بإذن منه وأصدر حكمه بإعدامهم..

- إن جمهور المتفرجين لم يتأثر بمعجزة موسى كما هو حال السحرة، ولم يكن الأمر بالنسبة إليه سوى مباراة استمتع فيها بمشاهدة فرعون وألاعيب السحرة وإعدامهم أيضاً..

- إن الكبراء وحاشية فرعون لم يتأثروا بمعجزة موسى أيضاً بل حرضوا فرعون على موسى وقومه..

والسؤال هنا هو: هل مثل هذه الأمة التى تفضل الوثنية على التوحيد، وتأله حاكمها، وتحارب رسول الله، وتكفر بمعجزاته، يمكن أن تكون أمة راشدة وتقيم حضارة يُتباهى بها..؟

ولقد قدم موسى لفرعون وللمصريين تسع آيات بينات فلم يرتدعوا وأصروا على عتوهم ونفورهم على الرغم من أن الأمر لا يضرهم فى شىء، فكل جهود موسى ودعوته كانت مركزة على بنى إسرائيل ولا تخص المصريين..

إلا أنه على الرغم من ذلك مارس فرعون وقومه على بنى إسرائيل شتى صور الإرهاب التى دفعت بهم إلى اللجوء للسرية من أجل الحفاظ على دينهم وإقامة شعائرهم ..

وهو ما جسدته لنا الآية رقم 87 من سورة يونس التى تقول: ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه ان تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة**﴾.

يقول القرآن: ﴿ **ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون. فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا إنما طائرهم**

عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين. ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ «الأعراف: 130: 136»

وهذه النصوص قد أعطتنا صورة تفصيلية للشخصية المصرية التى واجهت موسى ودعوته وعرتها لنا، وأكدت أنها شخصية زئبقية مراوغة تصيغ نفسها وفق رغبات الفرعون..

والغريب أن القرآن ركز تركيزاً كبيراً على قصة موسى وفرعون، كما أن آل فرعون قد خصوا بعذاب كبير لم تحظ به أمة من الأمم التى ذكرها القرآن ..

يقول القرآن: **﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار . وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب .. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾** «غافر: 34: 37: 46»

بل إن فرعون وقومه أصبحوا سنة دائمة وعلامة قائمة على التهلكة والطغيان والانحراف عن نهج الله ..

يقول القرآن: **﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾** «القصص: 41»

ولم يحدث فى أمة من الأمم أن ادعى الحاكم الألوهية وتحدى الله علناً إلا فى مصر..

يقول القرآن: **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين﴾** «القصص: 38»

ويقول على لسان فرعون: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ «النازعات: 24 »

حتى أن فرعون حين أغرقه الله وأهلك قومه لم يترك هكذا ليكون مجرد ذكرى للناس، بل قرر الله أن يخرج بدنه من الماء ليكون للناس آية ..

يقول القرآن: **﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾** «يونس: 9: 92»

وحين عبر موسى البحر ونجاه الله من فرعون مل بنو إسرائيل من طعام السماء وطلبوا من موسى أن يدعو الله ليأتيهم من طعام الأرض فسخر منهم موسى..

يقول القرآن: **﴿وقالوا يا موسى لن نصبر على طعامٍ واحدٍ فادعوا لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم.. ﴾** «البقرة: 61»

والإشارة إلى مصر وهذه الأنواع من الأطعمة له دلالة هامة، وهى أن الفقر يلازم هذا البلد من عمق التاريخ، بل يبدو وكأنه قد فرض عليها فرضاً، فالفول والعدس والبصل كان المقرر الدائم على المصريين ولا يزال مقرراً..

ومن الظواهر القائمة التى تشير إلى ذلك ظاهرة التزاحم على عربات الفول فى الطرقات صباحاً ومساءاً..

وهو ما دفع بالمصريين إلى ابتداع المثل القائل: **اللى ياكل فول يمشى عرض وطول واللى ياكل كباب يبقى ورا الباب..**

وفى فترة الستينيات كانت الإذاعة الإسرائيلية تبث برنامجاً باللهجة المصرية يقدمه يهودى مصرى كان يسمى نفسه (العم حمدان)، وكان يحرض المصريين على عبد الناصر مشدداً على طعام الفول، فكان يقول: أن المصريين يفطرون فولاً ويتغذون كورة ويتعشون بأم كلثوم..

وهو بهذا يريد التأكيد على أن المصريين لا يأكلون إلا وجبة واحدة فقط وهى الفول ..

أما العدس فقد كان مقرراً على الجنود والمساجين وكذلك الطبقات الدنيا حتى فترة قريبة،

حيث تم التخلى عنه لارتفاع سعره بسبب قلة زراعته وهجوم أصحاب محلات الكشرى على ما ينتج منه ..

وأذكر عندما كنت فى ليبيا فى بداية السبعينيات أنه خرجت مظاهرة من الليبيين تطالب بخروج المصريين من ليبيا، وقد رفع المتظاهرون لافتة تقول: **اخرجوا من بلادنا أيها الفوالة..**

ولقد سخر فراعنة مصر إمكانيات مصر والشعب المصرى من أجل بناء المعابد والتماثيل والأهرمات التى تخلد ذكراهم مما تسبب فى زيادة حدة الفقر وهلاك الآلاف من العمال الكادحين ..

وماهى القيمة والفائدة التى تعود على مصر من هذه الأبنية الوثنية الضخمة التى أرهقت ميزانيتها وكانت تقام من أجل فرد أو أسرة..؟

والعجيب أن هذه المقابر والمعابد الضخمة لم تكن تحوى جثمان الأموات وحدهم- والذى كان يضم بعضهم توابيت من الذهب الخالص- بل كانت تضم أيضاً العديد من النفائس التى كانت تدفن معهم..

ولا يعقل أن تكون هناك أمة متحضرة ترى شعبها يتضور جوعاً بينما تبدد ثرواته فى خدمة الفراعين بل وتحكرها لهم بعد مماتهم ..

والتمسح بالفراعنة من قبل الشعوبيين والتباهى بأمجادهم المزعومة هو دليل على الفشل فى صنع شئ ولو يسير يجعل لهم قيمة بين الشعوب، وأصبح هؤلاء ينطبق عليهم المثل القائل: **القرعه تتباهى بشعر بنت أختها ..**

الـروايـــــات

وحشدت كتب التاريخ والرواية العديد من النصوص المتعلقة بمصر منها ماهو منسوب للرسول، ومنها ما هو منسوب للمؤرخين والرواة..

ذكر الكندى فى كتابه: فضائل مصر المحروسة ما يلى: **هذا كتاب أمر بجمعه وحض على تأليفه أبو المسك كافور يذكر فيه مصر وما خصها الله به من الفضل والبركات والخيرات على سائر البلدان، فجمعت ما أمر به من كتب شيوخ المصريين وغيرهم من أهل العلم والخبرة، والبحث والذكاء والفطنة، والتفتيش والرحلة والطلب..**

وقال: **فضل الله مصر على سائر البلدان وشهد لها فى كتابه بالكرم وعظم المنزلة وذكرها**

باسمها وخصها دون غيرها، وكرر ذكرها، وأبان فضلها فى آيات من القرآن تنبئ عن مصر وأحوالها، وأحوال الأنبياء بها، والأمم الخالية والملوك الماضية، والآيات البينات، يشهد لها بذلك القرآن، وكفى به شهيداً، ومع ذلك روى عن النبى فى مصر وفى عجمها خاصة، وذكره لقرابتهم ورحمهم ، ومباركته عليهم وعلى بلدهم، وحثه على برهم، ما لم يرو عنه فى قوم من العجم وغيرهم ..

ثم استعرض تحت عنوان: ذكر ما ورد فى فضل مصر، العديد من النصوص القرآنية من قصة يوسف وموسى..

وجاء برواية عن أبى ذرعلى لسان النبى تقول: **ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحما..**

ورواية أخرى عن النبى تقول: **ستكونون أجناداً، وخير أجنادكم الجند الغربى، فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوهم أكل الخضر..**

وروى عن عمر عن النبى قوله: **إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الله فى الأرض..**

قال أبو بكر: **ولم ذلك يا رسول الله..؟**

قال: **لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة..**

ثم تحدث الكندى عن دعاء الأنبياء لمصر وأهلها، ومن صاهر القبط من الأنبياء، ومن ذكرهم الله تعالى فى كتابه من أهل مصر، ومن أظهرته مصر من الحكماء، ومن كان بمصر من الأنبياء والصحابة والفقهاء والعلماء والزهاد والخلفاء، ومن دخلها من الشعراء، وفضلها على الأمصار الأخرى وطرائفها وعجائبها وخراجها ومناظرها، وما ورد فى نيلها وفضل مقبرتها..

ويظهر لنا بداية أن الكندى لم يخط هذا الكتاب فى فضل مصر بدافع ذاتى منه وإنما بأمر وتوجيه من حاكم مصر آنذاك كافور الإخشيدى..

وكافور(ت عام 357هـ) كما ذكر الذهبى فى تاريخه هو عبد حبشى اشتراه الإخشيد من بعض كبار مصر وجعله خادماً له، وتمكن من السيطرة على حكم مصر عام 355هـ ..

ومن الواضح أن الروايات المذكورة المتعلقة بمصر ترتبط بحركة الغزو العسكرى الذى قام به العرب بعد الرسول، والذى أطلق عليه الفقهاء والمؤرخون اسم الفتوحات، وهذا الغزو ليس هناك ما يبرره شرعاً من نصوص القرآن باستثناء بعض الروايات المنسوبة للرسول والمختلف فى أمرها ..

وإذا ما سلمنا بهذه القاعدة فإنه يمكن الحكم على هذه الروايات المتعلقة بمصر أنها روايات اخترعتها السياسة لإضفاء المشروعية على غزو مصر من قبل العرب..

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن مثل هذه الروايات لا ترقى لدرجة الصحة حسب القواعد الخاصة بعلم الرواية، فقد روتها مصادر تاريخية لا مصادر حديثية ..

وإذا ما سلمنا بصحة هذه الروايات فسوف نقع فى مشكلة وهى أن العرب حين غزو مصر بقيادة عمر بن العاص، واستمر حكمهم فيها بزعامة الأمويين والعباسيين، لم يلتزموا بوصية الرسول فى أهل مصر وخالفوها، وقاموا بمعاملة أهل مصر معاملة المستعمر المستبد المستعبد لشعبها الناهب لثرواتها ..

وعلى نفس النهج سارت الحكومات الإسلامية اللاحقة من طولونيين وإخشيديين وكرد ومماليك وأتراك وأرناؤود..

وإذا كان هذا هو الحال الذى يشهد به التاريخ، فلماذا يتباهى البعض بهذه الروايات التى تفضح العرب والمسلمين الذين هيمنوا على مصر..؟

الظاهر أن حكام مصر من العرب والمسلمين كانوا يشكون فى صحة هذه الروايات..

وإذا ما كانت هذه الروايات صحيحة، فما الذى يدعو الكثير من المؤرخين إلى ذم مصر وذكر معايبها التى أشرنا لبعضها سابقاً وسوف نشير لغيرها لاحقاً..؟

وقد عرض ابن تغرى بردى فى مقدمة كتابه: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لفضائل مصر ومحاسنها، معتمداً على ما ذكره الكندى وابن زولاق والمسعودى وغيرهم من المؤرخين..

إلا أنه ختم كلامه بذكر بعض الروايات التى تناقض ما ذكر، وتشكك فى فضائل مصر ومحاسنها..

ومن هذه الروايات ما رواه عن عمر بن الخطاب أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال: إن الله عز وجل لما خلق الأشياء جعل كل شئ لشئ ..

فقال العقل: أنا لاحق بالشام ..

فقالت الفتنة: وأنا معك ..

فقال الخصب: أنا لاحق بمصر

فقال الذل: وأنا معك..

وروى عن ابن عباس قوله: المكر عشرة أجزاء: تسعة منها فى القبط، وواحد فى سائر الناس..

ونقل عن ابن الفرية وصفه لمصر بقوله: عبيد لمن غلب، أكيس الناس صغاراً وأجلهم كباراً..

ووصف المصريين بأنهم عبيد لمن غلب أو تبع لمن غلب يعد تفسيراً للروايات السابقة التى تتحدث عن جند مصر المسخرين على الدوام لنصرة الفرعون وفى خدمته، كما تؤكد الأمثال التى أشرنا إليها فيما سبق، وهو ما يشير أيضاً إلى أن هذه الروايات من صنع السياسة ..

ونقل عن أهل البيت الروايات التالية: أبناء مصر لعنوا على لسان داود فجعل الله منهم القردة والخنازير ..

وما غضب الله على بنى إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضى عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها ..

بئس البلاد مصر، أما إنها سجن من سخط الله عليه من بنى إسرائيل ..

وهذه الروايات تذم مصر على وجه العموم إلا أنها تركز على المصريين فى فترة الفراعنة تلك الفترة التى يتباهى بها الشعوبيون والتى عرضنا لحال المصريين فيها من خلال ما سبق..

واللعن يقصد به هنا سلالتهم التى عاصرها داود فيما بعد ..

والقرآن لم يذكر لنا أن أحداً من الأنبياء قد مر على مصر أو أقام فيها سوى يعقوب ويوسف وموسى، وكانت تجاربهم فى مصر سلبية، كما أشرنا، وانتهت برحيلهم منها..

وإذا كانت مصر بمثل هذه المناقب والعجائب والتميز الفذ، فلماذا يعيش شعبها هذه الحياة المهينة ويحمل هذه الصفات الرذيلة، ويحاصره الفقر والبؤس والشقاء من فجر التاريخ..؟

إن مصر بهذه الصورة تعد من البلاد المغضوب عليها لا المباركة كما يحاول تصويرها البعض ممن فتنوا بها وانتفعوا من ثرواتها ..

وما ذكره العديد من المؤرخين عن عجائب مصر ومحاسنها كان بالقياس إلى ذلك الزمان الذى كانت حركة التواصل بين البلاد ضعيفة والمعلومات عنها نادرة، أما اليوم فتلك العجائب والمحاسن لا تعد شيئاً ذا قيمة أمام عجائب ومحاسن البلاد الأخرى ..

كذلك ما ورد بشأن نيلها فهناك العديد من الأنهار فى العالم تضاهيه وتزيده جمالاً، وكونه يمشى من الجنوب إلى الشمال ليس بشيء ذا قيمة، ومع ذلك فالمصريين لم يكرموا هذا النهر ولم يوقروه بل أهانوه وسمموا مياهه بإلقاء قاذوراتهم وحيواناتهم النافقة فيه بالإضافة إلى مخلفات المصانع..

وما هى الميزة من كون مصر استوطنها بعض الصحابة أو الفقهاء أو الزهاد والشعراء والخلفاء...؟

وهل هى البلد الوحيدة الذى استوطنه مثل هؤلاء..؟

وما ذكره المؤرخون أيضاً عن ثروات مصر العظيمة إنما يدل على غناها وهذا يشكل علامة استفهام ويفرض السؤال المعتاد: أين ذهبت هذه الثروات..؟

ولماذا يحاصر الفقر والبؤس والشقاء شعبها طوال فترات التاريخ..؟



الشارع المصرى

8 بين الأمس واليوم



لا يـختلف الشارع المصرى كثيراً عن صورته القديمة اللهم إلا فى بعض المظاهر الحديثة التى لا ترتبط بالناس بقدر ما ترتبط بالواقع، فالناس لم يتغيروا كثيراً فى طباعهم وعاداتهم وتقاليدهم وحتى فى أزيائهم..

والمتأمل فى صورة الشارع المصرى زمن ياقوت الحموى أو زمن الجبرتى سوف لا يجده يختلف كثيراً عن صورته الحالية، حيث ترى صنوف الممارسات والسلوكيات التى تدل على انعدام الذوق وقلة الفهم وبلادة الحس وضياع العقل..

وقد رصد لنا العديد من المؤرخين حالة الضجيج التى كانت سائدة فى زمانهم، وهى لا تزال سائدة حتى اليوم، حيث نرى الشعب المصرى يمارس الضجيج والصخب ليل نهار وكأنه لاينام..

وترى الأصوات مرتفعة فى المنازل بحيث يمكنك ببساطة أن تعرف جميع أسرار جارك..

وترى أصوات المغنين والزمر والطبل ينبعث من البيوت والمحال التجارية بمختلف أشكاله وألوانه ..

وترى الزحام فى الطرقات والفوضى أيضاً مما يجعلك تخاف أن ينالك سوء أو يصيبك أذى، وهو ما كان يقع لى دائماً أثناء تجوالى بالشوارع، هذا بالإضافة إلى الباعة الذين يزحمون الطرقات ويضيقون على المشاة ..

وترى الحرفيين قد أقاموا منشآتهم وسط المساكن محدثين ضجيجاً ليلاً ونهاراً..

وترى المقاهى وسط البيوت مكتظة بالناس محدثة ضجيجاً عالياً بسبب شتى الألعاب التى يلعبونها، وبسبب صوت التلفاز والأغانى هذا بالإضافة إلى الدخان المنبعث منها..

وترى فى الشارع جميع أنواع المواصلات الحديثة والقديمة من أحدث السيارات الى العربات التى يجرها الحمير، خاصة عربات القمامة بحميرها المتعددة والتى يقودها فى الأغلب طفلة أو طفل رث الثياب ويطارده الذباب من أبناء الطائفة المسيحية التى تمتهن هذه المهنة من قديم..

ولا ترى ذلك محصوراً فى الأحياء الشعبية الفقيرة فقط، بل تراه فى الأحياء الراقية أيضاً..

وترى زحام المواصلات ليل نهار، والناس على المقاهى ليل نهار، حتى أنك تظن أنه لا يوجد أحد يعمل ..

وترى الأزياء القديمة المملوكية والتركية والجلاليب لا تزال موجودة يرتديها الرجال والنساء خاصة فى صعيد مصر والأرياف الشمالية ورجال الأزهر ورجال الكنيسة على السواء ..

وترى الجريمة لا تختلف كثيراً فى صورها عن الجريمة فى القرون السابقة ..

وترى المرأة على حالها من التهتك والانحلال والرقص والغناء كلما فتح لها الباب وتيسرت لها السبل..

وكانت القاهرة فى العصر المملوكى تمتاز بكثرة منازلها وضيق دروبها وطرقاتها وعدم استقامتها واكتظاظها بالناس وهو مانراه اليوم فى الأحياء الشعبية المزدحمة مثل حى امبابة وحى بولاق الدكرور ودار السلام..

ووصف طافور فى رحلته لمصر فى ذلك العصر حال شوارعها المزدحمة بالباعة الجائلين فى كل مكان مما يضيق الطريق على المارة تماماً كما هو الحال اليوم ..

وأشار طافور إلى الأعداد الكبيرة من الطبقات الشعبية المختلفة التى تهيم فى الشوارع ليل نهار وأجسادها شبه عارية بلا مأوى لهم سوى الطرقات ..

ولعل هؤلاء الذين أشار إليهم طافور هم الحرافيش الذين كثروا فى شوارع القاهرة آنذاك يمارسون الشحاذة على أبواب المساجد ولا يصلون، ويقال أن سبب كثرتهم يعود إلى الفلاحين الذين فروا من قراهم بسبب السخرة والكوارث والإتاوات وهجمات اللصوص، وقد وصفهم ابن بطوطة بقوله: أنهم طائفة كبيرة أهل صلابة وقوة ..

وما أكثر حرافيش مصر اليوم الهائمين فى الطرقات والنائمين على الأرصفة رجالاً ونساءاً وأطفالاً ..

والمتأمل فى الظواهر السائدة فى الشارع المصرى قديماً وحديثاً والتى تدل على بلادة الحس وقلة الفهم انعدام الذوق وضياع العقل كما ذكرنا يجد الإجابة السريعة على السؤال التالى: لماذا استمر الفرعون الحالى ببلادته وغباءه فى حكم مصر هذه الفترة الطويلة التى تجاوزت الربع قرن ..؟

ويروى الجبرتى عن الأمير رضوان كتخذا المتوفى عام 1754م: **أنه كان يملك العديد من القصورالفاخرة، وكا ن يتنقل فيها ويتجاهر بالمعاصى والوجوه الملاح، وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد وخرجوا عن الحد، ومنع أصحاب الشرطة من التعرض للناس فى أفاعيلهم، فكانت مصر فى تلك الأيام مراتع غزلان ومواطن حور وولدان، كأنما أهلها خلصوا من الحساب، ورفع عنهم التكليف والخطاب..**

ويروى الجبرتى فى حوادث عام 1779م أثناء الإحتفال بوفاء النيل:

وقع فى تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفاحش والتجاهر بالمعاصى والفسوق، ما لا يكيف ولا يوصف، وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم، مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم، بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله..

وسوف نستعرض هنا بعض الظواهر التى تدل على انعدام الذوق وقلة الفهم وبلادة الحس، والتى ارتبطت بالشارع المصرى من قديم، وهى تشخص لنا الحالة الاجتماعية للمصريين والتى لاتزال موجودة ولها أثرها حتى اليوم ..

أولاً: الغنـــــاء

كان الغناء ولا يزال عقيدة راسخة فى نفوس المصريين طغت على كل شئ فى حياتهم، حتى على الدين نفسه ليصبح فريضة من الفرائض التى تمارس فى جميع الأوقات، حيث ترى المصرى يجلس خاشعاً أمام ما يسمونه (الموال) أكثر من خشوعه أمام القرآن، وهو ما جسدته لنا السينما المصرية من خلال العديد من أفلامها..

والموال يحظى بشعبية كبيرة عند المصريين لكونه يعكس آلامهم وبؤسهم وشقائهم وحرمانهم المستمر فى ظل الفراعنة الذين يستعبدونهم ويمتصون دمائهم..

والمصريون غنوا لكل شئ بداية من الحب والوجد والوطن والحرمان، حتى الله والرسول والفول وأهل البيت والكرة، إلا أن الموال الذى يركز على الحب والوجد والحرمان قد أخذ النصيب الأكبر فى الغناء المصرى، لكونه يعكس حالة الفقر والضنك والحرمان التى يعيشها المصرى والتى حالت بينه وبين أن يعيش حياة كريمة آمنة ..

من هنا كثرت الآهات وجملة: يا ليل ياعين فى الأغنية المصرية، وأصبح المطرب الذى يكثر من الآهات هو المطرب الأكثر شهرة وشيوعاً ..

ومن هنا أيضاً حازت أم كلثوم على شهرتها وأدمن الشعب المصرى غنائها، كما يدمن المخدرات وحين توفيت كانت جنازتها جنازة تاريخية كجنازة الزعماء ..

وأم كلثوم ظلت تغنى للحب وتطلق آهاتها حتى تجاوزت السبعين والشعب بها سعيد مسرور مما دفع بالشيخ كشك إلى إعلان الحرب عليها..

وفى خطبة من خطبه تناولها بقوله: عجوز فى السبعين تقول:

خدنى بحناناك خدنى، أخذك الله ..

وقد اختلف فى الموقف الشرعى منها فقيل: إنها فاسقة سوف تدخل النار ..

وقيل: أنها صالحة لها عظيم الثواب لما قدمته للشعب والوطن..

والأغانى العاطفية المصرية تعد أغانى فاضحة ومبتزلة وماجنة فهى تعكس الطبيعة المصرية التى تكره الجد وتحب الهزل واللهو، وترفض القيود التى تحول بينها وبين ذلك، فمن ثم هى لا تملُ من اللهو وتتمنى لو تغرق فى بحوره لكونها تراه وسيلة لتخفيف آلامها ونسيان همومها..

ومن صور الاستخفاف السائدة فى مجال الغناء أن المطربة المتبرجة التى تغنى كاشفة صدرها ورأسها وغير ذلك، ترتدى زياً محتشماً وتستر رأسها إذا ما غنت أغنية دينية..

والأغنية الدينية فى مصر تتجاوز حدود الأدب مع الله تعالى ومع الرسول، فهى تتعامل فى مجال الدين بنفس اللون الذى تتعامل به فى مجال الحب والهوى والذى تجاوزت فيه حدود الأدب أيضاً..

ومن نماذج الأغنيات الدينية النسائية:

أغنية تقول: **حبيبى أنت ياربى بحبك وانت أعلم بى..**

وأخرى تقول: **ياحبيبى يا محمد..**

وأخرى تقول: **والله لسه بدرى والله ياشهر الصيام..**

وكانت أم كلثوم تغنى قائلة: **الله ياحبيبى على حبك وهنايا معاك الله الله..**

ولفظ الجلالة على ألسنة المصريين فى الجد والهزل يصيحون به أمام مقرئ القرآن، وأمام أم كلثوم وفى مباريات الكرة..

وجرت العادة أن يذاع الغناء الدينى فى الفترة الصباحية وبعد تلاوة القرآن، ثم يأتى بعد ذلك دور الغناء العاطفى والذى يستمر طوال اليوم دون توقف..

وهناك أغانى المناسبات مثل الأغانى الخاصة بشهر رمضان والعيد..

ولأم كلثوم أغنية شهيرة تذاع دائما عند قدوم العيد تقول:

ياليلة العيد آنستينا وجددتى الأمل فينا..

وما لا تعرفه الأجيال المعاصرة أن هذه الأغنية لم تغنها أم كلثوم للعيد، وإنما غنتها للملك فاروق فى فترة الأربعينيات بمناسبة عيد ميلاده، وتم حذف الجزء الخاص بالملك منها بعد فترة يوليو..

والغناء فى مصر قديم وقد رصدت لنا الكتابات المصرية العديد من صوره، كما رصدت لنا السينما هذه الصور فى العديد من الأفلام ..

والغناء فى الماضى ارتبط بالرقص والمرأة دون التقيد بمكان محدد وهو ما ترجمته السينما بدقة متناهية، ثم أخذ فى التطور حتى أصبحت له أماكنه الخاصة التى بدأت بالمقاهى وبيوت الأعيان والخمارات التى تطورت إلى النوادى الليلية المسماة بالكباريهات فيما بعد لينتهى بالمسارح ..

وكان الغناء فى النوادى والمسارح يعد حكراً على مشاهير المطربين، ويعد أيضاً وسيلة الثراء والارتباط بالطبقات العليا فى المجتمع ..

وأدى ظهور الإذاعة فى الثلاثينيات إلى دفع الحركة الغنائية للأمام حيث مثلت فتحاً كبيراً لكثير من المطربين والمطربات وزادت من شعبيتهم..

ومن لم يصل إلى هذه الأماكن من المطربين الآخرين يظل جهده محصوراً فى الموالد والأفراح الشعبية والمناسبات حيث التنقل بين المدن والقرى على الدوام ..

والمطرب هو الأكثر شعبية عند المصريين وشعبيته تفوق شعبية الممثل والراقصة وحتى الفرعون الحاكم نفسه ..

وارتبط الغناء فى مصر بالطبقات الدنيا التى أشرنا إليها سابقاً، ثم تم دعمه من قبل العناصر اليهودية والمسيحية والوافدة ليأخذ على أيديهم الطابع المقنن الجاذب لعناصر الطبقات الأخرى ..

ومن هذه العناصر: أسمهان وفائزة أحمد وسعاد محمد وصباح ونور الهدى ووردة وفريد الأطرش ومحمد سلمان وفهد بلان، وغيرهم ممن حازوا على القيمة والشهرة والمال بواسطة هذا البلد البائس المنكوب بفراعنته وأهله أيضاً..

وقد رصد علماء الحملة الفرنسية العديد من صور الغناء فى المقاهى والموالد، ورصد لنا الجبرتى من بعدهم هذه الصور وغيرها ..

والغريب أن الغناء قد جذب إليه العديد من رجال الأزهر الذين تركوا مجال الدين ليحترفوا الغناء والموسيقى كما ذكرنا سابقاً ..

ولم يكن الغناء الذى يؤدى فى الخمارات والنوادى الليلية نظيفاً بالطبع، إلا أن السينما المصرية التقطته وركزت عليه وهو غناء ارتبط بالراقصة وكأس الخمر..

وهناك أغنية شهيرة كانت تغنى فى الأفلام القديمة تقول افتتاحيتها: **الدنيا سيجاره وكاس..**

ولا يزال الإعلام المصرى بأجهزته المختلفة يروج للغناء من عقود سابقة، ويحشو أذهان الشعب بتاريخ المطربين وإنجازاتهم..

واليوم دعمت الحركة الغنائية فى مصر بقوة ملحوظة ولافتة، حيث فتحت الأبواب على مصارعها أمام الشباب والشابات للغناء على مستوى مصر والعالم العربى، حتى اكتظت الساحة بالمطربين والمطربات من كل حدب وصوب ممن لا يملكون حسن صوت ولا حسن صورة، وبدت أصواتهم متشابهة ولا توزن بشئ أمام أصوات الباعة فى الطرقات، وتراهم يمارسون الغناء بطريقة القرداتية فهم أشبه بالقرود التى تقفز بحركات غير منتظمة لا هدف منها، والأسوأ منهم حالاً هم الذين يشاهدونهم ويتراقصون على صيحاتهم ..

ومن سفاهة هذا الشعب البائس المطحون أنه رغم فقره وبؤسه يقوم بدعم هؤلاء القرود والإقبال على اقتناء أغانيهم الهابطة والإسهام فى رفعهم إلى عالم الأثرياء بينما هو يتضور جوعاً..

وكون أن تكون مصر مركزاً لتسويق هذه الدعارة تحت مسمى الغناء، أمر ليس مصادفة..

وفى تاريخ السينما المصرية العديد من الأفلام الخاصة بهؤلاء المطربين، وقد فاقت بنسبة كبيرة الأفلام التى تتعلق بتاريخ مصر وزعمائها، والتى تعد محدودة جداً بالقياس إلى هذه الأفلام ..

وعلى رأس هذه الأفلام: فيلم المظ وعبده الحامولى الذى أشرنا إليه سابقاً والذى يحكى قصتهما فى عالم الغناء مع منتصف القرن التاسع عشر..

وفيلم منتهى الفرح الذى حشد عددًا كبيرًا من المطربين بمناسبة عودة الجيش المصرى من اليمن..

وفيلم: معبودة الجماهير..

وفيلم: أبى فوق الشجرة..

وهناك أفلام أنتجت لمحمدعبد الوهاب وأم كلثوم وفريد الأطرش وغيرهم من المطربين الذين ذاع صيتهم فى فترة الحكم الملكى، وغيرهم من المطربين الذين برزوا فى الفترة اللاحقة كان الهدف الظاهر منها تجارياً، أما الهدف الخفى فهو إضفاء المشروعية على هؤلاء المغنين ودفع الناس إلى التعاطف معهم..

وتصور هذه الأفلام معاناة المطرب أو المطربة وأحلامهما بأن يكونا مشهورين تتهافت عليهما المسارح والإذاعات والنوادى الليلية وأحلام الفتاة القادمة من الريف فى أن تكون مطربة أو راقصة مشهورة ثم تكون النهاية السعيدة وهى تحقق أحلامهم جميعاً فى الشهرة والمجد..

وفى العصر الجمهورى تم التركيز على مطربين جدد خدموا تلك المرحلة، كان على رأسهم: عبد الحليم حافظ الذى كان يعد المطرب الخاص لتلك الفترة، حيث تم شحنه وتوجيهه بالعديد من الأغانى العاطفية والوطنية التى أسهمت بدور كبير فى تعبئة الشعب المصرى وربطه بعبد الناصر..

ومن هذه الأغانى:

ضربه كانت من معلم خلت الاستعمار يبلم..

صرخه أطلقها جمال إحنا أممنا القنال..

وأغنية أخرى مطلعها يقول:

يا جمال يا حبيب الملايين..

وأغنية أخرى قيلت بعد عودة الجيش المصرى من حرب اليمن تقول:

يا حبايب بالسلامه

رحتم ورجعتلنا بألف سلامه

رحلة نصر جميله

مشوار كله بطوله

كذلك شاركه العديد من المطربين الآخرين بأغانيهم منها أغنية تقول:

عبد الناصر يا جمال..

للغرب بتعطى أمثال

وأخرى تقول:

حبيب حياتنا كلنا

رب العباد يحميه لنا

الله معاه ينصر خطاه

جمال حبيبنا كلنا

وعبد الحليم حافظ هذا فتن به الشباب والشابات فى مصر والعالم العربى حتى أن العديد من الفتيات إنتحرن يوم وفاته..

وقد لعبت أم كلثوم دوراً كبيراً فى خدمة الخط الناصرى وتوجهاته القومية مثل عبدالحليم، وأقامت العديد من الحفلات تحت شعار المجهود الحربى ..

وكان عبد الناصر هو الذى قام بجمع أم كلثوم بعبد الوهاب وطلب منهما التعاون لتخرج أول أغنية له وهى: انت عمرى ..

وبعد هزيمة يونيو تغير لون الأغنية الوطنية فبعد أن كانت تتحدث عن الأمجاد والانتصارات أخذت تستدر عواطف الشعب وتواسيه..

ومن هذه الأغانى أغنية غنتها أم كلثوم تقول:

راجعين بقوة السلاح

راجعين نحرر اللى راح

وأخرى لفهد بلان تقول:

ويلك ياللى تعادينا ويلك يا ويل

جيد النار تلاقينا فى ظلام الليل

والغناء فى مصر عموماً تأثر من قديم بالغناء الإفريقى الحبشى والسودانى والنوبى ثم الآسيوى الفارسى والتركى ثم القبطى، كذلك تأثر الغناء الدينى بهذه الجنسيات الوافدة، والغناء المسيحى بالحبش والأرمن خاصة، وهو ما رصده علماء الحملة الفرنسية ودونوه فى موسوعتهم: وصف مصر ..

والملاحظ أن الغناء وصور اللهو الأخرى برزت بقوة فى مصر مع دخول الفرنسيين، وهو ما أشار إليه بوضوح الجبرتى فى تاريخه، ثم برزت بقوة أكثر مع دخول الإنجليز الذين وفدت فى ظلهم الأقليات المسيحية من أرمن ويونانيين وطليان، والذين ظهرت من وسطهم العديد من العناصر التى دعمت الحركة الغنائية والتمثيلية ..

وقد تحدث الجبرتى عن بعض المغنين والعازفين فى عصره، وعن أحمد باشا طوسون بن محمد على الذى كان محباً للغناء والمغنين، حتى أنه كان يأخذ المغنين بعازفيهم معه فى معسكراته..

وتحدث أيضاً عن الحفلات الغنائية التى كان يقيمها المماليك والأعيان والعلماء فى بيوتهم والتى كان لجمهور العامة نصيب فيها أيضاً ..

وكلمات الأغنية المصرية تافهة وتدل على الميوعة والسفه وقلة العقل، فمن ثم هى أسهمت فى تفريغ عقول الأجيال المصرية والعربية لعقود طويلة، وهى تركز دائماً على الحب والغرام بين الرجل والمرأة حيث أصبح الرجل يغنى للمرأة، والمرأة تغنى للرجل وليس هناك من شغل سوى هذا حتى ضرب بالغناء المثل فى الكذب والتضليل فيقال لكثير الكلام الكذاب فى اللهجة المصرية:

أنت حتغنى على ..

وهذه صور من كلمات بعض هذه الأغنيات:

أغنية تقول: **انا والعذاب وهواك عايشين لبعضينا..**

وأخرى تقول: **شب شب ـ اى نعل ـ حبيبى يا شب شب الهنا..**

وأخرى تقول: **زى الهوا ياحبيبى..**

وأخرى تقول: **إسح إدح أمبو..**

وأخرى تقول: **ما اشربش الشاى أشرب كازوزه انا..**

وأخرى تقول: **ريداك والنبى ريداك..**

وأخرى تقول: **حبيتك وبحبك وحاحبك على طول..**

وأخرى تقول: **كل دقه فى قلبى بتسلم عليك..**

وأخرى تقول: **رمش عينه اللى جرحنى رمش عينه..**

وأخرى تقول: **مكسوفه منك مش قادره اقولك إنى بحبك..**

وأخرى تقول: **عشانك انت أتكوى بالنار والقح جتتى وادخل جهنم وانشوى واصرخ واقول يا دهوتى..**

وأخرى تقول: **بلاش تبوسنى فى عينى دى البوسه فى العين تفرق..**

وأخرى تقول: **حبك نار..**

وأخرى تقول: **أوعى تكلمنى بابا جى ورايا ياخد باله منى ويزعل ويايا..**

وغير هذا كثير مما هو معروف ومشهور ويردد ليل نهار من الإذاعة المصرية والإذاعات العربية التى اقتدت بها ودون انقطاع..

والسؤال هو: ماذا يمكن أن تكون نتيجة هذه التعبئة المستمرة منذ عقود طويلة على عقول الأجيال المصرية والعربية..؟

ومن صور السفه فى الإعلام المصرى استجلاب مطربين غير مصريين لكى يغنوا لمصر ويستثمر هذا الغناء فى الدعاية لها وبالطبع يتم الدفع لهؤلاء بسخاء شديد..

وهو ما يفرض السؤال التالى: ما هو السر وراء هذ التركيز المتعمد على الغناء، ورفع المغنى وتضخيمه كل هذا التضخيم من قبل الإعلام المصرى..؟

هل السر يكمن فى فراغ الشخصية المصرية..؟

أم فى ميلها الدائم والقوى إلى اللهو..؟

إن الشارع المصرى الغارق فى الغناء فى البيوت والمواصلات والطرقات يجيب على هذا السؤال، ويؤكد لنا من جهة أخرى أن المصريين لا يشغلهم شئ، أو لا يعنيهم شئ مما يجرى حولهم، وكأنهم لا يعيشون بؤساً ولا يواجهون شراً..

وكأنهم لا يعرفون أيضاً أنه ليس بالغناء تحيا الأوطان وتنهض وتزدهر..

وهذا ما دفع الرحالة ابن بطوطة إلى أن يصف المصريين أنهم " ذو طرب وسرور ولهو " على الرغم من معاناتهم الشديدة والكوارث والنكبات التى لحقت بهم فى ذلك العصر ..

وفى أحداث عام 854هـ الذى وقعت فيه المجاعة بمصر، خرج المصريون فى الشوارع وهم يغنون ويضحكون ويهزلون، وشر البلية ما يضحك ..

وكان انغماس المصريين فى الغناء وميلهم الدائم إلى اللهو، قد صور للفرعون الحاكم أن هذا الشعب لا يعانى من شئ، مما دفعه به إلى التمادى فى غيه ..

وكلما زادت الضغوط على المصريين، كلما زادوا استسلاماً وخنوعاً واندفاعاً نحو الغناء وصور اللهو، متحايلين على معائشهم بشتى الطرق والوسائل البعيدة عن الفرعون..

ومن العجائب أن النظام المصرى عندما ضرب جماعة الإخوان للمرة الثانية عام 1965م، أعلن للجمهور المصرى أن الإخوان كانوا يهدفون لقتل أم كلثوم وشاديه..

ومثل هذا الإعلان إنما يعكس لنا مدى وعى النظام بقيمة الغناء ومكانة المغنين فى نفوس المصريين وهو يؤكد لنا من جهة أخرى عقيدة الإستخفاف بالشعب..

وهناك مثل يتعلق بطبيعة المصريين فى حال الجوع والشبع يقول: إن جاعم زنو وإن شبعوا غنو..

والغريب أن المغنين اليوم أصيبوا بالإفلاس ولم يجدوا ما يتغنون به، فقاموا بالسطوا على الأغانى القديمة والتغنى بها من جديد، ولما استهلكوها أصبحوا يغنون للخضر والفاكهة والحمير، والبعض منهم أعلن غضبته على الآخرين فانطلق يغنى قائلاً: شعللها شعللها، ولعها ولعها ..

ويعد الغناء السائد فى مصر اليوم صورة من صور الغناء التى كانت سائدة فى الماضى داخل النوادى الليلية أو الكابريهات كما يسميها المصريون، وكل ما فى الأمر أن هذه الصور الغنائية المبتذلة قد خرجت من دائرة الكابريهات إلى دائرة الواقع لتصبح على الملأ ..

إن تضخيم أمثال هؤلاء من المغنين والراقصات والممثلين إنما يؤكد لنا القاعدة التى ذكرناها سابقاً وهى أن مصر عبر تاريخها تحيى الوضيع وتميت الشريف ..

والإعلام المصرى يؤكد لنا على الدوام هذه القاعدة أنه كلما أزددت سفاهة كلما ازددت علوًا وقيمة ونفوذًا فى مصر..

والحديث عن الغناء فى مصر يقودنا إلى الحديث عن الرقص الذى ارتبط به منذ نشأته فى الموالد والمناسبات وانفصل عنه مع ظهور الإذاعة والمسارح، إلا أن النوادى الليلية والسينما قامت بالجمع بينهما لأغراض تجارية، مما أتاح الفرصة لبروز العديد من الراقصات وشهرتهن..

وكان عدد الراقصات فى مصر عام 1817م قد بلغ ثمانية آلاف راقصة، وهو عدد كبير بالنسبة لسكان مصر فى تلك الفترة، وقد استمر هذا العدد فى التزايد مع انتشار الخمارات والنوادى الليلية والمسارح..

ويتباهى بعض الشعوبيين بأن الرقص أصله فرعونى، وهذا يشكل حرجاً لهم وللفراعنة القدامى، ويضع نقطة سوداء فى تاريخ مصر..

ويظهر لنا أن لطائفة الغجر دور كبير فى امتهان الرقص فى بدايته، قبل أن يستقطب عناصر من بنات الفلاحين والجماعات الهامشية الأخرى، بالإضافة إلى نساء الجريج والأرمن والحلبيات اللاتى ركزت عليهم الأفلام المصرية القديمة..

ويذكر بوركهارت فى كتابه: العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على:

انه وجد فى كل قرية كبيرة فى مصر طائفة من الراقصات يعرفن بالغوازى ينتحلن اسم (برمك) أو (برامكة) وهذا الاسم اقل شهرة من كلمة غوازى، ويقدرهم ذكوراً وإناثاً من ستة الى ثمانية آلاف نسمه، وهناك الحلبيات الغوازى يتجولن كثيراً فى القطر مثل الغجر، ويسمون بالغجر وفى سوريا يسمون كوديات..

وذكر أحمد أمين فى كتابه: قاموس العادات والتقاليد والتعابير أنه فى لسان المصريين تطلق كلمة (برمكى وبرامكة) على الذين فقدوا الغيرة وأتوا بأعمال جنسية مشينة، وترجع هذه التسمية الى أن البرامكة كان لهم مغنون ومغنيات أيام عزهم، فلما نكبوا تسكع رجالهم ونسائهم على البيوت، فسقطوا من أعين الناس ورموا بهذه الشنائع..

وذكر ثروت عكاشة فى كتابه: مصر فى عيون الغرباء من الرحالة والفنانين والأدباء الذى يرصد فترة القرن التاسع عشر: **أن الغوازى كن يرقصن فى الشوارع أيام محمد على، فصدر الأمر بمنعهن من الرقص، فرقص بدلاً منهن الخولات المتنكرين فى زى النساء والمتزينين بزينتهن..**

وقد تحدث الجبرتى عن الخولات والذين يسمون أيضاً الغايش وهو المخنث الرقاص كما تحدث عن الخلابيص أو الخلبوص ممن يصحب العوالم أو المغنيات فى الأفراح والمناسبات..

والخولات قد رصدتهم السينما المصرية ولم ينتهى وجودهم فى المجتمع المصرى حتى اليوم..

وأذكر حكاية وقعت فى مدينة البصرة فى السبعينيات التى اشتهرت فيها راقصة مصرية كانت ترقص فى أحد النوادى الليلية لمدة طويلة ثم تبين بعد ذلك أنها رجل..

والراقصات فى مصر شكلن دولة قائمة بهن فى الفترة الملكية، وكان العديد منهن عشيقات للملك وكبار رجال الحكم، ثم أصبح العديد منهن عشيقات للضباط فى العصر الجمهورى يستخدمن لتحقيق أغراض سياسية وأمنية..

والراقصة فى مصر يرتفع سعرها كثيراً بمجرد أن تنال الشهرة وتصل إلى عالم السينما، وبالطبع هى لن تنال هذه الشهرة مجاناً وإنما بثمن معروف للجميع..

ومن صور السفه السائدة فى المجتمع المصرى من قديم ما يسمى بالنقطة، وهو مبلغ من المال يلقى على الراقصة وهى ترقص فى الأفراح، أو يوضع فى صدرها مقابل أن يذكر اسم صاحب المبلغ وعائلته على لسانها الطاهر..

وقد امتدت ظاهرة النقوط إلى النوادى الليلية ولكن بصورة أخرى ومبالغ أكبر يقوم بإلقائها على الراقصة السكارى من الأثرياء ورعاة الشاه من بدو الخليج، وأيضاً اللصوص

الذين تعودوا أن ينفقوا ما سرقوه على الراقصات، وهذا التصرف الغبى كان يؤدى دائما إلى اكتشافهم والقبض عليهم..

وقد رصدت لنا السينما المصرية العديد من المآسى والنكبات بسبب هذه الراقصات، فقد كن يقمن بإغواء أبناء الذوات والأعيان ويسلبوهم أموالهم، مما يؤدى إلى إفلاسهم وخراب بيوتهم..

ورصدت لنا السينما أيضاً ظاهرة الفتوات الذين كانوا يفرضون نفوذهم على هذه الراقصات ويبتزوهن، وهناك قصة شهيرة لأحد الفتوات قام بذبح راقصة بسبب رفضها دفع الإتاوة..

والطريف أن الشارع الذى كان يضم أكبر النوادى الليلية، وترقص فيه أشهر الراقصات كان يسمى: شارع عماد الدين، وهو لازال يحمل هذ الاسم حتى اليوم بعد أن اختفت منه هذه النوادى وحلت محلها دور السينما..

وعلى الرغم من أن الراقصات يقمن بدور قومى فى خدمة مصر بالداخل والخارج وتنشيط السياحة، حيث يقمن بالرقص أمام الضيوف والزوار مما يدخل البهجة فى نفوسهم ويحسن صورة مصر فى عيونهم، ويصور لهم أن هذا البلد عبارة عن ماخور كبير..

وعلى الرغم من كونهن نشرن الرقص الشرقى فى أوربا، وافتتحن مدارس لتعليم الأوربيات الرقص ورفعن اسم مصر عالياً هناك وهو ما دفع بالشيخ كشك إلى التعليق على هذا الحدث بقوله فى إحدى خطبه: **إن راقصات مصر يرفعن سيقان مصر عالياً فى الخارج..**

على الرغم من ذلك كله رفضت الحكومة رفضاً قاطعاً السماح لهن بإقامة نقابة خاصة بهن..

والراقصة المصرية تتفنن فى كشف أفخاذها، وهز صدرها ومؤخرتها، وتعرية أكبر قدر من جسدها أمام الناس، وهى فى نشوة بالغة، وسعادة غامرة، دون حياء أو خجل، الأمر الذى انعكس على المرأة المصرية وأسهم فى تشويه صورتها..

وبعض الراقصات الشهيرات فى مصر كن فى الأصل خادمات فى البيوت، وبعضهن كن يرقصن فى الموالد، وكل ممثلة تسنح لها الفرصة للرقص فإنها تبدع فى هذا المجال بحيث تتفوق على المحترفات، والعديد من الممثلات الشهيرات اليوم كن فى الأصل راقصات ..

والمراقب للسينما المصرية لا يستطيع أن يحصى عدد الراقصات اللاتى تمكن من الوصول إلى الشاشة البيضاء، فضلاً عن الراقصات الأخريات اللاتى لم يتمكن من الوصول إليها..

وما يجب ذكره هنا هو أن الرقص لا يقتصر على النساء وحدهن، فهناك العديد من الراقصين الرجال من الأرمن والمصريين الذين تعلموا منهم ليصبح الرقص مادة تدرس، ومن الأستاذة الذين برعوا فى هذا العلم محمود رضا وزوجته فريده فهمى التى حصلت على درجة الدكتوراه فى الرقص..

وفى مذهب المصريين لا يجوز إقامة الإفراح والليالى الملاح دون وجود المطربين والراقصات، وإذا وجدت راقصة في فرح شعبى فهو حدث كفيل بإشعال معارك بين الشباب المكبوت والمحروم، يكون نتيجتها هدم الفرح على رؤوس أصحابه ..

واليوم فى ظل عمليات غسيل المخ التى يقوم بها الإعلام المصرى بأيدى الذين يسيطرون على الصحف والتلفاز والسينما والقنوات الفضائية لم يجد الجيل المعاصر من الشباب المصرى سوى الاستسلام لهؤلاء والانسياق فى تياراتهم، بحيث لو وضع إعلان فى صحيفة يطلب مغنين وراقصات لبرز الآلاف من الذكور والإناث الذين يتهافتوا على هذا العمل ..

والجدير بالذكر هنا أن مصر قد تم غزوها مؤخراً بالعديد من الراقصات الروس والأوربيات وأدى ذلك إلى حدوث منافسة كبيرة بينهن وبين الراقصات المصريات، كان نتيجتها ارتفاع أسعار الراقصات الأجنبيات اللاتى يستعان بهن اليوم فى أغلب الأعمال المسرحية والتلفزيونية وحتى السينمائية ..

ونشاط الراقصات فى مصر عموماً لا يقتصر على الرقص فقط بل لهن نشاط آخر، وهو ما يدر عليهن المال الوفير ويدخلهن إلى عالم الأثرياء، وذلك هو القيام بدور العشيقات لأصحاب الريالات والدولارات من أصحاب العقالات، ولا بأس بأصحاب الجنيهات ما دام الدفع سوف يكون بالسيارات أوبالفيلات ..

وكانت أسعارالليلة الحمراء لبعض الراقصات الشهيرات فى عالم الرقص بالأربعينيات مثلاً من خمسة جنيهات إلى عشر حسب الزبون، أما المستضعفة منهن فكان سعرها جنيهاً أو نصف جنيه ..

وكذلك كانت أسعار جيل الخمسينيات والستينيات منهن، أما أسعار المباركات من جيل الفرعون الحالى فهى خيالية ..

ولقد دعم رعاة الشاة الذين تواتروا على مصر من دول الخليج طوال فترة السبعينيات والفترات اللاحقة حركة الرقص والغناء فى النوادى الليلية وانتعشت على أيديهم بيوت الدعارة، وقام المصريون باستجلاب العديد من مطربيهم وحشرهم فى حفلاتهم الغنائية من اجل دراهمهم وريالاتهم..

من هنا أصبح أمراً معتاداً اليوم فى مصر أن تكون الراقصة من أصحاب الملايين، وهذا لايشغل الحكومة فى شئ مادامت تدفع الضرائب المقررة، وهى فى الأغلب تتهرب منها..

ونتيجة لشيوع الرقص والغناء بين المصريين برزت العديد من الأمثلة التى ترصد من هذه الحالة منها:

دقت الطبله وبانت الهبله ..

الدنيا زى الغزيه ترقص لكل واحد شويه ..

زى العوالم يتبغددو فى بيت الزبون ..

اللى ما تعرفش ترقص تقول الأرض عوجه ..

اللى تطبله يرقص ..

اللى ما يرقص يهز اكمامه ..

اللى تسقف له ييجى يرقص ..

إيش حايشك عن الرقص قال قصر الاكمام ..

تموت الرقاصه ووسطها بيلعب ..

وشيوع الرقص والغناء التمثيل فى مصر لم يكن بسبب ميل المصريين الدائم للهو واللعب وحده، بل كان بسبب الحكومات التى كانت تدعم هذه الحالة لأسباب أمنية واقتصادية..

ويروى أنه حين أصدر الحاكم بأمر الله أمره بالعمل ليلاً بدل النهار، وذلك بسبب شدة الحر نهاراً، تحولت الأسواق إلى أماكن لممارسة صور اللهو والمجون مما دفع بالحاكم إلى إصدار أمره بمنع الخمور وصنعها ..

تقول الدكتورة أمينة الشوربجى فى كتابها (رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى):

أما صناعة الخمور فقد كانت من الصناعات المنتشرة فى مصر منذ القدم، وقد زاد انتشارها فى بعض فترات من حكم الدولة الفاطمية، ويرجع ذلك إلى كثرة محصول الكروم الذى يصنع منه النبيذ، وسيطرة الأقباط على تلك الصناعة بمصر الفاطمية، واشتهرت هذه الصناعة مع زيادة اللهو والمجون وخصوصاً فى الاحتفالات المختلفة ..

ويقول الدكتور قاسم عبده قاسم فى كتابه (عصر سلاطين المماليك): **وفى عصر سلاطين المماليك أقبل الناس بشغف على مشاهدة خيال الظل، فقد اشتهر عن بعض السلاطين حبهم لهذا النوع من وسائل التسلية، وإن كان البعض الآخر قد اعتبرها من الأعمال المنافية للأخلاق والدين، ويبدو أن السبب فى ذلك كان راجعاً إلى أن كثيراً من تمثيليات خيال الظل كانت تتضمن أقبح عادات المصريين فى عبارات بذيئة مكشوفة وحركات شهوانية فاضحة، فضلاً عن أن الجنس كان هو الموضوع المفضل لهذه التمثيليات..**

وهناك صورة أخرى من صور الدعم التى واكبت هذا اللهو والمجون تمثلت فى تلك الطائفة السفيهة التى برزت مع بروز الصحافة فى مصر، وحصرت دورها فى تزكية وتلميع رموز الرقص والتمثيل والغناء ورصد أخبارهم وأحوالهم وشغل الناس بها، وهم الذين تم تطويرهم فيما بعد ووجدوا لهم تسمية تسترهم فأطلقوا عليهم اسم " النقاد " ، ومن خلال تسميتهم الجديدة استمدوا المشروعية والحيثية مثل أصحابهم الذين حصلوا على لقب فنانين، و لهؤلاء علاقات جنسية واسعة بالممثلات والراقصات والمطربات اللاتى كن يعملن على كسب ودهم وتعاطفهم ليكتبوا عنهن ويدعموهن فى مجال الصحافة والإعلام ..

ومن صور السفه أن بعض هؤلاء من الذين تخصصوا فى سيرة من أسموهم بالفنانين اعتبرهم الإعلام المصرى مؤرخين، وكأن تاريخ مصر يخط بسيقان الراقصات ونفخات أصحاب المزمار وأصابع قارعى الطبول وحركات المهرجين ..

وكان انتشار الأقمار الصناعية وكثرة القنوات الفضائية المصرية والعربية قد دعم هؤلاء السفهاء وساعد على انتشارهم فى تلك القنوات التى كانت تبحث عن شئ تملأ به ساعات البث المستمرة طوال اليوم، فكان فتحاً لهؤلاء ليمارسوا شهوتهم فى الكلام الفارغ الذى يدر عليهم أرباحاً طائلة ..

وصدق المثل المصرى القائل: **رزق الهبل على المجانين ..**

ثانياً: الجريمة

لم تختلف الجريمة كثيراً فى مصر منذ قرون طويلة، فالجريمة التى رصدها الجبرتى فى القرن السابع عشر لا تزال كما هى ..

القتل وبصورة بشعة لازال مستمراً بين أفراد الشعب ..

والسرقات بشتى صورها وأشكالها لا تزال موجودة ..

كذلك الزنى وصور النصب والاحتيال والرشاوى والإتاوات ..

والجديد فى المجتمع المصرى اليوم هو انتشار زنى المحارم واغتصاب الأطفال الذى ربما لم يكن له وجود فى عصر الجبرتى..

وتشير الإحصائيات إلى أن عدد حالات الاغتصاب التى تقع فى مصر اليوم وصلت إلى عشرين ألف حاله سنوياً، غير الحالات التى لا يتم الإعلان عنها..

وقد سادت مصر فترات من الفوضى فى العصر المملوكى والعثمانى ساد فيها اللصوص وقطاع الطرق وتحالف معهم الأمراء والمماليك، فكثر القتل والسلب والنهب مما ولد المثل الشعبى القائل: **حاميها حراميها..**

والمثل الآخر الذى يقول: **يسيب اللى دبح ويمسك اللى سلخ ..**

وهذه الأمثال وغيرها لا تزال تردد على ألسنة المصريين إلى اليوم لأن الواقع المصرى لم يتغير فلا يزال حاميها حراميها..

والجريمة فى مصر لم تنحصر فى حدود البيوت والطرقات والأسواق، بل تجاوزت هذه الحدود وطالت الأماكن المقدسة، مثل المساجد والمقامات التى انتشرت فيها السرقات والنشل والنصب والاحتيال وحتى الزنى..

ويروى الجيرتى فى حوادث عام 1768م فى ولاية على بك الكبير: **وفيه أرسل على بيك وقبض على أولاد سعد الخادم بضريح سيدى أحمد البدوى وصادرهم، وأخذ منهم أموالاً عظيمة لا يقدر قدرها، وأخرجهم من البلدة، ومنعهم من سكناها، ومن خدمة المقام الأحمدى، وأرسل الحاج حسن عبد المعطى وقيده بالسدنة عوضاً عن المذكورين، وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة، وأبطل منها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرمية والعيارين، وضمان البغايا والخواطى وغير ذلك..**

والسرقة والنشل لا تزال تقع فى المساجد والمقامات حتى اليوم، مما يضطر إمام المسجد إلى التنبيه على المصلين فور إقامة الصلاة بأن يضعوا أحذيتهم وأغراضهم أمامهم أثناء الصلاة..

وقد رصد الشاعر الشعبى بيرم التونسى هذه الظواهر وظاهرة السرقة فى مصر بأنواعها فى ديوانه على ما سوف نبين لاحقاً..

ويروى أنه فى ولاية مصطفى باشا عام 1051هـ **وقع الغلاء والقحط وكثر المناسر وعم البلاء ورحلت الناس من أوطانهم، وصار إذا قبض على منسر لم يأمر بقتله فينزل الوالى يأخذ رشوته ويطلقه..**

ونتيجة لكثرة الجرائم وتنوعها فى المجتمع المصرى تولدت العديد من الأسماء التى أطلقت على أرباب هذه الجرائم، رصدتها العديد من المصادر التاريخية مثل خطط المقريزى وبدائع الزهوروالجبرتى..

ومن هذه الأسماء: النهابة، الهباشه، اللصوص، السراق، الأوباش، الشطار، العيارون، النقاب، العياق، المناسر، الفلاتية، النتاشون، العصبجية، البطحجية، الغجر، الكدية ..

و يذكر ابن إياس فى بدائع الزهور حوادث عام 928هـ: **أن والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة وعشرين إنساناً، وخوزق منهم جماعة وعلقهم فى أماكن متفرقة، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ..**

والزغلية هم من كانوا يزيفون النقود، ويقصد بخوزقهم أى أعدمهم بالجلوس على الخازوق، وهو تقليد تركى بشع استخدمه الأتراك فى أوربا ونقلوه إلى مصر والشام ..

ومن عليه دم يقصد به المطلوب للقصاص ..

وذكر على مبارك أن ميدان الرميله، الذى هو ميدان القلعة اليوم، كان مركزاً للمشعوذين والأونطجية وهم أصحاب الحيل والخدع التى يسرقون بواسطتها أموال الناس..

ومنهم خرج التعبير الشعبى الذى يطلق على المحتال وكثير الكلام وأصحاب الحيل حيث يقولون: أونطجى أو شغل أونطه أو سينما أونطه هاتو فلوسنا، وهى كلمه إيطاليه تعنى الحيلة ..

وذُكر فى معجم تيمور الكبير: **اصل الأونطجى هو من يستاجره اصحاب ملاعب القمار ليوهم اللاعبين انه مقامر ويعمل على مصلحة اللعب، عمل عليه اونطه اى لعب عليه وخدع..**

وما يجب ذكره هنا هو أنه قد تعلم الكثير من المصريين من أهل الاسكندرية الأونطه من الطليان الذين استوطنوا فيها..

والكدية الذين ذكروا من بين أصناف أصحاب الجرائم يقصد بها طائفة من الشحاذين والمتسولين الذين كثروا فى مصر وتحايلوا على الناس بشتى الحيل من أجل كسب عطفهم وانتزاع نقودهم بوسائل متعددة منها الشحاذة ..

والكدية مشتقة من الكد فقد كانوا يتجولون فى المدن والقرى يستجدون مصتنعين أعمال وأساليب يلفتون بها أنظار الناس، ومنهم الأدباتية والزجالين والطبالين والزمارين وغيرها من الأنشطة التى كانت تعد فى ذلك الزمان وسيلة للشحاذة ..

وقد قال أحدهم:

رعى الله مصر أننا فى ظلها

نروح ونغدو سالمين من لكد

وكان الكدية فيهم لصوصية يسرقون بلطائف الحيل حتى ضرب بهم المثل القائل: **النصاب ياخد من الحافى نعله..**

والنقاب هو من ينقب حوائط البيوت ليسرقها ..

وكانت تنتشر فى مصر طائفة الشطار وهم طائفة من اللصوص إتصفت بالدهاء والمكر والذكاء، كذلك العيار وهو اللص النشيط صاحب الخبرة، والمنسر أو المنصر هو تعبير أشتق من النسر ويطلق على العصابات التى كانت تغير على البيوت والمحلات وتنهب ما فيها، ومنها أشتق التعبير العامى: شيخ منصر الذى يطلق عادة على اللص الكبير أو المتفنن فى السرقة، كما كان هناك العياق وهم قاطعو الطريق الذين يعيقونه ويستولون على أموال المارة..

وفوق هؤلاء النشالون ويليهم النتاشون والهباشون والزعارين أى الخطافين بالإضافة إلى الحرافيش وما أكثر هؤلاء فى تاريخ مصر وواقعها المعاصر ..

والحرافيش مفردها حرفوش ويقصد بها الخسيس صاحب السلوك الدنئ وهم خليط من المتسولين والتنابلة والحشاشين والمعدمين ومن لا عمل له، ومثل هذه النماذج قد اخترقت الوسط الإسلامى فى مصر ..

ولا يزال المصرى حتى اليوم يستغل ذكاءه ومكره فى الإيقاع بالبسطاء والمغفلين والطماعين أيضاً والاحتيال عليهم وسلب أموالهم ..

والقانون المصرى يتبنى قاعدة لا تتلائم مع طبيعة الشعب المصرى الساذجة والبسيطة أتاحت الفرصة للمحتالين والنصابين للنمو والازدهار والإفلات بجرائمهم ..

تقول هذه القاعدة: **القانون لا يحمى المغفلين ..**

ومن نماذج هذه الجرائم كما نشرت فى الصحف:

- انتحل صفة طبيب واحتال على المرضى بزعم تسفيرهم للعلاج فى الخارج على نفقة الدولة ..

- يلقى بنفسه أمام السيارة ويدعى الإصابة بينما يقوم زميله بسرقة محتويات السيارة أثناء انشغال صاحبها بالمصاب ..

- نصاب يحتال على شركة ويستولى على بضائع بربع مليون جنيه ..

- محتال يمارس الدجل والشعوذة يوهم المواطنين بقدرته على حل مشاكلهم..

- شركات وهمية لإنشاء المساكن تحتال على المواطنين وتستولى على أموالهم ..

- محتالون يقيمون مشروعاً سياحياً على مبنى مهجور ويستولون على أموال المساهمين..

- يحترف تزوير الأحكام القضائية ويبيعها للمتقاضين ..

- محتال يزور أختاماً للحصول على تأشيرات العمرة ..

والنشال أشتهر أمره فى مصر حتى ضرب به المثل القائل: **يسرق الكحل من العين ..**

ورصدت العديد من المصادر حركة النشل فى مصر خاصة فى القرن السابع عشر منها: **دفع الإصر عن كلام أهل مصر** للشيخ يوسف المغربى ..

ومن الطريف أن النشالين فى مصر أعلنوا فى فترة العشرينات التوقف عن ممارسة النشل لمدة ثلاث أيام بمناسبة الإفراج عن زعيم الأمة سعد زغلول ..

ويذكر الجبرتى فى حوادث عام 1786م: ان الأمير حسن بك ركب بجنوده وهجم على دار متولى دراويش الشيخ البيومى بمنطقة الحسينية ونهبها .. وفى اليوم التالى خرج جماعة من اهل الحسينية بالطبول واتجهوا إلى الجامع الأزهر وانضم إليهم الكثير من الأوباش وبأيديهم العصى، وتعصب لهم الشيخ الدردير وحرضهم على نهب بيوت الأمراء، وعندما تدخل الأمير إبراهيم بك وكلم حسين بك أجابه بقوله: كلنا نهابون، وأنت تنهب، ومراد بك ينهب، وانا أنهب كذلك ..

وكان لكل طائفة من طوائف المجرمين شيخ يترأسهم، فكان هناك شيخ للنشالين، وشيخ منسر، وشيخ الكديه...إلخ.. وهؤلاء الشيوخ كان يستعان بهم من قبل الحكام فى ضبط النظام وتقديم الخدمات والبحث عن المسروقات ..

ذكر ابن إياس فى حوادث عام 841 هـ: ان السلطان برسباى طلب شيوخ الطوائف وألزمهم أن يمنعوا الشحاتة فى الطرقات وألا يشحت سوى العميان ذوى العاهات فقط ورسم للشحاتين أن يخرجوا للعمل فى الحفير فامتنعوا عن ذلك وهربوا نحو بلاد الصعيد..

وفى حوادث عام 907هـ: هاجم المنسر سوق الجمالين ليلاً وسوق الخشبية وسوق الوراقين ونهبوا دكاكينه ولم تنتطح فى ذلك شاتان..

وفى العام التالى هاجموا السكان ونهبوا البيوت وخطفوا العمائم وقبض على البعض منهم وتم شنقهم..

وفى رمضان عام ٩١٣هـ نقب جماعة من السراق قاعة الذهب وبعض الدكاكين وذبحوا تاجر أعجمى ونهبوه..

وفى ربيع الآخر من عام ٩١٩هـ أطلق الغورى سراح الحرامية واستتوبهم وأصحاب الجرائم الأخرى من زغليه ومن عليه مال منكسر..

وفى ذى القعده من عام ٩٢٠.هـ كثرت هجمات المنسر على الحارات وغيرها حتى ضج الناس..

هذا وغيره مما دفع بالسلطان الغورى الذى كان يتجهز لملاقاة العثمانيين إلى تشديد القبضة الأمنية والقبض على شيوخ المناسر وعلى رأسهم كبيرهم المسمى (أبو عزرائيل) الأمر الذى دفع بطومان باى من بعده إلى استتابة العديد من الحرامية والعمل على استقطاب

المجرمين ليكونوا عوناً له فى مواجهة العثمانيين الذين انتصروا على الغورى فى وقعة مرج دابق وتقدموا نحوا القاهرة..

وفى حوادث عام 981هـ فى عهد حسين باشا تم قتل نحو عشرة آلاف من أهل الفساد..

وذكر الجبرتى أنه فى عام 1767م تم إبطال النشالين والحرامية والعيارين..

والعيار منه المثل الريفى القائل: بهلول الريف عيار..

وفى حوادث عام 1798م كسر المنسر بوابة طولون ودخلوا إلى السوق وحطموا القناديل وفتحوا ثلاث حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربه التجار وقتلوا الحارس..

وفى العام التالى أثناء العيد خطف الحرافيش واللصوص ثياب النساء وعمائم الرجال وما وجدوه أمامهم من متاع..

وذكر أيضاً فى حوادث عام 1815م: أن بعض العسكر اتفقوا على غدر الباشا - أى محمد على - قاموا بتحطيم الحوانيت ونهب ما فيها وشاركهم الكثير من الشطار والجياع والحرافيش والأوباش ومن لا دين له..

وقام محمد على بتجهيز العديد من الحملات لمطاردة اللصوص والفلاتية فى الأقاليم..

والفلاتية تعبير يطلق على المتفلت المنساب فى الفسق والفجور، ومثل هذا الصنف مؤهل للإجرام بالطبع..

وقد كثرت جرائم العربان فى القرى والأقاليم ومارسوا القتل والسلب وتشريد الأهالى، مما أدى إلى تجريد الحملات لمطاردتهم والقضاء عليهم..

ويروى: أن أحد ولاة مصر فى منتصف القرن السابع عشر وهو حسين باشا استحضر إلى مصر عصابة من الدروز التقطهم من كل وادٍ وكانوا من قطاع الطرق، ففعلوا بالمصريين الأفاعيل وأذاقوهم سوء العذاب حتى توقفت الحياة بالأسواق وشلت حركة الناس..

ولعل هذا ما ولد تلك الصورة المزرية عن الدرزى فى التراث الشعبى المصرى حتى ضرب بهم المثل فى اللئم والشر، وأصبحت كلمة درزى من ألفاظ السب والشتم..

وشكلت المناسبات والاحتفالات فرصة كبيرة للسوقة واللصوص والأوباش ليمارسوا جرائمهم دون الخوف من العقاب ..

تقول الدكتورة محاسن الوقاد فى كتابها (الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية) عن احتفالات النيروز أو عيد رأس السنة القبطية الذى يكون عادة فى شهر توت: وللطبقات الشعبية مظاهرها الخاصة فى الاحتفال بهذه المناسبة، فقد كانت تتجمع لتطوف شوارع القاهرة وأسواقها وأزقتها، ويختارون أحدهم ويطلقون عليه أمير النيروز، ويغيرون فى صورته وخلقته عن طريق دهن وجهه بالجير أو الدقيق ويجعلون له لحيه، وكان يرتدى ثوباً أحمر أو أصفر، ويلبس على رأسه طرطوراً طويلاً، ثم يركب على حمار وحوله الجريد الأخضر وبيده شئ يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس، ويطوف هذا الموكب بشوارع القاهرة وأسواقها، ويطرق المنازل لأخذ الأموال بالقوة، وإذا امتنع أحد عن إعطائهم الأموال أهانوه بصب الماء والتراب عليه وربما أخرجوا صاحب المنزل وزادوا فى إلحاق الأذى به، ويحتمون بالنيروز بقولهم: (ليس فيه حرج ولا أحكام تقع).

وقد كان السواد الأعظم من العياق يقفون فى الطرقات ويتراشقون بالماء المتنجس والبيض، ويتضاربون بالأخفاف ويقطعون الطريق فكان هذا اليوم من الأيام التى يلزم فيها أهل القاهرة منازلهم وتتعطل الأسواق عن البيع والشراء، واعتاد الناس فى هذا اليوم الإسراف فى شرب الخمور والمجاهرة بارتكاب المفاسد .. آه..

ومثل هذه الحوادث التى رصدت كتب التاريخ الكثير منها تعد صورة من صور الاستخفاف من قبل المصريين ببعضهم، وهى تؤكد من جهة أخرى أن هذا الشعب يخاف ولا يختشى ..

وقد أدى كثرة التزاحم فى القاهرة وضيق حاراتها وأزقتها وضجيجها إلى فرار الناس نحو المقابر، وهو ما رصده لنا الجبرتى، فتكاثر بها المتسولين والحرافيش واللصوص الذين ألحقوا الأذى بكثير من زوار هذه المقابر..

وظاهرة السكن فى المقابر لاتزال مستمرة إلى اليوم، بل أن المقابر إكتظت بسكانها بحيث أنه أصبح من الصعوبة أن تجد مكاناً فيها، وكما هو الحال فى الماضى انتشرت بين سكان المقابر الكثير من الموبقات والظواهر الإجرامية من السرقة إلى الدعارة والقتل والمخدرات، حتى بيع جث الموتى وأجزائهم لطلبة الطب، مما جعلها تتعرض دائماً لغارات من قبل رجال الأمن..

والمقابر فى مصر تشبه البيوت الصغيرة وهى تحتوى على غرف وحمامات لاستقبال الزائرين من أقارب الموتى الذين يتم دفنهم فى الغرف السفلى منهم..

وكل عائلة لها مقبرتها الخاصة بها، ومقابر الكبراء من الباشوات والبهوات تختلف بالطبع عن مقابر عامة الشعب، فهى تحتوى على حدائق ونوافير مياه وآثاث فاخر. إلا أن المقابر التى تبنى اليوم هى عبارة عن قطعة أرض صغيرة تحوى غرفة تحت الأرض ويحيط بها سور له باب حديدى فقط، أما مقابر الأرياف فهى عبارة عن غرف صغيرة متراصة بجوار بعضها على شكل قباب أو ما شابه.

ويذكر زكى مبارك أنه قد نشأت حارات حول القاهرة جمعت الكثير من الغوغاء والسوقة، وكثر فيها الفتوات الذين كانوا يكثرون الشغب، ويعتدون على جيرانهم مما يؤدى إلى وقوع جرحى وقتلى، ومن هذه الحارات حارة كفر الطماعين وحارة كفر الزغارى..

وأدى تزايد عمليات السطو والنهب من اللصوص وقطاع الطرق المستمرة ليلاً ونهاراً إلى إقامة العديد من الأسوار حول القاهرة ..

ويروى الجبرتى فى حوادث عام 1786م العديد من الجرائم التى ارتكبها الجنود العثمانيون منها: **أن أربعة من الجند اغتصبوا غلاماً لحلاق فى خط بين السورين وقتلوا الحلاق ثم اقتادوا الغلام الى بيت لهم، ولما شاع الأمر جاء كبير الجند لإخراجه فضربوا رجاله بالرصاص وقتلوا منهم ثمانية، وفى اليوم التالى جاء الباشا بجنده الى البيت فأخرجهم ثم اصدر أمره بشنقهم، وبتفتيش البيت وجدوا فيه جثة أكثر من ستين إمرأة مذبوحة منها جثة طفل مذبوح مع أمه ..**

ويروى فى حوادث عام 1817م أنه تم شنق مجموعة من الأشخاص فى أماكن متفرقة بتهمة السرقة والزغليه..

ويروى عن أحد أمراء المماليك وهو يوسف بيك الكبير والذى كان فى صدام دائم مع المشايخ الذين يتمسكون بالخرافات والدجل والشعوذة (ت1191هـ: 1777م) أنه: **اختلى بمحظيته فرأى على سوأتها كتابة فسألها عنها وهددها بالقتل، فأخبرته ان الشيخ صادومة هو الذى كتبها لها ليحببها إليه، فكان ان قبض على الشيخ صادومة وقتله..**

وكان من نتيجة هذا التدهور الأمنى أن فرض ما يشبه حظر التجول بعد غروب الشمس، إلا أن تكون حاملاً مصباح أو شعلة تكشف شخصيته..

والطريف أن أهل الإجرام فى مصر يتباهون من قديم بدخولهم السجن رافعين شعاراً يقول: **السجن للجدعان** ..

وتعد فترة محمد على من أفضل الفترات التى حظت فيها مصر بالأمن والاستقرار، فهو كما عبر الرجبى فى كتابه: تاريخ الوزير محمد على باشا: قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم..

وكانت حركة تحديث مصر التى تبناها محمد على قد ساعدت بشكل كبير على اختفاء العديد من الظواهر الإجرامية فى الأرياف خاصة، إذ فتحت أبواب العمل والرزق لكثير من الطوائف، وإن كان المصريون لم يتحمسوا لمشروع محمد على، الأمر الذى دفع به الى استخدام القوة لإجبارهم على العمل ضمن مشروعاته..

وفى **مذكرات عريجى** التى كتبها شيخ الحوذية فى فترة العشرينيات حنفى أبو محمود أو فكرى أباظه كما يقال، تم رصد العديد من الجرائم المنتشرة فى الشارع المصرى آنذاك، من سرقة ونشل ودعارة وشذوذ جنسى ومخدرات، من خلال الحكايات التى رواها فى مذكراته..

ومن الطرائف التى رواها خلال جولاته بالشوارع، أن هناك العديد من النساء كن يواعدن الرجال، ولما كان من الصعوبة خروجهن من بيوتهن، فقد كن يقمن باستغلال فرصة خروج جنازات الشهداء الذين كانوا يقتلون برصاص الإنجليز أثناء المظاهرات، ويخرجن من بيوتهن بحجة المشاركة فى الجنازة، ويقابلن عشاقهن الذين كانت تجمعهم عربة حنفى وتقلهم إلى عش الغرام..

وفى **مذكرات نشال** رصد المعلم عبد العزيز النص كبير النشالين العديد من الحوادث والأساليب والقصص والحكايات المتعلقة بالنشل فى الشارع المصرى..

ومما يذكر هنا أن الجريمة فى مصر نظراً لتنوعها وغرابتها، قد جذبت العديد من أقلام الأدباء والصحفيين، وحتى رجال الأمن الذين كتبوا العديد من مذكراتهم حول الجريمة والمجرمين..

ومن أشهر هذه الكتابات: **مغامرات صحفى فى قاع المجتمع المصرى**..

وكفاح الجريمة فى مصر وقد كتبه مأمور أحد السجون فى الفترة الملكية..

30 عاماً فى مكافحة الجريمة لمدير أمن العاصمة فى الفترة الملكية أيضاً..

وهو ما أدى إلى جذب السينما والتلفاز نحوها ورصدها فى العديد من الأفلام والمسلسلات القديمة والحديثة..

ومن أشهر الأفلام المصرية التى رصدت الجريمة:

الوحش، ريا وسكينة، الجريمة والعقاب، لماذا أعيش، السوق السوداء، جعلونى مجرماً، الأشرار، بطل للنهاية، وحوش الميناء وغيرها..

ومع رصد الجريمة فى مصر رصدت السينما أيضاً الواقع والشخصية المصرية التى تبدو ضعيفة وسريعة الإنهيار أمام الضغوط، وتتميز بضيق الأفق الذى يحول بينها وبين الوصول إلى حل عقلانى لتخفيف هذه الضغوط، وا لاتجاه نحو استغلال الفرص المتاحة والرضى بالقليل، مما يدفع بها إلى ارتكاب الجرائم كحل سهل وسريع دون إدراك العواقب المترتبة على هذا الفعل..

والمتأمل فى الشارع المصرى اليوم يجد الجرائم المذكورة قائمة بصورتها لم تتغير، وهو ما تكشفه لنا الصحف المصرية كل يوم..

ومن كثرة الجرائم المعاصرة وتنوعها صدرت العديد من الصحف التى تخصصت فى رصدها واكتظت صفحاتها بصورها وأشكالها المختلفة..

ومن أغرب الجرائم المعاصرة سرقة أعضاء المرضى فى المستشفيات، وقد حدث أن مريضاً دخل المستشفى ليجرى عملية المصران الغليظ وبعد خروجه من المستشفى اكتشف أنهم سرقوا كليته..

وسجلت السينما هذا الحدث فى فيلم حمل اسم: **إلحقونا..**

ومما يذكر هنا أن العديد من المصريين يتقدمون إلى المستشفيات طواعية عارضين أجزاء من جسدهم للبيع..

والمستشفيات العامة فى مصر الداخل فيها مفقود، والخارج منها مولود، فمن ثم أجدر بها أن تسمى مستشفيات الموت، حيث تجد فيها أسوأ صور الإهمال والامتهان والابتزاز

والإتجار بالمرضى الذين لا يمكنهم اللجوء إلى المستشفيات الخاصة، أو الإستثمارية ذات التكاليف الباهظة والتى تحقق أرباحاً طائلة من وراء زبائنها من الفراعنة الكبار والصغار..

والقارئ المصرى يجد متعة كبيرة فى تتبع أخبار الحوادث والجرائم التى عكست صورة سلبية ومفزعة عن مصر والمصريين فى أعين الخارج..

ومما يلفت الانتباه وقوع مثل هذه الجرائم البشعة وسط شعب ذليل خانع مستسلم لفراعنته، مما يعكس لنا جانباً قبيحاً وشديد السوء فى الشخصية المصرية، التى تبيح لنفسها قتل الأم والأب والأخ والجار والصديق لأتفه الأسباب، فى الوقت الذى تجبن فيه أمام رجل السلطة ولا تملك القدرة على رد المظالم وتحطيم الأغلال التى تطوق رقبتها..

ومن أسوأ الطبقات المصرية المعاصرة طبقة الحرفيين أو ما يطلق عليهم العامة الصنايعية، فهم قوم بلا خلق ولا ذمة ولا ضمير، ومن النادر أن تجد فيهم صالحاً أميناً متقناً لعمله، وقد قدر لى أن أتعامل معهم فرأيت منهم من صنوف النصب والاحتيال والاستخفاف ما يدفعك إلى الكفر بهذا البلد وما فيه ..

وهؤلاء ينفقون دائماً معظم دخولهم على المخدرات، فهم فى مقدمة الطوائف التى تسهم فى ترويجها وانتشارها، وإذا ما ضاق بهم الحال ولم يتمكنوا من الحصول على ثمن المخدرات فإنهم يتجهون للجريمة ..

والجريمة فى مصر تمارس بغباء شديد يتيح لرجال الأمن اكتشافها بسهولة، ولولا هذا الغباء ما تمكنوا من اكتشافها وهم الذين يعتمدون على المرشدين اعتماداً كلياً، وإذا ما وقعت جريمة فإنهم يقبضون على المشتبه فيهم ويظلوا يعذبونهم حتى يعترف أحدهم بارتكابها، وهذا هو اسلوب الشرطة المصرية الدائم فى اكتشاف الجرائم ..

وسوف يجد القارئ نماذج من الجرائم المعاصرة ضمن ملاحق الكتاب ..

المـــــرأة

وإذا كانت الفصول السابقة قد كشفت لنا جوانب كثيرة من شخصية الرجل المصرى وكذلك بعض الجوانب من شخصية المرأة، فإن ما سوف نعرضه هنا سوف يتمم لنا الصورة عن المرأة المصرية فى الماضى والحاضر..

والمتأمل فى الواقع المصرى يجد أن المرأة تهادن الرجل وتستسلم له، مما يجعل فكرة المساواة بينهما من الصعوبة تحقيقها طالما كانت المرأة تتبنى ذلك التصور الذى يدين للرجل بالقيمومة وهو ما يظهر بوضوح من خلال المصادر التاريخية والأدبيات المعاصرة..

وحتى تكتمل الصورة لابد لنا من استعراض بعض الوقائع والحوادث التاريخية التى ترصد لنا الحركة النسائية فى مصر..

فى حوادث عام 910هـ أمر السلطان الغورى بإراقة الخمور وحرق أماكن الحشيش ومنع البغاء ..

وفى حوادث عام 925هـ أمر بإبطال المحرمات من الخمور والبغاء، ووقبض على امرأة تسمى أنس كانت تدير منزلها للبغاء، وكان عليها مبلغ مقرر توررده كل شهر للوالى، فأمر السلطان بإغراقها فى النيل ..

ويمكن القول أن النساء فى مصر لم يبرز لهن دور على ساحة الواقع المصرى إلا بعد دخول الحملة الفرنسية، فقد أحدث دخولها إنقلاباً فى الشخصية المصرية، وفى عالم النساء بوجه خاص..

ذكر الجبرتى أنه كثرت حوادث الاعتداء على النسوة فى الطرقات والمتنزهات وسلبهن ملابسهن وحليهن وأموالهن من قبل العسكر..

ويروى بخصوص هذه الحوادث أنه فى عام 1876م استمرت المناداة على النساء فى عدم خروجهن إلى الأسواق، وسبب ذلك وقائعهن مع العسكر منها أنهم وجدوا ببيت يوسف بيك أوغلى نحو سبعين امرأة مقتولة ومدفونة بالاسطبلات، ومن النساء من لعبت على العسكر واخذت ثيابه، وأمثال ذلك فنودى عليهن بسبب ذلك فتضرر المحترفات منهم مثل البلانات والدايات، ثم حصل الإطلاق وسومحو فى الخروج..

وقد انتشرت فى مصر مهنة الندابات، أو ما يطلق عليها فى العامية المصرية اسم المعدده، والتى كانت موجودة حتى عهد قريب..

وكانت الندابات تستدعى فى المآتم لتقوم بالنياحة على المتوفى، وهى لم تكن تقوم بدورها بصورة عشوائية، بل كنت تستفسر عن حال الفقيد وتتعرف على مآثره ومناقبه أولاً قبل أن تصيغ كلماتها وتطلق صرخاتها، تلك الكلمات التى كانت تصاغ بالفصحى..

وفى عام 1252هـ أصدر محمد على أمره بعدم تحصيل فرده من طايفة الشحاذين والحانوتية، والنساء الجارى استكراهن بالنقدية للبكاء خلف الجنازات تصنعاً بواسطة وضع ماء البصل فى العينين..

وهذه الحوادث التى رصدها الجبرتى وتتعلق بالنساء فى عصره لاتزال تقع على الساحة المصرية إلى اليوم، إلا أن السلب لا يقع من العسكر المتمثلين فى رجال الأمن اليوم فقط، وإنما من اللصوص والعاطلين أيضاً ..

ومسئولية هذه الحوادث التى وقعت فى الماضى، والتى تقع فى الحاضر إنما تقع مسئوليتها على المرأة المصرية التى تبدو مغيبة عن الواقع وما يجرى فيه، بحيث تخرج وهى بكامل زينتها مظهرة حليها، مما يمثل تحدياً للواقع واستفزازاً للفقراء والمحرومين، بالإضافة إلى ما يمثله من إغراء لأصحاب الميول الإجرامية..

وقد رصدت لنا الصحف المصرية العديد من الحوادث التى تتعلق بسلب النساء فى الطرقات، واختطاف حقائبهن وحليهن من قبل لصوص فى سيارات أو على دراجات نارية، أو لصوص يتعلقون على أبواب المواصلات ويقفزون من المواصلة بعد انتزاعهم السلسلة الذهبية من رقبة المرأة، أو بعد انتزاع حقيبة يدها..

وتمثل المواصلات التى تسودها الفوضى فى مصر مهانة كبيرة للمرأة هناك فهى تحشر نفسها وسط الرجال وتلتصق بهم ويلتصقون بها، وهى مكرهة على ذلك من أجل أن تصل إلى عملها أو من أجل أن تعود لبيتها..

وفى بريد جريدة الأهرام بتاريخ 10/9/2007 رسالة أرسلتها طالبة بكلية الطب تحت عنوان: أين الشاويش تقول: **يبدو ان ظاهرة خطف حقائب السيدات اتسع مداها، فلقد تعرضت والدتى لحادث مماثل وجرجرت وسحلت فى الشارع لخطف حقيبة يدها بما تحتويه من مال وأوراق مهمة ، والمشكلة ليست فى الحقيبة ولكنها تكمن فى إهانة سيدة كبيرة وإراقة دمها على اسفلت الشارع، وقد انتهى الأمر بعمل محضر فى قسم الشرطة، ألهذه الدرجة يستهان بنسائنا وتتم إهانتهن على أرض بلادهن، أين دوريات الشرطة ؟**

أين الشاويش الذى طالما رايته فى الأفلام القديمة ينزل الرعب فى النفوس الضعيفة، ويشيع الأمان فى نفوسنا بصيحته المدوية.. أ هـ

وخطف حقائب السيدات وحليهن فى مصر اليوم لا يقتصر على اللصوص المحترفين فقط، وإنما امتد إلى الشباب الذى يعانى من البطالة، أو سقط ضحية تجار المخدرات، ولا يجد لديه المال لشرائها، مما يدفعه لممارسة السرقة والسطو ..

والملفت للنظر هنا هو أن التحلى بالذهب والاستعراض به فى الطرقات إنما تقوم به نساء الطبقات الفقيرة لا الطبقات الثرية، فهى تظل تدخر طوال حياتها من أجل شراءالذهب، والسبب فى ذلك يعود لكون المرأة المصرية تعتقد أن الإكثار من الذهب يشكل حماية لها من تقلبات الزمان وتأمين لمستقبلها، وفى نفس الوقت يشكل مصدر قوة لها فى مواجهة الرجل..

ومعظم ذهب هؤلاء النسوة إنما هو من عرق الرجال الذين يتقدموا للزواج بهن فيطلبن ما يسمونه بالشبكة وهى غير المهر والحد الأدنى لها لا يقل عن ثلاثة آلاف جنيه. أما الحد الأعلى فلا حدود له..

من هنا انتشرت محلات الذهب فى الأحياء الشعبية الفقيرة، حيث تجد رواجاً لا تجده فى الأحياء الراقية التى تتعامل مع محلات المجوهرات الشهيرة فى مصر وخارجها ..

و الملاحظ أن مهنة الإتجار فى الذهب بمصر يتوارثها المسيحيون من قديم، وهم يشكلون النسبة الغالبة فى دائرتها..

وفى الصراعات التى كانت تجرى بين المماليك وبعضهم، أو بين المماليك والجند من الترك وغيرهم، يتم الاستيلاء على نساء المغلوب بالرضى أو بالإكراه ..

ويروى الجبرتى حادثة وقعت لواحد من الأجناد كان يسكن حى الخيامية ويدعى إسماعيل كاشف أبو الشراميط حيث قتل على يد مماليكه بسبب تقصيره فى الحقوق المالية الخاصة بهم وتخصيصها لزوجته..

ويروى أنه تم شنق امرأة على باب زويله لقيامها بسرقة ملابس وأمتعة من أحد الحمامات..

إلا أن ما يلفت الانتباه فى شخصية المرأة المصرية هو هشا شتها وضعفها فقد إنجذبت بسرعة إلى نساء الفرنسيين، واندفعت الى تقليدهن فى لباسهن وسلوكياتهن التى تصطدم بقوة بتعاليم الدين وقيم المجتمع الثابتة ..

وقد هاجم الجبرتى هذه الظاهرة بقوة فى حوادث عام1800م والتى شكلت استفزازا كبيراً للأسر المصرية المحافظة، وللرجال أيضاً الذين فتنوا بالنساء المتبرجات الحاسرات

الرؤوس الكاشفات الوجوه والصدور، الراكبات الخيول من الفرنسيات والمصريات اللاتى قلدنهن..

يروى الجبرتى أن النساء تحت تأثير الفرنسيين خرجن عن المألوف ونزلن للنزهة فى النيل وعليهن الملابس الفاخرة، والحلى والجواهر المرصعة وبصحبتهن آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون ويتجاوبون برفع الصوت فى تحريك المقاديف بسخيف موضاعاتهم وكثائف مطبوعاتهم، وخصوصاً إذا دبت الحشيشة فى رؤوسهم وتحكمت فى عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة الفرنساوية فى غنائهم ..

وقد استمرت المرأة المصرية على نهج محاكاة الإفرنج وتقليده طوال العصور اللاحقة وحتى العصر الحالى، وقامت الأدبيات والسينما المصرية بدعم هذا الاتجاه والترويج له بين المصريين حتى أصبح أمراً واقعاً ..

ومن الأمور العجيبة أن الفرنسيين رغبوا فى الزواج من العديد من نساء الأعيان والعائلات الكبيرة، ولما علموا بحاجز الدين أشهروا إسلامهم، وقبل المصريون منهم ذلك وزوجوهم بناتهم ..

والجبرتى لم يعجبه هذا الموقف على ما يبدو حيث علق عليه بقوله عمن أشهر إسلامه منهم: **ليس له عقيدة يخشى فسادها..**

لكن السؤال الذى يفرض نفسه هنا هو: وهل المصريون ليس لهم عقيدة يخشون فسادها..؟

وكما يروى الجبرتى اندفع نحو الفرنسيين الكثير من النسوة من الفواجر والجوارى والأسافل وخلعوا برقع الحياء، فى الوقت الذى اندفع فيه نوع آخر من النسوة يردن الجمع بين الدين والدنيا ـ على حد تعبيره فاشترطن أن يتم ذلك على سنة الله ورسوله ..

ووجدت المرأة المصرية فى الفرنسيين خضوعاً وموافقة، وعدم مخالفة لهن مع شدة رغبة فيهن وهو ما كن يفقدنه فى رجالهن، فقمن باستمالة النساء الأخريات وجذبهن نحو الفرنسيين خاصة القاصرات منهن ..

والمثير للسخرية فى هذا الأمر أن النسوة السود من الجوارى اكتشفوا أن الفرنسيين يرغبون فى مطلق الأنثى ولا يعنيهم اللون، فذهبن إليهم أفواجاً وفراداً وأزواجاً، بل ساعدوهم فى الوصول إلى سيداتهن وتسلقن إليهن من الطيقان وكشفوا لهم مخابئ أموالهن ..

ومن الطرائف أن نسوة رشيد تظاهرن لدى الجنرال مينو حاكم رشيد طالبات تدخله لدى أزواجهن كي يسمحوا لهن بالذهاب إلى الحمامات العامة ..

ويبدو أن ما حدث من نسوة مصر هو رد فعل لحالة الكبت والحصار المفروض عليهن بفعل العادات والتقاليد الموروثة، والتى كانت تحرم عليهن مجرد النظر من نافذة البيت، إلا أن رد الفعل هذا انفعالى وغير رشيد، وهو يعكس طبيعة الشخصية المصرية التى تميل إلى اللهو والشهوات والتسيب وتخاصم الجد وتبعد عن الاتزان ..

وسلوك المرأة المصرية تجاه المماليك والترك والفرنسيين، هو نفس سلوكها تجاه الإنجليز من بعد وتجاه الغرباء عموماً، إذ تسترخص نفسها أمامهم وهو ما ظهر بوضوح فى عصر السادات حين بروز بدو الخليج على الساحة المصرية وتهافت النساء عليهم ..

وقد كانت المرأة المصرية تتحلى بقدر من القناعة والتواضع فى عهد عبد الناصر الذى عاش الشعب المصرى فى عصره متقشفاً ومحدود التطلعات..

لكن تبنى السادات من بعده سياسة الانفتاح تسببت فى إضاعة الشخصية المصرية، وفتحِ الأبواب على مصارعها للمرأة لكى تنطلق بلا قيود ولا ضوابط، وتلهث وراء بدو الخليج الذين غزوا مصر فى فترة السبعينيات من أجل المال ومباهج الدنيا التى حرمت منها..

وبدا حال المرأة المصرية مع بدو النفط كحالها مع جنود الفرنسيين، ففى كلتا الحالتين لم يكن ارتباطها يعد زواجاً بل صفقة رابحة بالنسبة لها، بينما هى فى الحقيقة خسرت كرامتها وقيمتها كأنثى، والكرامة والأنوثة ليست فى حساباتها بالطبع ..

والشخصية المصرية بطبيعتها تنهار بسرعة أمام الضغوط المعيشية وتبرر هذا الانهيار بحيث تبدو فى صورة مختلفة تماماً، وهو ما حدث فى فترة الانفتاح التى فرضت على الشاب المتقدم للزواج أن يكون لديه تلفاز ملون وفيديو وسجاد ونجف وشقة واسعة تتسع لمثل هذه المطالب..

وقد كانوا فى فترة الستينيات يبثون إعلاناً فى التلفاز على لسان فتاة تقول لعريسها:

مش عاوزه تلاجه وبوتجاز وحاعيش معاك على لمبة جاز..

والضغوط المعيشية فى مصر بالإضافة إلى هشاشة شخصية المرأة ساعدا على شيوع تجارة النساء وبيعهن بصور متعددة، منها عقود العمل التى كانت تخرج المرأة على أساسها

للعمل فى بيروت كعاملة فى متجر أو كممرضة أيام عبد الناصر، ثم تفاجئ أنها سقطت ضحية شبكة دعارة ..

ومنها عقود الزواج المزورة لبنات قصر يتزوجون شيوخاً طاعنين فى السن يملكون المال..

ومنها الزواج بالوكالة حيث يرسل الخليجى وكيلاً عنه لينتقى له امرأة، أو بمعنى أصح ليشترى له امرأة ويأتى بها إليه لينكحها ..

وهناك مدينة تسمى الحوامدية تقع فى الجنوب من محافظة الجيزة مشهورة بتجارة النساء بالمدة، بحيث يذهب من يرغب فى زوجة من المصريين وغيرهم إلى هناك ويتصل ببعض السماسرة المعروفين، وهم على الأغلب من المحامين، فيحضر له زوجة يأخذها نظير مبلغ من المال يدفعه ثم ترد إلى أهلها بعد نهاية المدة المتفق عليها..

وقد برزت مؤخراً العديد من الشبكات السرية التى تستغل النساء الفقيرات والقاصرات فى ممارسة الدعارة تحت ستار الزواج المؤقت، فتتزوج المرأة عرفياً عدة مرات فى الشهر الواحد وهى لا تدرى أن ما تصنعه حراماً..

وانتشر مؤخراً الزواج السرى بين طلبة الجامعات، وهو عبارة عن عقد بين الطالب والطالبة يكتب على ورقة يوقع عليها الطرفان، وانتشار هذ الزواج يعود سببه إلى حلة الإحباط واليأس التى تسيطر على نفوس هؤلاء الطلاب تجاه المستقبل ..

كذلك ساعدت الضغوط المعيشية على إنتشار الدعارة خاصة فى الأماكن التى يرتادها بدو الخليج بالإضافة إلى جرائم القتل والنصب والاحتيال والنشل وخلافه ..

والدعارة فى مصر من المهن القديمة التى دعمتها العديد من الحكومات وعلى رأسها الحكومات الإسلامية وذلك بغرض زيادة الجباية..

يقول الدكتور قاسم عبده قاسم:

وكانت الدعارة من المهن التى تحظى برعاية الدولة المملوكية، لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدر دخلاً كبيراً للخزانة السلطانية، ويبدو انه كانت أماكن خاصة بالبغايا فى المدن والريف .. أ هـ

ومن الغرائب أنه هناك العديد من محترفات النشل المصريات يذهبن إلى الحج كل عام بغرض نشل الحجاج هناك حيث الرزق وفير ..

والذاكرة المصرية لم تنس القصة الشهيرة التى وقعت فى العشرينيات من القرن الماضى لأمرأتين بالأسكندرية هما: ريا وسكينة، كانا يستدرجان النساء المحملات بالحلى من الأسواق إلى وكرهن ، حيث ينتظرهن هناك رجالهن الذين يقومون بقتلهن ودفنهن فى داخل الوكر بعد الإستيلاء على حليهن ..

وقد استمر الرقيق فى مصر سائداً، والمرأة تباع كأمة حتى عصر الخديوى إسماعيل الذى أصدر قراره بإلغاءه ..

واستمرت الدعارة مشروعة حتى عام 1948م حين أجمع البرلمان على ضرورة إلغائها، مما أدى إلى تحويل العديد من بيوت الدعارة إلى نوادى ليلية، وتحول الداعرات لراقصات ومغنيات يمارسن الدعارة تحت ستار العمل المشروع، وهى الحالة التى صورها لنا فيلم: **شوارع من نار**..

ومن عقود طويلة تمتلأ الفنادق فى بيروت ودمشق وبغداد وعمان وليبيا بالعاهرات المصريات اللاتى وصلن إلى اليونان أيضاً، وهو ما أطلق عليه وقتها تجارة الرقيق الأبيض..

وقد تم إخراج أكثر من ثلاثة آلاف امرأة مصرية كانت تعمل فى مجال الدعارة ببيروت بعد اشتعال الحرب الأهلية هناك عام 1975م ..

وصور الاتجار بالمرأة المصرية تسود حقل التمثيل الذى يسيطر عليه القوادون من قديم ففى الماضى كانوا يصدرون الممثلات إلى الباشوات والبكوات والأعيان، واليوم يصدرونهن إلى أمراء وأثرياء النفط وكبار رجال الأعمال ..

والعديد من الممثلات والراقصات يذهبن إلى بيوت الأمراء فى السعودية تحت ستار العمرة، وبعضهن يستعملن من الخلف..

وهناك ممثل ومذيع معروف بالشذوذ يقدم برنامجاً يتصيد من خلاله الراغبات فى الغناء والتمثيل والرقص ويتاجر بهن، وهو يعد من أوائل الذين تاجروا بالنساء الروس فى مصر..

وكما ينتشر الشذوذ الجنسى فى سجون الرجال، ينتشر أيضاً السحاق فى سجون النساء، حتى أنه يمنع إدخال حبات الخيار أو الكوسة أو الباذنجان إليهن إلا بعد تقطيعها..

وفراعنة مصر لا يعنيهم شئ من هذا، ولا تعنيهم مصر ولا صورتها ولا حتى شعبها، إنما يعنيهم كرسيها الذى يتيح لهم نهب ثرواتها..

وقد سعت زوجة السادات إلى القيام بدور فى محيط المرأة، فجعلت من نفسها قيمة عليهن ومنحها الإعلام رتبة سيدة مصر الأولى، وسعت إلى تغيير قانون الأحوال الشخصية إلا أنه دارت عليها الدائرة كما دارت على شجر الدر من قبلها..

والآن برزت زوجة الفرعون الحالى ومُنحت العديد من الرتب الدعائية وعلى رأسها لقب السيدة الفاضلة..

وكان حظها أكبر من سابقتها إذ طال حكم بغلها فأطلقت يدها فى البلاد، وكثر من حولها المنافقات والأوغاد وتمكنت من نشر العديد من الآفات، على الرغم من كثرة ما بها من عاهات..

وعلى رأس هذه الآفات المجلس القومى للمرأة الذى انتزعت من بغلها قراراً بإقامته، ذلك المجلس الذى هو أشبه بالحزب الوطنى لا هو يمثل المرأة، ولا المرأة على صلة به، وإنما تسيطر عليه مجموعة من عجائز النسوة اللاتى لا شغل لهن..

ومثل هذا المجلس الوهمى، الذى تكلفت مقراته فى المحافظات ملايين الجنيهات، يمثل عبئاً على ميزانية الدولة كما يمثل الحزب الوطنى ويستنزف من ميزانيتها الملايين كل عام دون عائد يذكر..

والمرأة المصرية كالرجل المصرى تدور فى الساقية ومكبلة بأغلال الفرعون وتسيطر عليها الهموم وقهرها الفقر حتى فقدت أنوثتها، فمن ثم هى فى وادٍ وهذا المجلس المزعوم فى وادٍ آخر..

ولم يقتصر نشاط زوجة الفرعون على الميدان النسوى، بل تعدته إلى ميدان الثقافة فحشرت نفسها وسط المثقفين، وأصبح وزير الثقافة يأتمر بأمرها ..

وتمكنت من إصدار سلسلة من الكتب الشعبية ـ على حساب الدولة – تحت اسم مكتبة الأسرة فى ظل شعار: مهرجان القراءة للجميع، ووضع على الغلاف الخلفى منها صورتها وتحتها كلمات منسوبة إليها لم تكتبها بالطبع، وإنما كتبها لها واحد من المنافقين الذين يستظلون بظلها وينعمون بعطائها ..

وفى التشكيل الوزارى الأخير كان قد تقرر التخلص من وزير الثقافة الحالى الذى ضرب رقماً قياسياً فى تاريخ وزارات الثقافة، إلا أنه استجار بالسيدة الفاضلة التى أوصت ببقاءه..

وختاماً لهذا الفصل سوف نستعرض نماذج من الجرائم النسائية المعاصرة والتى تتسابق الصحف المصرية لنشرها، وما يمر يوم إلا وتطالعنا الصحف بصور من هذه الجرائم البشعة والغريبة..

- امرأة تقتل طفلة لتستولى على قرطها الذهبى الذى لا يساوى أكثر من ثلاثين جنيهاً..

- خادمة تقتل صيدلى بمسكنه بمساعدة صديقيها والمحصلة جهاز تسجيل ومنبه وجهاز ضغط وثلاث نظارات طبية ..

- امرأة تخنق طفلها الرضيع انتقاماً من زوجها الذى تزوج بأخرى..

- امرأة تجمع بين زوجين فى وقت واحد ..

- امرأة تتفق مع عشيقها على قتل زوجها بالساطور وإحراق جثته ..

- امرأة مسلمة تمزق جسد عشيقها المسيحى بالسكين بسبب قيامه بفضحها ..

- طالبه جامعية تقتل زوجها الشرطى ..

- امرأة تتخلص من زوجها القاسى بقتله وتقطيع جسده وتوزيع قطعه على صناديق القمامة ..

- محامية تدير شقتها لتعاطى المخدرات والاتجار فيها ..

- محاسبة تحتال على المواطنين منتحلة صفة زوجة أحد المسئولين ..

- نشالة فى الثمانين من عمرها تسرق ركاب المواصلات ..

- أم وابنتها تحترفان سرقة ركاب المواصلات ..

- امرأة تقتل جارتها الطالبة المثالية وتسرق مصوغاتها الذهبية ..

- القبض على راقصة مشهورة لادائها أفعال وحركات مخلة بالآداب ..

- امرأة تفقأ عين جارتها بسبب الأطفال ..

- القبض على شبكة دعارة فيها عدد من الممثلات ..

ومن الملاحظ أن هذه الجرائم لا ترتبط بطبقة معينة، بل أن العديد من هذه الجرائم ارتبطت بنساء متعلمات، وكثير من هذه الجرائم نالت المرأة بسببها حكماً بالإعدام ..

بيـن الداخــل والخـــارج

والشخصية المصرية لا تتغير كثيراً على مستوى الداخل والخارج فطباعها وسلوكياتها واحدة سواء كانت داخل مصر أو خارجها..

والمصريون عموماً، كما أشرنا، غير متآلفين ومتنافرين وإذا ما اجتمعوا فى مكان واحد فسرعان ما تدب فيهم الخلافات وتحتدم الصراعات..

وهو ما يحدث على مستوى الداخل فى دائرة البيت الواحد بمختلف سكانه، فترى العراك والصدام والصياح لا ينتهى بينهم ولأتفه الأسباب التى تعود فى معظمها إلى الأطفال، ليتحقق فيهم المثل القائل: **يعملوها العيال ويقعوا فيها الكبار**..

ويحدث هذا أيضاً على مستوى الأسرة الواحدة..

وهو ما تترجمه لنا من قديم ظاهرة الشتم والردح التى تعد من معالم الشارع المصرى الثابتة، والردح غالباً لايكون إلا من النساء التى تستخدم دائماً اسم عمر عندما تمارس ردحها قائلة: **الله الله ياعمر**، كما تستخدم كلمة **ادلعدى** وأصلها الدعاء للعدا أى العدو، وهو ما لا يمكن وقوعه، فمن ثم ترد على لسان النسوة من باب التعيير ..

والمصرى بطبعه طويل اللسان ينال من الآخر بسبب وبدون سبب، وطول لسانه دليل عجزه وسوء خلقه، وأحد الطامات التى توقعه على الدوام فى شر أعماله ..

وأذكر العديد من الحوادث التى عاصرتها مع المصريين فى الخارج منها ما وقع فى ليبيا، ومنها ما وقع فى الكويت والعراق..

وليبيا لقربها من مصر وتجاورها ركز عليها المصريون، وقاموا بغزوها فى بداية عصر القذافى، مما أحدث إنقلاباً فى المجتمع الليبى الذى لم يكن قد انفتح على العصر بعد، وتسوده الأمية بمختلف صورها..

وكان أن قام المصريون بممارسة شتى صور النصب والاحتيال والخداع على الليبيين، حتى وصل الأمر إلى قتلهم والاستيلاء على أموالهم والهروب لمصر..

ومن كثرة مشاكل المصريين فيها خرجت مظاهرات تطالب بخروجهم منها كما ذكرنا من قبل ..

والطريف أن بعض الجرائم التى ارتكبت تبين لرجال الأمن أن أصحابها ينتمون الى محافظة المنيا بصعيد مصر، فصدر قرار بمنع أبناء المنيا من دخول ليبيا..

والمصريون أينما حلوا حملوا تراثهم معهم، ذلك التراث الذى يتمثل فى السرقة والنصب والاحتيال والقتل بالإضافة إلى الدعارة والحشيش..

وعندما غزا المصريون العراق فعلوا فيها مثلما فعلوا فى ليبيا، إلا أن رد فعل العراقيين كان مختلفاً، فقد تم إعادة العديد منهم إلى مصر محمولين على الأكتاف، وأخذت النعوش تتواتر على مصر مما أحدث ضجة، لكن أحداً من المصريين لم يجهد نفسه فى معرفة السبب..

وكان المصريون هناك يعاشرون نساء الجنود العراقيين المشغولين بالحرب ضد إيران، وكانوا يبيعون جوازات سفرهم للعراقيين الهاربين من الجيش، والمعارضة الفارة من وجه النظام، فيضع العراقى صورته فيها ويخرج من العراق على أنه مصرى، وبالإضافة إلى هذا قاموا بتزوير العملة العراقية والاتجار فيها مع الترويج للمخدرات، مما أدى إلى القبض على العديد منهم والحكم عليه بالإعدام..

وإعدام المصريين فى العراق لم يكن يتم على أيدى السلطة الحاكمة وحدها، بل كان يتم على أيدى أفراد الشعب العراقى أيضاً، الذى ضاق بهم وبجرائمهم المتكررة فسعى فى قتلهم..

وقد وقعت لى العديد من الحكايات مع المصريين أثناء فترة إقامتى فى الكويت حيث كنت أعمل فى مجال الصحافة هناك وذلك فى أواخر السبعينيات..

ومن هذه الحكايات حكاية تتعلق بالسياسة، فعندما قام السادات بزيارة إسرائيل فرحوا به وهللو له، مما أدى إلى أن يعتدى عليهم من قبل الفلسطينيين المقيمين هناك وكذلك العناصر العربية الأخرى الرافضة..

وكان فرح المصريين بمبادرة السادات دوافعه اقتصادية لا سياسية، فالمصريين كما ذكرنا لا تشغلهم السياسة، وقد صور لهم السادات أن السلام مع إسرائيل سوف يحقق لهم الرخاء ويقضى على الفقر ..

وكانت إقامتى فى شقة مشتركة مع مجموعة من المصريين، ولما كنت من الرافضين لنظام السادات من الأصل، تعقدت العلاقة بينى وبينهم حتى وصل الأمر إلى حد المصادمة والتشابك بالأيدى، مما دفع بى لترك السكن..

وما لفت نظرى فى هذا الحدث هو تمسك هؤلاء بفرعون فاسد كالسادات، ودفاعهم عنه هذا الدفاع المستميت، وتحمل الإهانات فى سبيل هذا الموقف الذى لا يجنون من ورائه شيئاً..

وكان ردى عليهم حينئذ هو: كيف تدافعون عن هذا الفرعون الذى هو السبب فى تشريدكم فى الأرض بحثاً عن الرزق الموفور فى وطنكم..؟

ومما قلته لهم أيضاً إن الفلسطينيين ـ كان نفوذهم ووضعهم قوياً حينذاك ـ الذين يهينونكم هم أفضل حالاً منكم فى هذا البلد..

إلا أن هذا الكلام وغيره لم يحدث فيهم أى أثر، وأصروا على اتهامى بالخيانة والعمالة، وهو ما أدى بى إلى التساؤل: هل يمكن أن يمتد تأثير الفرعون الحاكم فى مصر ليصل للمصريين فى البلاد الأخرى..؟

والجواب وجدته عند المصريين فى الخارج وليس فى الكويت وحدها، فهم قد أشربوا العجل، واعتادوا على الذل، فمن ثم مهما طال بهم الزمان خارج مصر لابد وأن يعودوا إليها..

من هنا فإن المصرى فى الخارج يعيش وعينه على مصر، وما يلبث أن يهرع نحوها بما جمعه من مال، حصل عليه بالذل والشقاء ليعيش فيها ما تبقى له من العمر، ولأجل أنه يحسب للعودة والاستقرار فيها، فهو يضع فى حسابه تأمين نفسه وماله من خطر الفرعون المتربص به هناك، والذى يظن أنه لا تخفى عليه خافية، وأن أخباره تصل إليه..

وهذا ما فسر عندى سر تعصب المصريين لفرعونهم وهم فى الخارج، ويده لا تطولهم بحيث لا يسمحون لأحد بانتقاده خاصة من غيرهم..

والعجيب أن موقفهم هذا سرعان ما ينقلب بمجرد وصولهم لمصر، ودخولهم فى دائرة المعاناة التى يعيشها المصريون فى الداخل، ليتحول موقفهم المناصر إلى السب واللعن والدعاء على الفرعون، وهو ما يمثل أعلى درجات التطرف المصرى تجاه الحاكم..

ولقد شكلت السينما على مستوى الداخل، وسلوك المصريين على مستوى الخارج، فضيحة كبيرة لمصر، فالسينما عرت الشخصية المصرية، والمصريون قدموا الدليل العملى على ذلك..

والغريب أن هذا الأمر البين الواضح لم يدفع بالحكومة إلى محاولة غربلة المصريين المسافرين ، وعدم السماح للسوقة والأراذل وأصحاب السوابق الإجرامية بالسفر للخارج، لأن ذلك يضر بالاقتصاد القومى، ويحرم مصر من ملايين الدولارات التى تدر عليها عن طريق العاملين فى الخارج حسب تصورها..

وبالطبع هذا تصور ينم عن الغباء واللاوعى وانعدام الانتماء، إذ أن الصورة السيئة التى يقدمها هؤلاء السوقة عن مصر فى الخارج، كافية وحدها لضرب الاقتصاد القومى، إلا أن فراعنة مصر على وجه العموم لا تعنيهم مثل هذه الأمور، وكل الحكومات التى حكمت مصر لم يكن يعنيها أمر تربية هذا الشعب وتهذيبه ويعود سبب ذلك لأمرين:

الأول: أن هذه الحكومات كانت مركزة جهودها على كرسى الفرعون..

الثانى: أنها فاقد للتربية والرصيد الأخلاقى من الأصل وفاقد الشئ لا يعطيه..

والأمر الثانى كان هو الصفة الملازمة لكل حكام مصر على مر التاريخ..

ولأجل ذلك تميز المصريون بالفوضى والبعد عن النظام، وهو ما يشهد به الشارع المصرى، وقد نقلوا فوضاهم هذه للخارج، فالمصرى لا يتقدم أبداً سواء ركب سيارة أو ركب طائرة.. عاش فى مصر أو عاش فى أوروبا..

وترى المصريون فى حاجة دائمة لظل العصا حتى يستقيموا بها، فمن ثم تراهم منضبطين تماماً فى الأماكن التى تخضع لعيون رجال الأمن مثل مترو الأنفاق، حيث لا تجد أحداً يمسك سيجارة أو يرفع صوته أو يخالف النظام..

أما فى الأماكن الأخرى فترى صوراً من الفوضى والانحطاط والفساد، تدفع بك إلى الفرار من مصر فرار الصحيح من المجزوم..

وأذكر أننى ذهبت يوماً إلى هيئة تصاريح العمل فى الجهات الأجنبية، وهى هيئة تابعة لوزارة الداخلية ويديرها رجال الشرطة، وذلك من أجل الحصول على تصريح لمراسلة جريدة لبنانية، وإذ بى أفاجأ بطابور طويل من السائقين المتزاحمين من أجل الحصول على تصريح للعمل فى موسم الحج، ومن خلف هذا الطابور جندى من جنود الأمن قام بخلع

الحزام الجلدى من ملابسه وأخذ يضرب به السائقين كى يستقيموا فى الطابور، ولا يحدثوا فوضى دون أن يحاول أحد منهم المقاومة..

وبعض المصريين تعلو همتهم فى الخارج ويعملون بجد واجتهاد فى مهن وضيعة لايقبلون العمل فيها داخل مصر، وبعضهم تظهر قدراته ويبرز ذكائه ويرتفع مقامه وهؤلاء أصحاب القدرات الخاصة الذين فروا من مصر حفاظاً على أنفسهم من الضياع والامتهان..

ومصر طوال تاريخها تأكل أبنائها من العقلاء والشرفاء وأصحاب القدرات الخاصة وترفع السفهاء والقوادين ..

وفى الشركات والمصانع والدوائر الحكومية تجد المؤامرات والمكائد تطارد الكفاءات وأصحاب المهارات والنابهين ..

وفى الأحزاب والساحة السياسية والإسلامية ترى عمليات إجهاض العناصر القيادية الفاعلة، أو ما يمكن أن نسميه قتل الكوادر ..

وهذا كله يكشف لنا أن عجز الشخصية المصرية عن تحقيق التفوق والتميز، وشعورها بالدونية جعل منها شخصية حاقدة على المتفوقين والمتميزين، مما يدفع بها إلى السعى لإجهاضها والقضاء عليها ..

وقد ورث الشعب المصرى من شدة الضغوط التى مورست عليه الكثير من العقد التى يفرغها ما بين الحين والآخر فى جميع من حوله..

يفرغها فى بيته وأولاده وزوجته..

ويفرغها فى جيرانه..

ويفرغها فى المارة بالطريق..

وقد لا يصدقنى القارئ إذا ما قلت له أننى كنت أسب فى الطريق من بعض المارة، ليس لشئ سوى الحقد على لكونى أظهر بمظهر يدل على التميز والرقى، فضلاً عن كونى لا أحمل من الملامح المصرية شيئاً، وكانت المسبة تأتينى بسبب ضياع شعر رأسى وانتمائى إلى الصلعاء فأسمع من يقول لى: يا أصلع، أو يا إبن القرعة..

ومظهرى المتميز قد سبب لى مشاكل كثيرة مرجعها عقد المصريين خاصة رجال الشرطة الذين يفرغون عقدهم فى الناس بقوة السلطة، ولا يحبون أن يروا مواطناً رافعاً رأسه مثلى مما يدفعهم إلى التحرش بى و التهكم على ..

وأبرز عقد المصريين كراهيتهم للمعتز بنفسه الحافظ لكرامته، الجاد فى عمله البعيد عن صور اللهو، ونفورهم منه بل أنهم يعدونه هو المعقد..

وترى الأب فى بيته يعمل عامداً على إمتهان أولاده وكسر أنوفهم، وقتل روح العزة فى نفوسهم، وهو باختصار يريدهم أن يكونوا صورة منه..

ونفس الدور تقوم به الأم فى بيتها خاصة مع بناتها..

وصور العراك والسب والشتم والصياح وحتى الضحك التى تسود الشارع المصرى ما هى إلا ترجمة عملية لهذه العقد..

وإذ ما قدر أن يتعارك مصريان فإن كل فرد منهما يفرغ كل ما لديه من عقد فى الآخر، مما يؤدى إلى إطالة أمد المعركة بينهما لكثرة ما لديهما من عقد، إلا أن يأتى مخلص فيفصل بينهما، وهو ما نراه يحدث فى الشارع المصرى دائماً..

وتعد المواصلات فى مصر المركز الرئيس لتفريغ العقد، حيث ترى فيها العجب العجاب بأنواعها المختلفة من قطارات وسيارات كبيرة وصغيرة، وحتى العربات التى تجرها الخيول والحمير والتى لاتزال سائدة فى الشارع المصرى..

والسينما المصرية قدمت لنا خدمة كبيرة بتعريتها هذا الشارع وكشف ما يجرى فيه، وهى قد رصدت لنا ما يجرى داخل المواصلات بدرجة تغنينا عن الخوض فيها..

والحكومة فى مصر غائبة عن هذا الشارع منذعقود بسبب انشغالها بأمن الفرعون، ومطاردة الذين تمردوا عليه وفروا من الساقية التى ربط الشعب بها..

والمصريون فى أوربا لا يختلفون كثيراً عن المصريين فى البلاد العربية، لكن النظام والانضباط الذى يحكم الشارع الأوربى يجبرهم على الظهور بمظهر غير مظهرهم، وعلى الرغم من ذلك نرى الكثير من صور الفوضى والتفلت إذا ما سنحت لهم الفرصة بذلك..

والمصرى يلقى مهانة شديدة فى دول الخليج والخارج عموماً، وهذا ناتج من أن حكومته لا تحترمه ولا تعبأ به، وناتج أيضاً من طبيعته القابلة للذل والاستعباد..

وإذا كان المصرى مهان فى وطنه ومهضومة حقوقه فيه فهل من الممكن أن يكرم خارج وطنه..؟

والرقى فى مصر إنما يكون بالمال لا بالقيمة الذاتية والمكانة الاجتماعية، فصاحب المال الأكثرهو العزيز المكرم ولو كان ابن حرام، وصاحب الفقرهو مهان ولو كان من أبناء الرسول..

من هنا فإن الطبقات الراقية فى مصر فى الماضى والتى كانت تتكون من المماليك والترك والأرناؤود، والأعيان الذين حصلوا على رتبة الباشوية والبكوية من الفلاحين والتجار وخلافهم، والتى تتكون فى الحاضر من كبار الضباط والمسئولين ورجال الأعمال والمطربين والممثلين وغيرهم، عندما تتأمل حالها تجدها لا صلة لها بالرقى وإنما صلتها بالمال الذى هو أساس ارتفاعها، أما الخلق والقيم فهى بعيدة كل البعد عنها..

والتعليم الذى فتح عبد الناصر أبوابه أمام الجميع لم يسهم فى تهذيب أخلاق المصريين والرقى بهم وتهذيب سلوكهم، فخلق العامى هو خلق المتعلم فى مصر، بل إنك تجد بين العامة من هو صاحب أخلاق راقية لا تجدها عند المتعلم..

والطبقات المتعلمة التى نبتت فى عصر عبد الناصر واستفادت منه هى التى تسود اليوم ومنها كبار الضباط والمسئولين والمثقفين الذين خربت مصر على أيديهم..

والتعرف على الشارع المصرى عموماً لا يتحقق بصورة كاملة إلا من خلال الاحتكاك المباشر به، وليس عن طريق المصادر التاريخية أو الاجتماعية وحدها، والاحتكاك لن يتحقق إلا من خلال اختراق العديد من القطاعات الجماهيرية، وعلى رأسها المواصلات بأنواعها والسينما بدرجاتها وكذلك الأسواق فى القرى والمدن..

وتعد القطارات فى مصر من أسوأ القطارات فى العالم وقد كانت فى العصر الملكى تضبط عليها الساعة أما اليوم فهى تتخبط فى مواعيدها ..

وكانت القطارات فى الماضى نظيفة تتوفر بها سبل الراحة من مقاعد مريحة ونوافذ ودورات مياه، أما اليوم فتركز هيئة السكك الحديدية إهتمامها على القطارات التى يسمونها الفاخرة وما هى بفاخرة المخصصة للسائحين ورجال الأعمال، بينما القطارات الأخرى التى يستخدمها الشعب مقاعدها ونوافذها محطمة، ودورات المياه معطلة وغير صالحة والمياه مقطوعة، والعربات مظلمة وقذرة، وفوق هذا يرفعون أسعارها ما بين الحين والآخر، وهذا يضاف إلى صور الإستخفاف بهذا الشعب التى لا يمكن حصرها..

ويكفى أن تركب قطاراً من قطارات المستضعفين التى يسمونها المطورة والمميزة لترى العجب العجاب، حيث ترى النائمين على الأرفف الخاصة بالحقائب فوق رؤس الجالسين، وترى البعض يلعب الورق، وترى مطاردات المحصلين للهاربين من دفع الأجرة بين العربات،

وترى المتعلقين بالعربات من الخلف والواقفين بين العربات من الخارج توفيراً لأجرة السفر، وترى نساء الفلاحين يجلسن على أرضية القطار ومعهم الجبن والبيض والفطائر والخضراوات وخلافه لبيعها فى المدن الأخرى، وترى الباعة والشحاذين وأيضاً المغنين..

وكان فيما مضى رجل ضرير يتنقل بين القطارات المتجهة إلى الوجه البحرى متغنياً بمناقب البلاد التى يمر عليها القطار..

فإذا ما مرت مدينة قليوب مثلاً قال: **يا مقلب القلوب..**

وإذا مرت مدينة طوخ قال: **يا اهل طوخ أنتم لطوخ..**

وإذا مر بمدينة بنها قال: بنها يا سباخة الحمير، ويقصد بسباخة الحمير سرقتها ودهنها بلون آخر غير لونها ثم بيعها فى السوق..

وإذا مر بمدينة طنطا قال: **طنطا يابتوع الأونطه..**

وإذا مر بمدينة دمنهور قال: **دمنهور يابياعين الميه..**

ولاتزال تعمل فى مصر اليوم سينما الدرجة الثانية والتى تستقطب الكثير من أبناء الطبقات الفقيرة والكثير من الشواذ، ويمكنك أن ترى فى داخلها العديد من الظواهر الغريبة التى تعكس حالة الضنك والحرمان من الأنثى، مثل كتابة التعليقات والرسوم الجنسية على حوائط وأبواب دورات المياه وهى ظاهرة تمتدإلى دورات المياه فى الشوارع أيضاً ..

وتحرص دور العرض هذه على إنتقاء الأفلام الرخيصة والتى تحوى العديد من المشاهد الجنسية المثيرة..

والشواذ لهم مقاهي معروفة يتجمعون عليها فى قلب القاهرة، وكان قد تم القبض على مجموعة منهم مؤخراً وقدموا للمحاكمة ..

وفى داخل المواصلة قطاراً كانت أو سيارة تجد المصريون يغنون ويضحكون ويلعبون على الرغم من سوء حال المواصلة ومايعانونه داخلها من زحام ومهانات وضجيج..

والشخصية المصرية تخلط ما بين الجد والهزل بطبعها وهو ما نراه واضحاً فى الإعلانات التى تستخدم الآيات القرآنية، والتعبيرات الجادة التى تقود فى النهاية الى الإعلان عن سلعة ترفيهية..

وترى المذيع المصرى يتلو الإعلان بقوة وحماسة بالغة بينما الموضوع فى الحقيقة يتعلق براقصة أو واحدة من قرود العصر الذين جعلوهم مطربين..

وترى رجل الدين لا مانع عنده من التعامل مع صحيفة أو مجلة تافهة لا شغل لها إلا تصيد الأخبار والموضوعات الخاصة بالساقطين والساقطات، وتراه يتهافت على القنوات الفضائية التى لا شغل لها إلا السفه والمجون..

وترى قنوات التلفاز المصرية تركز على اللهو واللعب ليل نهار، ثم تحشر الدين فى وسط برامجها التافهة السفيهة..

ونرى أيضاً الأفلام المصرية التى تتناول قضية جادة ثم تقوم بحلها غن طريق الرقص والغناء..

وتجد برنامجاً فى الإذاعة يتكلم عن قضية ما وترتفع الأصوات وتكثر المقاطعات فتنتبه لتسمع وتلم بما يجرى لتجد فى النهاية أنه لاتوجد قضية، وأن هذا الصياح والصراخ بسبب لاعب كرة أو مطربة هى محور هذا البرنامج..

ومثل هذا السلوك المتناقض قد ولد حالة من الإحباط والكآبة لدى العقلاء من المصريين، الذين يرون الإعلام يصنع من المطربين والممثلين والراقصات ولاعبى الكرة أبطالاً، ويشغل الأمة بأمجادهم وإنجازاتهم الوهمية ليل نهار..

ولا يزال الشارع المصرى يكتظ بالشحاذين الذين يطاردون الناس بإلحاح شديد، خاصة فى الأماكن السياحية كحى الحسين وعند المقامات، مستخدمين العديد من الحيل والأساليب التى تدل على أن الشارع المصرى لم يتغير..

وقد تعترض سبيلك فى الطريق شخصية حسنة المظهر والهندام لا تتوقع منها شراً ثم تفاجأ بأنها شخصية محتال يتصيد المغفلين والبسطاء ويبتز نقودهم..

وقد تعترض سبيلك إمرأة أو رجل يمسك فى يده شهادة طبية وهو يبكى ليستدر عطف الناس مستخدماً عبارات مؤثرة كى تمنحه بعض النقود يستعين بها لمواجهة مرضه المزعوم..

أو تفاجأ أثناء سيرك بالطريق بإمرأة كاشفة فخذيها المحروقين أمام الناس كى تستدر عطفهم، أو صاحب عاهة يستعرض عاهته..

وقد تكون داخل المواصلة قطاراً كان أو سيارة فترى أنواعاً من الشحاذين رجالاً ونساءاً وأطفالاً الكل يشحذ، والكل يؤكد مدى التفاوت الطبقى الذى عاشته مصرمن قبل ولا زالت تعيشه فى ظل الفرعون الحالى الذى حول الشعب إلى شحاتين..

يروى الجبرتى فى حوادث عام 1792م: استهل المحرم ١٢٠٧هـ. بيوم الخميس والأمر فى شدة الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة، حتى ملئوا الأسواق والأزقة رجالاً ونساءاً وأطفالاً يبكون ويصيحون ليلاً ونهاراً من الجوع، ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع..

ومثل هذه الحالة التى ذكرها الجبرتى هى التى ولدت مهنة الشحاذة وأكثرت من الشحاذين، وقد ازدادت حدتها بعد ذلك حين هرب الكثير من العمال من السخرة، فيما سمى بعام الطفشة ليتحولوا إلى شحاذين..

ونفس هذه الحالة تعيشها مصر اليوم التى أدت إلى إنتشار البطالة وتفكك العديد من الأسر، وهروب الكثير من الأطفال من بيوتهم وتشردهم فى الشوارع، وغير ذلك مما يدفع الناس إلى الشحاذة..

وفى مواجهة ظاهرة الشحاذة فى مصر أطلق المصريون العديد من الأمثال منها:

الشحاته طبع..

شخشخ يتلمو عليك..

الشحات له نص الدنيا..

أبوه فلان وأمه فلانه وداير يشحت وطيزه عريانه ..

علمناه الشحاته سبقنا على الأبواب ..

والشحاتة فى مصر اليوم لا تقتصر على المتسولين المحترفين، بل امتدت لتشمل العديد من العاملين فى الدوائر الحكومية، ورجال الأمن ورجال المرور والعاملين فى المطارات وحتى خدم المساجد..

أما أصحاب الدوائر الحكومية فيطلبون من الجمهور على الدوام ما يسمونه بالحلاوة أو الشاى نظير قضاء مصالحه وتيسير طلباته ..

ورجال الأمن يفرضون الإتاوات على الباعة فى الطرقات وعلى المحلات التجارية نظير غض الطرف عن المخالفات ..

ورجال المرور يتصارعون فيما بينهم على الشوارع الكبيرة والهامة، مثل شوارع وسط البلد التى تدر دخلاً كبيراً عليهم من خلال ما يدفعه أصحاب السيارات فى مقابل الحصول على موقف لسياراتهم وعدم تحرير مخالفات لهم ..

والعاملين فى المطارات وعلى رأسهم عمال النظافة يتتبعون المسافر قائلين له: تسافر بالسلامه يابيه..

ويستقبلون القادم بقولهم:

حمد الله على السلامه ياباشا ..

وذلك بالطبع ليس لوجه الله إنما لوجه الجنيه ..

وخدم المساجد يطاردون الزائرين للمراقد خاصة فى مسجد السيدة زينب والحسين والسيدة نفيسة طالبين النفحه أو البركة وهى من الممكن أن تكون نقوداً أو طعاماً ..

وذكر الطهطاوى فى كتابه: مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية: **انه لما تغلبت الفرنساوية على الديار المصرية لمحوا أن بها كثيراً من الكسالى، القادرين على الإشتغال الذين يؤثرون السؤال عن الأعمال، ويلحون فى الطلب فنشر حاكمهم أمراً ينص على القبض على جميع الشحاذين وحبسهم فى سجن القلعة، ما لم يكونوا من العميان والعرجان والعاجزين عن العمل، وألزم أصحاب كل ملة من مسلمين ونصارى ويهود وأروام وقبط وشوام، بأن يعملوا حانوتاً لقبول كافة العميان والعرجان والشحاذين العاجزين عن الشغل ..**

وانتشار مهنة الشحاذة فى مصر من قديم يعكس لنا سلبية هذا الشعب وكسله ورفضه للجد والاجتهاد وتحصيل الأرزاق بالكد والتعب، حتى يضطر المماليك والترك ثم محمد على من بعدهم أن يدخله فى نظام السخرة ويجبره على العمل والإنتاج والبناء والتعمير..

ومهنة الشحاذة تعكس أيضاً قلة الحيلة وكذلك الخبث والدهاء من أناس يلجئون إلى هذه المهنة كوسيلة ابتزاز والجمع السهل للمال..

ومن أراد التعرف على أحوال الشحاتين فى مصر، وأساليبهم وطبائعهم وتنظيماتهم فعليه مشاهدة الفيلم السينمائى: إضراب الشحاتين ..

ويتزرع الكثير من الشحاذين بكثرة الأولاد وقلة الزاد، وهى حالة تدل على ضعف العقول وسيطرة الشهوات فى ظل وضع يتطلب الحكمة والانتباه لسوء الحال، إذ لا يعقل أن يعيش مثل هؤلاء فى هذا الفقر ويكثرون من الإنجاب، ثم إذا ما كثر الأولاد ابتلوا بهم ولعنوا الزمان بسببهم..

وفى فترة الستينيات رفعت الدولة شعارا لمواجهة زيادة النسل يقول:

جهد البلاء كثرة العيال مع قلة الشئ..

وفى فترة السبعينيات رفع شعار يقول:

انظر حولك..

ورغم حالة الفقر وضيق الحال لازال المصريون يتحدون الواقع بكثرة الإنجاب دون حساب، يستوى فى ذلك المثقف والعامى خاصة من العناصر ذات النزعة الدينية الذين يرون حرمة تحديد النسل، وكذلك العناصر المسيحية الذين يتلقون توجيهات من الكنيسة بزيادة النسل حتى يتمكنوا من مواجهة المسلمين الذين يفوقونهم عدداً..

والجدير بالذكر هنا أن معدل الزيادة السكانية فى مصر هى 22٪ كل عشر سنوات..

والمصريون طوال تاريخهم يواجهون البؤس والمظالم والفقر بالسخرية والتهكم وأحياناً الدعاء، وفى مواجهة زيادة الضرائب أو الفردة كما كانوا يسمونها فى الماضى وضعوا أغنية يقول :

مطلعها: **ياللى عندك لبده بعها وادفع الفرده..**

ولازمت السخرية المصريين حتى العصر الحاضر الذى أطلقوا فيه على ماء الطرشى كلمة: ويسكى، وأطلقوا على الطعمية أو الفلافل اسم: كباب وطنى، وذلك لكونهم لا يقدرون على شراء الويسكى أو الكباب الحقيقى..



صـــــرخـــــات

9 الآذان فى مـالـطـة..



على مستوى الداخل والخارج والماضى والحاضر كانت هناك العديد من الصرخات التى أطلقها أصحاب العقول فى وجه فراعنة مصر، وفى وجه المصريين أيضاً..

وعلى مر التاريخ وفد على مصر العديد من الشعراء والكتاب الذين صدموا بواقعها ونكبوا فى شعبها فأطلقوا فيها ألسنتهم..

قال المقريزى:ومن أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر فى العواقب، فلا تجدهم يدخرون عندهم زاداً كما هى عادة غيرهم من سكان البلدان، بل يتناولون اغذية كل يوم من الأسواق بكرة وعشياً، ومن أخلاقهم الانهماك فى الشهوات والإمعان من الملاذ وكثرة الاستهتار وعدم المبالاة، قال لى شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله: أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب..

ونقل المقريزى فى مقدمة خططه أبياتاً لأبى نؤاس عن خبث ومكر المصريين تقول:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتى ... الا فخذوا من ناصح بنصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية ... اكول لحيات البلاد شروب
فإن يك باق إفك فرعون فيكم ... فإن عصا موسى بكف خصيب

وقال أبو حيات التوحيدى عن شعب مصر فى كتابه مثالب الوزيرين:

وفى أهل مصر سلامة صدر شبيه بغباوة طبع ..

ووصف أبو حيان هذا يترجمه لنا سلوك المصريين وممارساتهم التى تدل على البلاهة والإفراط فى الثقة بالفراعين والتماس الأعذار لهم، وتبرير منكراتهم ومساوئهم، مما يشكل دعماً لهم، وتقوية لنفوذهم، ويفتح لهم الأبواب على مصارعها ليفسدوا فى الأرض، ويتمادوا فى غيهم، ويزيدوا من سرقاتهم، ويكثروا من سياطهم التى يلهبون بها ظهورهم..

وهو ما يفسره البعض بحسن النية وسلامة الصدر، بينما هو فى الحقيقة لا يخرج عن كونه عبط وضعف وقلة حيله..

أما غباوة الطبع فنراها بوضوح فى الشارع المصرى ويستطيع أن يلمسها كل محتك بالباعة فى الطرقات، أو الموظفين فى الدوائر الحكومية، أو رجال الأمن، أو حتى أدعياء الثقافة من الكتاب والقصاصين والشعراء والصحفيين وغيرهم..

ونقل ياقوت الحموى فى معجم البلدان قول الجاحظ: من عيوب مصر أن المطر مكروه بها ..

قال تعالى: ﴿وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته﴾..

يعنى المطر وهم لرحمة الله كارهون، وهو لهم غير موافق ولا تزكو عليه زروعهم، وفى ذلك يقول بعض الشعراء:

يقولون مصر اخصب الأرض كلها

فقلت لهم: بغداد أخصب من مصر

وما خصب أرض تجدب الأرض عندهم

بما فيه خصب العالمين من القطر

إذا بشروا بالغيث ريعت قلوبهم

كما ريع فى الظلماء سرب القطا الكدر

ولايزال موقف المصريون من المطر كما هو، ولايزال يشكل ازمة كبيرة يتعطل بسببها المرور وتغلق الطرقات..

ومثل هذا الامر لايدفع بهم الى محاولة شق بالوعات بالطرقات لامتصاص المياه المتجمعة من الامطار، بل إنهم لم يحافظوا من الأصل على البالوعات التى كانت موجودة من ايام الانجليز..

ومن الشعراء المتنبئ الذى قال فى مصر زمن كافور الإخشيدى:

حصلت بأرض مصر على عبيد كأن الحر بينهم يتيم

كأن الأسود اللابى فيهم غراب حوله رخم وبوم

وقال:

إنى نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهم إلا وفى يده من نتها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وقال:

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

ولقد شخصت لنا أبيات المتنبئ الحالة المصرية فى القرن الرابع الهجرى وهى نفس حاله مصر الراهنة وكأن التاريخ يعيد نفسه، ونحن نرى صور الفساد والنهب والسفاهة والعبودية والكذب والتضليل كامنة فى الواقع المصرى يترجمها الفراعنة الكبار والصغار، ويترجمها لنا الإعلام المصرى، كما يترجمها لنا أفراد الشعب الذى اعتاد الذل ورضى بالعبودية..

وصدق المتنبئ فى وصفه لمصر، وهو من عبقريته، حين شخص أن مصر بلد بلا نواطير، أى حراس، يرتع فيها الثعالب والذئاب أيضاً دون حسيب أو رقيب..

وهو ما يترجم لنا عمليات السلب والنهب لثروات مصر من قبل المستعمرين لها من شتى أجناس الأرض، ومن قبل أبنائها أيضاً من الفراعين بشتى أشكالهم وصورهم دون أن يحاسبهم أو يتصدى لهم أحد، وهو ما يؤكده لنا تاريخها، وما يؤكده لنا الواقع المعاصر أيضاً..

ومثل هذا الأمر يعد من المضحكات التى دفعت بالمتنبئ إلى السخرية من مصر والمصريين..

ونقل الحموى قصيدة لشاعر آخر لم يذكر اسمه تقول:

مصر دار الفاسقينا تستفز السامعينا
فإذا شاهدت شاهدت جنوناً ومجونا

وصــفــاعــاً وضـــراطــاً وبــغــاءً وقـــرونـــا

وشـيـوخـاً ونـسـاء قـد جـعـلـن الـفـسـق ديـنـا

فهى مـوت الـنـاسـكـيـنـا وحـيـاة الـنـائـكـيـنـا

ولاتـزال مصـر دارا للفـاسقين الدين يتقـاطرون عليها من كل صـوب ويظهر هذا بجلاء فى ميـدان ما أسمـوه بالفـن دلك الصـنم الـدى اعتـكفوا من حـوله وأقامـوا له معبدًا كبيرًا انجزب نـحوه كل الـفاسـقين والمـاجنـين من كل حدب وصـوب ليمارسـوا باسمـه شتى صـور الفسـق والمجون..

ونقل قصيدة أخرى تقول:

هل غـاية مـن بعـد مصـر أجيئها	لـلـرزق من قـذف المحل سـحـيق
لم يـأل من حـطت بمـصـر ركابه	تـــرزق من ســبب لــديه وثــيق
نـادته مـن أقصى الـبلاد بـذكرهـا	وتـغـشه مـن بـعـدُ بـالـتـعـويق
كم قـد جشمت عـلى المكاره دونها	من كل مـشتبه الـفجـاج عـمـيق
وقطعت من عافى الصوى متخرقاً	مـا بـين هـيت الى مـخـارم فـيق
فعـريش مـصـر هـنـاك فـالـفـرمـا	الى تـنـيـسـهـا ودمـيـرة ودبـيق
بـراً وبـحـراً قـد سـلـكـتـهـا إلى	فـسـطـاطـهـا ومـحل أى فـريق
ورأيت أدنى خـيـرهـا من طـالب	أدنـى لـطـالـبـهـا من الـعـيـوق
قـلت مـنـافـعـهـا فـضـج ولاتـهـا	وشـكـا الـتـجـار بها كـسـاد السوق
مـا ان يـرى فيهـا الـغـريب إذا رأى	شـيئـاً سـوى الخيلاء والـتـبـريق
قـد فـضـلـوا جـهلاً مـقـطـمـهم	عـلـى بـيت بمـكـة للإله عـتـيق
لمصـارع لم يـبق فـى أجـداثـهم	مـنـهم صـدى بـرٍ ولا صـديق
إن هـم فـاعـلـهم فـغـيـر مـوفق	أو قـال قـائـلـهم فـغـيـر صدوق
شيـع الـضلال وحـزب كل مـنـافق	ومـضـارع لـلـبـغى والـتـنـفـيق
أخلاق فـرعون الـلـعـيـنـة فيـهم	والـقـول بـالـتـشـبـيه بـالمخلـوق
لـولا اعـتـزال فـيـهم وتـرفض	من عـصـبـة لـدعوت بـالـتـغـريق

ومثل هـذه الأبيـات إنما تشـخص الحالـة المصريـة الراهنـة كما يصورهـا الإعلام المصرى وكما عرضناها من خلال ما سبق..

وأطلق شوقى فى مسرحيته الشعرية مصرع كليوباترا بيتاً من الشعر يقول:

هداك الله من شعب برئ يصرفه المضلل كيف شاء..

ونقل الجبرتى أبياتاً للشيخ حسن البدرى تقول:

حـارات أولاد الـعـرب   سبعاً حوت من الكرب
بـولٌ وغـائـطـاً كـذا   تـراب غـبـار سوء أدب
وضـجــة أهـلـهــا   شبه عفاريت الـتـرب

وشخصت أبيات البدرى حالة الضجيج التى تسود الشارع المصرى من قديم وكذلك البول والغائط الذى على جانبيه وتفوح رائحته منه، وهى العادة السائدة المستمرة حتى اليوم حيث تمضى فى الطريق العام فترى آثار البول والغائط وكأن هؤلاء لا بيوت لهم ..

ولعل الشعب المصرى هو الشعب الوحيد من بين الشعوب الذى يبول فى الطريق العام، وقد زادت هذه الظاهرة اليوم بعد أن قامت الحكومة بفرض رسم دخول على دورات المياه العامة..

ونقل أيضاً لحسن البدرى أبياتاً يهاجم فيها المظاهر المنحرفة فى دائرة الصوفية تقول:

ليتنا لم نعش الى أن رأينا   كل ذى جِنة لدى الناس قطبا
علماً هم به يلوذون بل قد   اتخذوه من دون ذى العرش ربا
أذا نسوا الله قائلين فلان   عن جميع الأنام يفرج كربا
وإذا مات يجعلوه مزارا   وله يهرعون عجماً وعربا

وأبياتاً أخرى له تقول:

احذروا أولى التسبيح والسبحة   والصوف والعكاز والشمله
والدلق والأبريق لاسيما   شيوخ إبليس أولى الشعرة
بملء الأفواه ينادون يا   أهل الوفا يا صاحب التوبة
ذو كرة والمال يبغون ما   لهم بغير المال من بغية
لكنهم فى الفسق أرقى الورى   كما ترى من غير ما مر به
اتخذوا المُرد مراداً لهم   تهالكو فيهم على الهلكة

وقد شخص لنا البدرى من خلال هذه الأبيات ظاهرة التلاعب بالدين والإتجار به والنصب والاحتيال باسمه ومجامعة الصبيان التى كانت سائدة فى عصره والمستمرة حتى اليوم فى دائرة الصوفية وغيرهم..

وعلى رأس شعراء الفصحى الذين اكتووا بنار مصر وأحاط به البؤس والشقاء الشاعر عبد الحميد الديب، وقد شخص من خلال بضعة أبيات تركيبة المجتمع المصرى الذى اعتاد على العبودية للفراعين، وطبيعة الشخصية المصرية اللامبالية المستسلمة للعبودية الراضية بالذل المبررة له بل والمزينة للعبودية..

يقول فى ديوانه:

أعيش فى أمة ضاقت رغائبها   بالدر وانصرفت حمالة الصدف
إذا رغبت عبيداً فالتمس ملأ   بمصر يحيون كالأنعام بالعلف

ويقـــــول:

وكم فى مصر من غلٍ غبى   تمتع بالجميل وبالثمين
ولو عدلوا لأمسى (خانكياً)   يعذب بالشمال وباليمين

وقال بيرم التونسى فى إحدى قصائده عن فتوات مصر:

من كل طوخى وفرقته ع الأمه رامى جتته
ويخص أهل حتته فى كل يوم بمدبحه
معلمين مالهاش عدد مشغلين مليون ولد
أحداث وأيتام البلد زى الجراد متسرحه
حرامى من غير بينه سلطان فى إيده مروحه

وقال عن اللصوص:

قهاوى فيها لصوص قاعدين بشكل عجيب
م الصبح للضهر للمغرب وللتشطيب
يدبروا فى الخطط ويرتبوا الأساليب

وقال عنهم أيضاً:

النشالين والمناصره والحراميه
أكثر من البياعين ومن الصنايعية
مقسمين البلد أقسام نفوذ وخطوط
وكل فرقة ليها دايره وداوريه

وقال عن لصوص الأضرحة والمقامات:

وفى المقام الكريم محتل ومحتاله
ع الزائرين يلعبوا نسوان ورجاله
فى كل يوم تتنشل كام محفظة فلاح
واحده الحلق من ودانها بااللطافه راح

وقال عن موسم الحج والنشالين:

رأيت بعينى النشالين فى الحرم عند الحجر لسود وعند المقام
زحمه وفيها من جميع الأمم من تركمانى غشيم ومن هندى خام
والنشالين شئ من بتوع الحزم وشئ عارفهم من بتوع الترام
الركن يستلموه مع اللى استلم ويرجعوا بالمحفظه والحزام
ونشالات نسوان قرايب لزم ييجو مع القافله كده بانتظام

وقال موجهاً الكلام للحكومة:

لم اللصوص والنشالين والشحاتين وحطهم
فى أرض بور تصبح إذا ما أصلحوها ملكهم
هنا اللصوص مئات الوف وارضنا بور كلها
شيل من هنا احدف هنا وكل ارض وأهلها
حسبه بسيطه وهينه مش عايزه لجنه تحلها

ومن صور التمرد تلك الصورة التى أظهرها البعض من شعراء العامية المعاصرين ومنها قصيدة خاصة بالعجل الحاكم تحت عنوان:

الرئيس يخاطب شعبه الحبيب..

تقول القصيدة:

يا شعبى ياحبيبى ياروحى يا بيبى يا حاطك فى جيبى يابن الحلال
يا شعبى يا شاطر يا جابر خواطر وساكن مقابر وصابر وعال
يا واكل سمومك وبايع هدومك يا حامل همومك وشايل جبال
يا شعبى اللى نايم وسارح وهايم وفى الفقر عايم وحاله ده حال
أحبك محشش مفرفش مطنش ودايخ مدروخ وآخر إنسطال

احبك مكبر دماغك مخدر ممشى امورك كده باتكال
واحب اللى ينصب واحب اللى يكدب واحب اللى ينهب ويسرق تلال
واحب اللى شايف وعارف وخايف وبالع لسانه وكاتم ما قال
واحب اللى قافل عيونه المغفل واحب البهايم واحب البغال
واحب اللى راضى واحب اللى فاضى واحب اللى عايز يربى العيال
واحب اللى يائس واحب اللى بائس واحب اللى مخبول وشايف محال
واحبك تسافر وتبعد تهاجر وتبعت فلوسك دولار او ريال
واحبك تطبل تهلل تهبل عشات ماتش كوره وفيلم ومقال
واحبك تأيد تمجد توافق تنافق وتلحس نعال
تحضر نشادر تجمع كوادر تلمع تقمع تضبط مجال
لكن لو تفكر تخطط تقرر تشغللى مخك وتفتح جدال
وتبدأ تشاكل وتعمل مشاكل وتنكش مسائل وتسأل سؤال
وعايز تنور وعايز تطور وتعملى روحك مفرد رجال
ساعتها حاجيبك ولا يمكن أسيبك وراح تبقى عبره وتصبح مثال
هابهدل جنابك واذل اللى جابك وحيكون عذابك دا فوق الاحتمال
وامرمط سعادتك واهزأ سيادتك واخللى كرامتك فى حالة هزال
وتلبس قضيه وتصبح رزيه وباقى حياتك تعيش فى انعزال
هتقبل حاحبك حاترفض هلبك هتطلع هتنزل حاجيبلك جمااال

وقصيدة أخرى فيه تقول:

علـيـا الحرنكش ياريس مبارك
فى عصر مزركش منور ينارك
لابايعك وابايع حكومة حمارك
ملعون أبو اللى يقاطع قرارك
نهاره مقندل وليله مبارك
همبك وهجص وطلع فى دينا
أكيد هو طالع يشاهد جمالك
جمالك مبارك سوزانك سوزانا
يا محلا حصارك لمصر اللى جالنا

نسيمها فى عصرك بيشوى فى بدنا
أؤيد وابايع فخامة جلالتك
واؤيد أى واحد بيمسح ريالتك
ولأنك سر باتع هانسى هبالتك
فاقعد ياريس ودلدل حمامتك
حمامة السلام حمامتك ياريس
سلامة الحمامه وسلامتك ياريس
ياريس حمامه ياريس كويس
على تل مصر ياريتك تهيص
خرابه فسيحه عليها متيس
واأمر تطاع فشعبك مفيص

وقصيدة أخرى تقول:

الكل شاكى والكل باكى
وانتى يا بلد فارده قفاقى
والكل يدوس والكل يبوس
وانتى يا بلد كلك تيوس
والكل ياكل من غير مشاكل
وانتى جعان٥٣ حاميكى سافل
الكل واخد حجر ودايخ
وانتى غرقانه فى حب المشايخ
فرعون حاميكى قال بيديكى
وكمان يغديكى وكمان يعيشيكى
وكمان يخليكي رافعه رجليكي
آه يابلد أتفوه عليكي

وقصيدة أخرى عنه تقول:

الكل يقطع من لحمه ويديله
مادام ده عجل حش وارميله
إن كان ده حق قول إيه دليله

وإن كان ده ظلم اقطع له ديله
خليك أمير خليك مطيع
واحفظ مكانك وسط القطيع
وامشى فى حالك وخلى بالك
إن عصايتى ضل الجميع

وأخرى تقول:

يا شايب وعايب وكلك مصايب
فضيت جيوبنا بكتر الضرايب
بيوتنا خربت وانت تضارب
بقوت ولادنا عند الأجانب
خساره وعظك يا تلميذ يا خايب
حرم الكلام فى عجل سايب
يا شايب يا عايب ومن بكره هايب
عمال تعلى وتعمل عجايب
وناسى إن بكره حتبقى غايب
وحتبقى وحدك من غير حبايب
فى أوضه ضلمه من غير مراتب
تتمنى فيها لو كنت تايب

وقصيدة أخرى تقول:

يا بتاع الضربه الجويه
ليه ناعم ويا الحراميه
بعتم مصر نهبتم خيرها
قابض كام فى الميه

ويعد الكاتب المسرحى الراحل نجيب سرور أحد الذين اكتووا بنار هذا البلد وامتهنوا وعذبوا فيه، مما دفعه إلى أن يطلق لسانه فى مصر دون أية محاذير أو تحفظ، فنال من كل رموزها وشخصياتها الحكومية والثقافية والسياسية والفنية، ونسائها على وجه الخصوص بألفاظ فاضحة تكشف مدى قرفه وكفره بهذا البلد ..

يقول عن مصر:

بلد المنايك الكل ناك فيها
شوف الخريطه تلاقيها فاتحه رجليها
ربك خلقها كده راح تعمل ايه فيها
بلدنا موعوده يا محرق تعالى اركب
يركب عليها ولادها يطلعوا شبه
ويجى غيره ويركب بعد ما يغلب
ولادها برضه يا قادر يطلعوا شبه
تسرق شلن تبقى هيصه وبلوه وجريمه
تسرق ألوف الألوف تبقى م الأبطال
وكل ما السرقه تكبر القانون سيمه
وكل ما السرقه تصغر فيه حرام وحلال
مش عيب اقول كسميات وانا مطرشق
ماعدش فيه خشا ولا عيب ولا نيله
ومصر قدام عنيه كسها مرشق
م النيك دمامل وما باليد ولا حيله
وقلنا بننضف بقى قالو بلا وكسه
والله لتحصل بدل النكسه ميت نكسه

ولاشك أن العديد من الشعراء مدحوا مصر وزكوها وقالوا فيها الكثير، إلا أن هؤلاء من الذين انتفعوا منها ولحم أكتافهم من خيرها، وهم على اليقين ليسو من أبنائها لكون خير مصر دائماً لغيرها كما يعتقد المصريون، أو هم من أبنائها المحتمين بالفراعين المعفين من سياطهم، أو من المغيبين الذين تسيطر عليهم عواطفهم أكثر من عقولهم ..

ومثل هؤلاء المادحين كمثل هؤلاء المعاصرين من الفراعين المصريين، وغير المصريين من المستثمرين والمطربين والممثلين والراقصات، الذين فتحت لهم مصر أبوابها ليغرفوا من ثرواتها، ويحققوا المجد والشهرة بواسطتها وهم بدونها لا يوزنون بشئ، مثل هؤلاء لابد أن يمدحوا مصر ويمجدوها، أما شعبها المستعبد وشرفائها المقهورين فلا ينتفعون منها بشئ وهم يعيشون فيها كالغرباء..



ملاحق



سيدنا نوح ـ جوز تعنين ايه ؟! ده انتم تغرقوا بلد !

● العدد ١٧٩٦ السنة الثامنة والثلاثون ●
● الاثنين ١٢ نوفمبر سنة ١٩٦٢ ●
الثمن ٤٠ مليما



سعود ـ امسك لي ضهري قوي ... علشان ح اقوم احارب ثوار اليمن !!


الشاه!
الزحف الاشتراكى


تسقط
الامبريالية الأمريكية
تسقط
إسرائيل
MADE IN U.S.A
USA
العراق

(بدون تعليق)

مليار مرة أقولك إن مصر أغنى
دولة فى العالم ... ليه؟.. عشان
بتتنهب من ١٠٠ سنة، ولسه عمرانة
وبينهبوا فيها




ياحبيبـ ـتى يا مصر


يا.. فضيلة المفتى
الشعب المصرى مات من الجوع
والضرب شوف فتوى تقول
إن الشعب شهيد


الدعم


ياأخى فالى عند (3) دم
هو الشعب لاق يشتغل
أو ياكل علشان نشرب منه ؟!



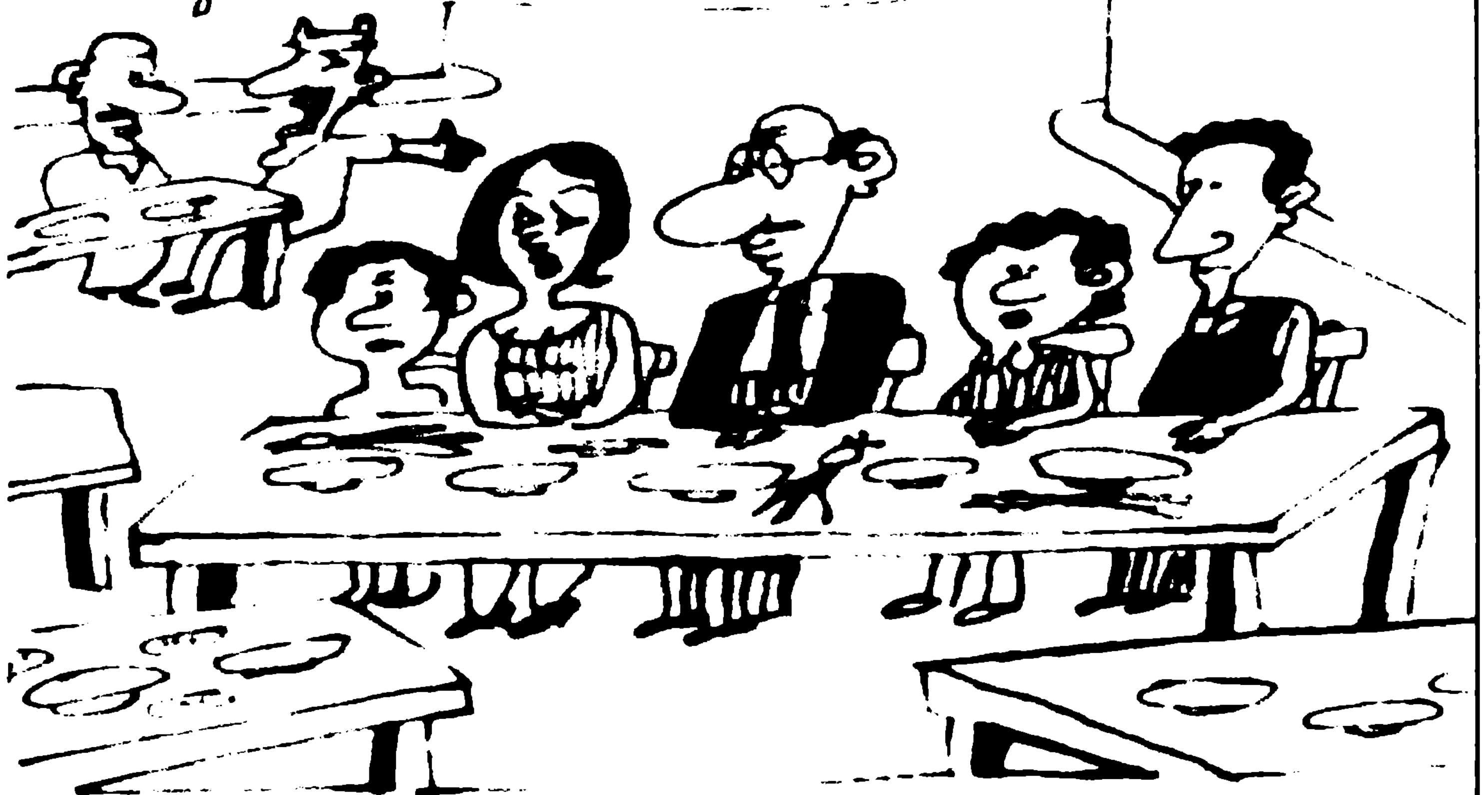


● إحصائية: ٦ مليار دولار حجم تجارة المخدرات فى مصر سنويا ●





• الامتحانات في رمضان •



- مسكين.. اولاده كلهم بياخدوا دروس خصوصية!.

ظاهرة خطيرة نمارسها أحيانا ونتعايش معها طول الوقت

شيزوفرينيا المصريين بين الله والشيطان!

والحكومة تتعبر له ، الشعب اللي لازم يتغير ، يتعلم يشتغل كويس يتعلم ما ياكلش ، يتعلم ما يقلقش ، يتعلم ما يشربش شاي!

هالو يا هالو ... رمضان كريم يا هالو .

كفاية كده ، أعتقد إن دي ضمانات كافية جداً عشان البنك يسلفك المية مليون جنيه!

لحم حمير.. فراخ بالهرمونات.. قمح بالسوس.. لحم بالدود ثم...

لحم الكلاب.. آخر مفاجآت مافيا الموت للغلابة!

.. خمسة وعشرين جنيها بس. هكذا كان يهتف عمر وقطب لجذب الزبائن في شارع السد المزدحم بالناس والبضائع واللحوم

لحم ماعز اصلي بـ٢٥ جنيها. باعوا ما باعوا. حتى سقطوا في يد طلاب بيطريين شرفاء. اكتشفوا ان عمر وقطب يبيعان للناس لحم الكلاب

كارثة لكن في بلادنا كل شيء يمر. كل فضيحة تمر وكل كارثة تبتلع بشوية ميه. وتصريحات وتعريفات وتبادل اتهامات وشوية لخبطة. مع حالة توهان وحيرا يهتف الساحر بابتسامة باردة هاه غير المشهد بعد ان يقلب الثلاث ورقات الجمهور لا متهم. لا قضية لا توجد مشكلة البلد بخير

في أفلام المقاولات وغيرها يضحك الشرير زعيم العصابة وهو يوصي مساعده بتغيير غلاف علبة طعام الكلاب إلى بلوبيف ويقول وهو يشد نفسا من السيجار ولا يهمك معدة الناس بتهضم الزلط

ويبدو ان عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم ستجد المزيد من الزلط وستظل على ذائقها المدهش هذا إلى أن يشاء الله

من يتأنى لماس بالقدرة على التحمل وأن تاريخ هذا الذي يستوعب كل هذه الكوارث الحديثة الفضائح دون أن تتأثر بطالة أو يفجروا غيظا او حزنا حكايات هذه التي تظل مفتوحة ممتدة نحو المطلق بلا نهاية وكأنها مسرحية لمجنون أو أسطورة خرافية ولا نهايات سوى أن يتحسر شاب مصر ثم شاب مصر ثم غيره. ثم بأن يكثر الفحش في الحديث والشوارع والساحات والصالات وأن يتسع صدر الآباء والعقلها. حتى يستوعب زواج العرفي والمتعة والنيك وأي والعرفي وأن يطالب الناس بتوجيههم بفتاوى الجنس العفوي











بساط الريح

هذه هي القاهرة

في القاهرة ٣١ حيا لكل منها رئيس حي والاحياء موزعة على ٤ مناطق لكل منطقة نائب محافظ معين من رئيس الجمهورية

في القاهرة ٢.٧ مليون عقار

في القاهرة ٩٧٤٠ شارعا و١٥٧ ميدانا

في باطن ارض القاهرة شبكة مرافق للمياه والكهرباء والصرف الصحي والغاز الطبيعي تصل اطوالها الى ١.٣ مليون كيلو متر

يمر نهر النيل بمحافظة القاهرة بطول ٤١.٥ كيلو متر من حي الساحل شمالا الى حي التبين جنوبا. تعداد سكان القاهرة حسب اخر تعداد تم في يناير ٢٠٠١ من العام الماضي ٧ ملايين و٦٢٩٨٧٦ نسمة وهو يمثل ١١٪ من سكان مصر. واذا اضيف سكان محافظة الجيزة البالغ عددهم ٥ مليون يرتفع النسبة الى ٢١.٢٠٪ من سكان مصر. وباضافة سكان شبرا الخيمة يرتفع تعداد سكان القاهرة الكبرى الى ١٤ مليون نسمة باضافة الوافدين من غير سكان القاهرة الكبرى والذين يفدون اليها متوسطهم ثلاث ملايين فان عدد الذين في القاهرة يرتفع الى ١٧ مليونا!

في القاهرة ٣٦١٦ مدرسة متنوعة مليونا و٦٣٧ تلميذا

في القاهرة ٤٠٦ مستشفى و١٦٩ ناديا رياضيا واجتماعيا. و٥٥٤ اثرا تاريخيا و٨٢ متحفا و٣٢٨ حديقة عامة مساحتها ٨٨٥ فدانا بمتوسط ١.٦ متر مربع خضرة للفرد. وافضل الاحياء من حيث مساحة الخضرة مصر الجديدة ومدينة نصر

في القاهرة ٦٦ كوبري للسيارات و٣٧ كوبري للمشاة و٢٧ نفقا للسيارات و١٥ نفقا للمشاة وخطان لمترو الانفاق

تحتاج القاهرة الى ٨ ملايين متر مكعب مياه يوميا والمنتج منها ٦ ملايين متر مكعب يضيع منها نحو مليون. وحتى يتم توفير المياه لكل احياء القاهرة تحتاج العاصمة الى زيادة الطاقة بمقدار مليوني متر مكعب وهذا يتحقق بناء محطتين محطة في المرج واخرى بحلوان علما بان مشكلة نقص وانقطاع المياه تتركز في المنطقة الجنوبية من مصر القديمة حتى حلوان وفي المنطقة الشرقية في مدينة السلام والنزهة ومدينة نصر شرق وغرب برغم انها احياء جديدة ولكن سرعة التوسع العمراني فاقت سرعة مشروعات مياه الشرب

اي كلام عن تحسين المياه في مدينة نصر لن يتحقق قبل ثلاث سنوات هذا اذا افترضنا انه تم البدء في توفير الاعتمادات

القاهرة من كبرى المدن المعقدة مروريا على مستوى العالم. وحاليا ليست هناك نهايات محددة لحدودها. كما انه لا يوجد تخطيط دقيق لاستخدامات الشوارع

في القاهرة مليون و٤٢ الف سيارة بالاضافة الى ٨٠٠ الف سيارة تدخلها يوميا من خلال مداخلها في الوقت الذي كان في القاهرة عام ١٩٦٠ ٥٩ الف سيارة!

بالنسبة لمساحة الطرق التي تتحرك فيها المليونا سيارة فانها لاتتجاوز ١٥ في المائة من مساحة القاهرة

في القاهرة ٦٨ منطقة عشوائية

وكل هذه البيانات استخرجتها من الحوار الممتع الذي اجرته مجلة المصور (عدد ٧ يناير ٢٠٠٢) مع الدكتور عبدالعظيم وزير محافظ القاهرة

وهي صورة كما يتضح مخيفة وان كانت لاتشكل كل ما في القاهرة. فهناك الوزارات والمصالح والاجهزة المختلفة التي تعتبر كل منها مسئولة عن نفسها وبرغم ذلك يبقى المحافظ مسئولا عنها من الناحية الادبية. واقرب مثال على ذلك مترو الانفاق الذي يتبع الهيئة العامة لمترو الانفاق. ومرفق المياه والصرف يتبعان الشركة القابضة ونهر النيل ويتبع وزارة الري.. الخ

لكن الخبر السار الذي ذكره المحافظ هو الخاص بالمطبات التي انتشرت في شوارع القاهرة وقد كتبت عنها كثيرا لدرجة ان بعض المواطنين فكروا في انشاء جمعيات لهدم المطبات والمقبات. ويقول المحافظ ان المفروض ان تتم ازالة جميع المطبات ولايستثنى منها الا ما كان امام المدارس او التجمعات السكنية الكبيرة وتكون وفق مواصفات معينة وبجوارها اضاءة وتحذير خاص لها. وسيتم تنفيذ ذلك مع المهندس عبدالمقصود مدير الطرق. هذا ما قاله السيد محافظ القاهرة منذ اكثر من شهر. وحتى اليوم لم نجد طوبة واحدة زالت من اي مطب بل ان العدد يزداد.. وهو ما قد يضطرنا الى تذكير السيد المحافظ كل شهر بما ذكر



صلاح منتصر

salahmont @ ahram.org.eg

٢٣ سنة طوارئ =

بلطجة دولة

حاميها.. حـــــراميها

فضائح النواب!

تزوير أوراق رسمية.. وتوقيعات الوزراء..
الاستيلاء على تأشيرات الحج.. وبلطجة فى الفنادق..
جرائم يرتكبها الأعضاء بسلاح "الحصانة"

فضيحة فى البرلمان

نواب الأغلبية والمعارضة تبادلوا الاتهامات بالإرهاب والعمالة
زهران قدم مستندات بحصول أعضاء الوطنى على أموال من الحك

مجلس الشعب يرفض إحالة قضية الرشاوى السياسية لنواب الوطنى للمركزى للمحاسبات

[redacted]

انتهاكات صارخة.. وسمعة مصر فى خطر

التحقيق مع ١٦ مسؤولا بـ حى شرق «فى عمارة الموت».. وارتفاع عدد الضحايا إلى ٣٨ !!

إنحرافات.. المحليات

■ وقائع الفساد واهدار المال العام التى تنشر أقل من الواقع بكثير!

بدء محاكمة ١٩ متهما بينهم عضوان بمجلس الشعب

المتهمون استولوا على أراضى الدولة وطالبوا بتعويض ١٦٢ مليون جنيه

الإيدز يقتحم بيوت المصريين!

صدور المواطنين تتنفس عادم

١٢ مليون رحلة سيارة يوميا

محاكمة مدعي النبوة

التضحية بالرؤوس الكبيرة واتهامها
بالفساد لتمهيد الطريق لجمال مبارك

العفريت القصير خرب البيت

بدعوى المرض للنصب واستجداء موظفي الشركات والهيئات ال

بصمات النظا
على الدم الملوث

استيراد أكل قطط وكلاب
وآيس كريم وسلع هايفة
تانية بمليار جنيه

عذراء حامل والأب عفري

« لجنة السياسات » الباب الملكي لعبور أصحاب المليارات

الباشوات الجدد الـ ١٥ الذين تصنع لهم القوان

أطفال للبيع!

الفقر وضعف الوازع الديني وراء رواج التجارة

٢,٥ مليون عاطل في مصر..

مين يزود؟!

٢٠ مليون قضية امام المحاكم.. الناس حصلها ايه؟!

١٦,٢ مليون امي.. المدارس فين؟!

٦٣ الف حالة طلاق..

لماذا؟!

٥ ملايين (إنسان).. يسكنون العشوائيات والمقابر

«دجال».. يصور امرأة اماراتية وابنتها عرايا.. ويطلب ١٠٠ ألف درهم!!

ضبط وإحضار.. الحكومة

- ١٥٪ من أيام العمل السنوية أجازات وعددها ٥٥ يوما
- الموظف الحكومي أكثر الناس إهدارا للزمن وهو لا يعترف بالانضباط
- برامج التدريب مضيعة للوقت.. وهي قروض ... توزيعها على الكبار

نار الأسعار تحرق جيوب ...

«نفايات المستورد» تغزو الأسواق

أسعار السلع والخدمات زادت بنسبة ١٠٠٪

عام «الرمادة» في مصر!

وزير التعليم العالي لـ «الأهرام»

منظومة التعليم في مصر «جامدة»..!

شائعة مرض الرئيس قنبلة دخان

لاختبار قبول التوريث.. والتغطية على انفجار الأسعار.. وحصار حرية الصحافة

.. فمن يسأل عن صحة مصر؟

العالم السرى للسلاح فى مصر!

قائمة بملوك بيزنس السلاح من رجال الاعمال

من عبد الوهاب

إلى عمار الشريعى:

كبار الملحنين متهمون بالسرقة!

معاكمة عاجلة لزواج المتعة

كتب حسام محمد على

مخالفات خطيرة يكشفها الجهاز المركزى للمحاسبات تفتح ملف التحقيقات

مكتب المحافظ تكلف ٢ مليون جنيه ومستشفى يخدم ٣٠٠ ألف مواطن توقف لحاجته لربع مليون

علاقة بدايتها مصالـــــــح.. ونهايتها فضائح

المـــال.. والسلطـــة.. والســـلاح

هل دفع المصريون فاتورة ضيافة رئيس فرنسا وعشيقته؟

١٠ مليارات جنيه فاتورة احتفال المصريين بليلة رأس السنة.. فياجرا بـ ٤٠ مليون جنيه

في رمضان هذا العام

موائد الرحمن «على الرصيف»

خريطة توضح المعالم الاقتصادية لمصر رسمتها موجهة لصندوق النقد الدولي والساعين بإلغاء الدعم كلية رصد للفروق الاقتصادية التي تفشت في الآونة الأخيرة. أرقام مخيفة عن الفقراء لصحيفة متخصصة محلية في مصر.. منطقة غير معلنة بين «شهر رمضان» و«عيد الفطر»، ووسيلة مضمونة لكسب أصوات جديدة في مجلس الشعب إنها بلا منازع موائد الرحمن المنتشرة بطول شوارع القاهرة لتؤكد على التعاطف والحب للمصريين وتكشف الفروق الاقتصادية الواضحة الآن بين طبقات الشعب المختلفة والأرقام تقول إن هناك ما يقرب من ١٩٥٠٠ مائدة رحمن يفطر عليها حوالي ٧٥٠ ألف صائم سنويا. يشرف على بعضها لله للوائد ٥ آلاف لجنة زكاة منها ١٥٠٠ لجنة منتشرة في القاهرة تقيم حوالي ٨٠٠ مائدة يفطر عليها ٣٠٠ ألف صائم سنويا. يقوم بخدمة تلك الموائد أكثر من ١٠ آلاف متطوع ويبدأ العمل في إعداد الطعام بها من مساء اليوم السابق للإفطار

١٩٥٠٠ مائدة للأفطار يفطر عليها ٧٥٠ ألف صائم

أسعار المسلسلات نار.. بسبب نجوم السينما

إلهام شاهين بـ ٢ مليون.. وليلى علوى مليون و٤٠٠ ألف جنيه

نور الشريف مليون و٣٠٠ ألف..
نبيلة عبيد ٨٥٠ ألف جنيه فقط.. يا بلاش

■ تفاصيل الاتصالات السرية بين راقصات مصر وسماسرة التطبيع

...يون المصرى يؤدون العمرة

قبل أن تبدأ رحلة الشعائر المقدسة (٢):

الوسطاء أشعلوا نار الحج السياحى!

■ ٣ مستويات للأسعار تبدأ من ١٦ ألف جنيه وتنتهى بـ٥٥ ألفا
■ ٢٠ ألف تأشيرة سياحية تتنافس عليها ٧٤٠ شركة حسب مستوياتها
■ بعض الحجاج حجوا عن طريق الوسطاء بأسعار تزيد عن الأسعار المقررة

لعنات مصر «سبعة»

أولها الفقر وآخرها القهر

نسطع شمس اليوم الاول من العام القادم ٢٠٠٨. يكون الرئيس مبارك قد أتم فى قيادة مصر ٩٥٨٢ يوما
الكمال فى طريقه لليوم رقم ١٠ الاف الذى يقضيه رئيسا للبلاد. والذى يحين فى ٢١ فبراير ٢٠٠٩. ومصر
لأى حاكم بهمومها وامراضها وافاتها.. وفى نفس الوقت سهلة القيادة بشبعها الصبور الكتوم القادر على
ومهمة حكم مصر تكون صعبة فى حالتين.. الأولى حين يفقد المصريون صبرهم. ويقسو قلبهم. ويجهرون
والثانية حين يتعذر تشخيص الأمراض التى تواجهها. وتبقى الحالة الاولى على مرمى البصر لكل متابع لما
الشارع المصري مؤخرا. فالناس فقدت الأمل والصبر معا. وأصبح تنفيس غضبها فى الشارع.. أقرب لها من أى
حتى بات مبدأ "انتزاع الحقوق" أكثر تأثيرا من شعارات دولة القانون والمؤسسات.

لة الثانية فمن الصعب حدوثها لأن ادراج المسئولين مليئة بالدراسات التى تحدد أمراض مصر.. وتجتهد فى
حلول.. ورغم ذلك قررنا فى "الميدان" أن نجتهد فى حدود ما لدينا من شواهد لرصد أهم ٧ أمراض تهدد
مصر.. بعد ان استفحل المرض وصار غولا ينهش فى جسد الوطن.. لنحذر اولى الأمر.. ونذكر من يهمه

٪ من المصريين يرون أن الفساد منتشر بصورة مذهلة ◁◁ مصر واحدة من اهم
دول فى العالم فى تجارة الأعضاء البشرية ◁◁ أكثر الدول فقرا فى العالم..
دعمها لقطاع الصحة ما تقدمه الحكومة للقطاع الصحى الذى يحتاج إلى ٢٩
نيه مقابل ٦,٤ مليار جنيه تنفقها الحكومة ◁◁ حين يسيطر المال تداس القيم
الأحذية.. فيبيع الانسان إرادته بعشرين جنيها مقابل صوته الانتخابى ◁◁
داء الجنسى على الأطفال يمثل ١٨٪ من إجمالى الحوادث المتعلقة بالطفل

فضيحة صحافة العفاريت

منذ ٧٥ عاما قصص العفاريت والجن من اللطائف المصورة
يا سلطان الجن الأحمر واللي عليه عفريت يحضر..!!
حكايات العفاريت منذ ١٩٣٠ وحتي الآن
ملوك الجان أمام القضاء منذ أكثر من ٧٥ عاما في اللطائف المصرية



الأخ ينظر إلى أرجل أخته لحظة خروج الجن

الفاينانشيال تايمز

عشر شخصيات تهيمن على مصر

في تحقيق نشرته ضمن الملحق الأخير الذي خصصته عن مصر اختارت صحيفة «الفاينانشيال تايمز» البريطانية عشر شخصيات واعتبرتها أهم شخصيات كانت محركة للأحداث في مصر في ٢٠٠٧ والشخصيات العشرة هي على الترتيب (١) جمال مبارك (٢) أحمد نظيف (٣) رشيد محمد رشيد (٤) أحمد المغربي (٥) يوسف بطرس غالي (٦) محمود محيي الدين (٧) مهدي عاكف (٨) (٩) عائلة ساويرس الأب نجيب والابن سميح (١٠) أحمد عز ومن الواضح من اختيارات الناشر أنه غلب عليها الطابع الاقتصادي اليبرالي.

عن جمال مبارك تقول الصحيفة إن جمال مبارك المولود في ١٩٦٣ هو الابن الأصغر للرئيس حسني مبارك والأمين المساعد للحزب الوطني الديمقراطي الحاكم في ٢٠٠٧ أصبح الابن الذي كان يعمل في السابق في البنوك الاستثمارية صاحب نفوذ هائل في الشئون العامة المصرية وقد استمر جمال مبارك في ٢٠٠٧ في إثارة إعجاب مجتمع البيزنس والأعمال والذي أصبح جزءاً كبيراً من عضوية وزراء في حكومة أحمد نظيف الحالية وخصوصاً الوزراء المسئولين عن الملف الاقتصادي وفي ٢٠٠٧ ازداد الاقتناع لدى الرأي العام والمعارضة المصرية بأن جمال مبارك يتم إعداده لوراثة السلطة من والده وإن كان يريد أن يرفض هذا الأسلوب عبر التركيز على عدم التعليق من جانب وأصر جمال مبارك على أي طموحات رئاسية له ويحاول أن يعطي انطباعاً بأنه مجرد شخصية تكنوقراطية لا غير ولكن غالبية الرأي العام لا يصدقون ذلك.

أحمد نظيف منذ أن تم تعيينه رئيساً للوزراء في ٢٠٠٤ عمل أحمد نظيف على أن يكون مجلس وزرائه مكوناً من رجال القطاع الخاص بالدرجة الأولى وسمح تعريف اقتصادي مرتبط بجمال مبارك أن يتقدم بعدد من الإصلاحات التي يراها ضرورية لتحقيق معدل نمو متواصل ولكن على الرغم من مركزه إلا أن نظيف أعطى انطباعاً بأنه ليس المحرك الرئيسي للأحداث والقرارات وإن أعضاء مجلس الوزراء من فريق جمال مبارك يهيمنون عليه وقد حاول نظيف في ٢٠٠٧ الخروج من هذه العباءة نحو ما ولكن مازال الانطباع السائد عنه لدى الرأي العام أنه ليس صاحب قرار رئيسي رغم أنه رئيس وزراء للعام الثالث على التوالي.

رشيد محمد رشيد في ٢٠٠٧ حقق رشيد محمد رشيد وزير الصناعة والتجارة حالة من اللمعان الكبير وهو دائماً موضع استحسان وتقريظ مجتمع رجال الأعمال والبيزنس لصراحته ... رأيهم في حقل ... والاهتمام الدائم ... التواصل الدائم معه والكشاف ... ويعتبر رشيد واحداً من الفريق الاقتصادي ... نظيف والمرتبط بجمال مبارك وقد شهد ... تكهنات شديدة باحتمال توليه رئاسة الوزارة وربما يحدث ذلك في المستقبل.



أحمد المغربي هو رجل أعمال جزء من مجموعة من رجال الأعمال التي انضمت للحكومة في ٢٠٠٤ وفي ٢٠٠٧ سلطت الأضواء على المغربي بشدة نظراً لتفاقم مشاكل الإسكان والرقابة حيث شهد انهيار ... في الحوادث السكنية وفي توافر مياه الشرب وخدمات الصرف الصحي وهو الأمر الذي أدى إلى اعتصامات في المراكز الريفية والحضرية المكتظة بالسكان وسوف تزداد مهمة هذا الوزير صعوبة مع تزايد عدد السكان.

يوسف بطرس غالي واجه هذا الوزير الذي تقلد مناصب عديدة حتى وصل إلى منصب وزير المالية تحديات عديدة في ٢٠٠٧ ... غالي هو الذي يقف وراء محاولات الحكومة الأخيرة تقليل الدعم ... حتى ...

محمود محيي الدين سطع هذا الوزير الشاب ... معروف وكان في السابق أستاذ الاقتصاد في جامعة القاهرة حتى ٢٠٠٤ وفي ٢٠٠٧ زادت مسئولية هذا الوزير والتي تتعلق بالتعامل مع قضايا حساسة مثل معالجة الاختلالات في شركات قطاع الأعمال الخاسرة ومواصلة سياسة الخصخصة التي تحظى بكراهية شعبية شديدة وقد نال محيي الدين استحساناً كبيراً في ٢٠٠٧ بعد تقرير البنك الدولي أشاد فيه بتحسن المناخ الاستثماري في مصر.

محمد مهدي عاكف هو المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين التي تعتبر أكبر جماعة معارضة منظمة رغم أنها محظورة من العمل السياسي منذ عام ١٩٥٤ وقد بدأ نجم الجماعة يعود في الظهور عندما صدمت الحزب الحاكم في انتخابات ٢٠٠٥ بالفوز بـ ٨٨ مقعداً مرة واحدة ويرى المحللون أن شعبية هذه الجماعة تعود بالأساس إلى ... التيارات ... على أعمال برامج الرعاية الاجتماعية من قبل الحكومات مما أدى بالجماعة لتحويل هذا المجال واكتساب ... من ... ورغم أن الحكومة والجماعة ... منذ ... شهد عمليات اعتقال ... لأعضاء الجماعة ... من قبل النظام لأعضاء الجماعة وقد شهد ٢٠٠٧ محاولات من مهدي عاكف ... الجماعة كحزب سياسي من خلال تقديم برنامج سياسي ... من ... شهد هذه الجماعة ... كحزب سياسي ... كبير ... الجماعة ...

عائلة ساويرس ... ساويرس ثلاثة ... نجيب وسامح وناصف ... ويعتبر هؤلاء الثلاثة ... مختلفة ومتصلة والعائلة جزء من الأقلية المسيحية في مصر وقد تولوا إدارة ... من ... وقد شهد عام ٢٠٠٧ توسعاً كبيراً لعائلة ساويرس في مشاريع ... والثروة ... مجلة فوربس ... ساويرس في الموقع ... من بين أغنى مائة رجل في العالم وتقدر ثروة ساويرس ... على ... مليار دولار.

أحمد عز هذا ... أصبح في ٢٠٠٧ صاحب نفوذ هائل سواء كان رجل أعمال أو سياسي ... أحمد عز ... إلا على أنه أكبر المقربين في دائرة جمال مبارك ويرأس أحمد عز مجموعة شركات ... شركة منتجة لحديد الصلب وهي من أكبر الشركات في الشرق الأوسط في ... أصبح أحمد عز عضواً نائباً في الحزب الحاكم مع جمال مبارك علاوة على أنه أصبح ... عضواً في البرلمان ورئيساً للجنة الشئون المالية وقد ازداد نفوذ أحمد عز ... في ٢٠٠٧ ... وتنظيم حملة الرئيس حسني مبارك الانتخابية الرئاسية.

■ جمال عصام الدين

منذ آلاف السنين وشعار المصريين لا يتغير

هي دي مصر يا عبلة!

المصريون متهمون بالطيبة.. والحاكم او الملك عندهم هو رمز مقدس حتى لو حكمهم بالحديد والنار آلاف السنين وفكرة الحكم عند الفراعنة وراثي. فالملك يترك الحكم لأبنائه وأبناء ابنائه وكل البلد مزرعتهم الكبيرة والشعب هو الخدم

عز الدين

فالملك سيتي الأول أحد ملوك الدولة الحديثة.. ولد رمسيس الثاني «فرعون الحرب والسلام» في السنة السابعة من حكمه فقرر أن يكون ابنه هو الملك وزعمه جالسه على العرش وهو مازال في السادسة من عمره «وليس كما يذكر المؤرخون خطأ في الـ ٤٦» وكان هذا هو نص حديث الملك سيتي بعدما جمع الحاشية والوزراء.. قال لهم «اجعلوه يبدو ملكا حتى أشهد جماله، وأنا مازلت حيا ضعوا التيجان على رأسه فسوف يدير هذه الدولة ويصرف شئونها ويقود شعبها». هكذا هيأ الناس لاستقباله بعد وفاته. كان ذلك في العصر القديم الذي لم يعرف فيه الكلمة وحراس المعبد «لجنة السياسات» بعد..



مات سيتي الأول في الخمسين وبذلك أصبح رمسيس الثاني ملكا مطلقا.. هكذا كان التخطيط من البداية.. بكى الشعب المسكين الملك العظيم وكذلك ولده الذي شارك في مراسم الدفن وكل الناس يصيحون «مات الملك.. مات الملك» واعتلى الولد العرش وتغير النداء إلى «عاش الملك.. عاش الملك» وأقيمت الاحتفالات.. حكم رمسيس الثاني وهو في الـ ٢٥ من عمره وكان ككل الملوك تجسيدا بشريا لإله الشمس

حتى وصل عمره إلى حوالي ٩١ عاما دون أن تغرب شمسه.

وما إن حلت السنة الـ ٣٠ من حكمه حتى أخذ الملك في اتخاذ الأساليب السحرية لتجديد شبابه فمارس عمليات تجميل «شد وشد» وصناعة شعر. كما كان يقيم الاحتفالات التي تظهره بالقوة ويبذل العطاء للمؤلفين والمطربين للتغني بمحاسنه وكانت أهم الأساس في هذا العصر الفرعوني «احتفالات» لكن لم يكن بالإمكان أن يحصي على أحد أن الفرعون كبر وشاخ حتى الاحتفالات لم يعد يشاهدها الناس.. بل نراه ويقال إن الملك أراها.. ولم يعد يسمعه سحر.. وعندما أحس الملك بقرب النهاية.. اختار أحد أبنائه الأحياء وكان رقم ١٣ «شايف النحس» ليطمئن بعد أن يموت أن أبناءه يحكمون من بعده فلا يمسح أحد أعماله المجيدة من على الجدران أو يلغي محطة رمسيس.. وبعد وقت قصير.. مات الملك وصرخ الناس مات الملك ثم جاء ابنه على العرش ليهتف الناس «عاش الملك» وهي دي مصر يا عبلة».

مصر تحت الأنقاض

٢ مليون مبنى آيل للسقوط و٩٠٪ من العقارات مخالفة

عن الزمن في حياة المصريين

بسبب الوقت الضائع نخسر ١٥ مليون جنيه شهرياً

يشنق نفسه بسبب المصروفات المدرسية !!

الإعدام لعامل والأشغال الشاقة لآخر قتلا سيدة بمطواة وسرقا مصوغاتها

المؤبد للعجوز قاتل زوجة ابنه

وانتحار اخصائي بحريات

مطلقة تتزوج ثلاثة رجال في وقت واحد!

بيعها الوهم بـ ٣٠٠ ألف جنيه

اكتشاف جراج تجميل داخل

النيابة تطلب بإعدام الريجيسير قاتل وداد حمدى

المدير سرق ١,٥ مليون جنيه من الحكومة !

الصفقات المشبوهة التي كشفت مليونير التجارة الخارجية

ضبط عصابة يتزعمها صاحب معرض للسيارات لجلب الهيروين
والقبض على سيدة تروج المخدرات علانية بباب الشعرية

احالة طالب جامعي للجنايات
قتل موظفا حاول منعه من مغازلة ابنته

ضبط كميات كبيرة فاسدة من الملح والبن والدقيق بالسويس
ومصادرة كمية كبيرة من العسل الأسود الفاسد بالمنصورة

مصرع ثلاثة عمال صعقا بالكهرباء

حاكموا هؤلاء الضباط!

اعتقالات وتلفيق تهم وعمليات تعذيب مستمرة داخل أقسام الشرطة

التعذيب فى مصر «سياسة دولة» وليس تصرفات فردية!

جرائم جهاز الأمن

القبض على سكرتير مساعد محافظ سوهاج لاتهامه بإهدار ٢,٥ مليون جنيه على الدولة

٧ ذئاب بشرية يحتجزون فتاة متخلفة عقليا ويتناوبون الاعتداء عليها حتى فارقت الحياة

الحبس ٤٥ يوما للزوجة وصديقها قتلا الزوج بسم الفئران

بطل السجن بتهمة أكل أذن جاره!

جريمة نسائية خاصة جدا

امرأة واحدة لثلاثة أزواج!

حكاية قتل.. آية.. وإسرا

«صفاء» قتلتهما للاستيلاء على «حلق» ذ

الفساد فى «إمبراطورية» المحليات!

١٥ ضحية لمجرمي الأمن خلال عام

مصر على رأس ٥٠ دولة تصعق مواطنيها بالكهرباء

جهاز أمن الدولة يوظف أطباء لعلاج الضحايا بعد تعذيبهم!

[illegible]

احمد ابراهيم

مفاجآت مثيرة في قضية أكياس الدم الملوثة

المحكمة تأمر بالقبض على هاني سرور وأعوانه وحبسهم على ذمة القضية

حصريا وللمصريين فقط.. ماء ودماء ملوثة

بأمر النائب العام:

مطلوب بعثة تقصي حقائق للتحقيق

في تجاوزات مستشفى أمراض [illegible]

شيماء دفعت حياتها [illegible] اللوز [illegible]

ذهب مصر أين ذهب؟!





[illegible]

أعمال منجمية قديمة وحديثة بحثاً عن الذهب

فى عروق المرو بمنجم سمنة بوسط الصحراء الشرقية



الصورة توضح البحث عن الذهب فى الرواسب الوديانية السطحية لمنجم

كوريباى فى جنوب الصحراء الشرقية

البؤس فى مصر

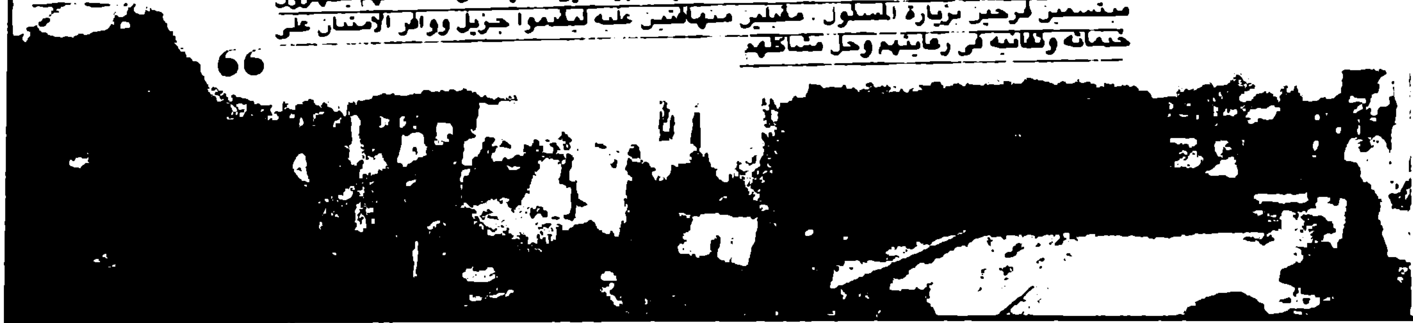




مواطنون يعيشون فى المستنقعات ومع الحيوانات

القاهرة التى لا تراها الحكومة.

"كثيراً ما نرى مواكب كبار او حتى صغار المسئولين تمر فى شوارع القاهرة وميادينها النظيفة وعلى جوانبها الورود والأشجار والأنوار وطرقها «المرصوفة»، وكثيراً ما تنقل شاشات التليفزيون تحركات المسئولين ولقاءاتهم بالمواطنين الذين انتهت كل مشاكلهم يظهرون مبتسمين لترحيب بزيارة المسئول . مقبلين متهافتين عليه ليقدموا جزيل ووافر الامتنان على خدماته ولقائه فى رعايتهم وحل مشاكلهم"





الزواج العرفى ينتشر

بين طلاب الجامعات !!

قنبلة فى الجامعة

الزواج العرفي بين الطلبة والطالبات

يتحول إلي «ظاهرة»

في الحرم الجامعي

محتويات